

صِنَاعَةُ الْوَعْيِ

السَّامُ الْخَفِيَّةُ
مِثْلُ اسْتِرَاطِيَّةٍ فِي الْعِلْمَاتِ الْنَفْسِيَّةِ
وَتَفْكِكِ الْوَعْيِ

د . محمد محمود مرتضى

مَرْكَزُ بَرَاثَا لِلدِّرَاسَاتِ وَالْبَحْثِ

Baratha Center for Studies and Research



■ السَّهَامُ الخَفِيَّةُ

مئةُ استراتيجية في العمليَّاتِ النَّفسِيَّةِ وتفكيكِ الوعي

- د. محمد محمود مرتضى -

◆ رقم الطبعة: الأولى
◆ تاريخ الطبعة: ٢٠٢٦ م - ١٤٤٧ هـ
◆ مكان الطبعة: بيروت - بغداد

■ الآراء المطروحة لا تعبر عن رأي المركز بالضرورة ■

© جميع الحقوق محفوظة للمركز

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

Baratha Center for Studies and Research
www.barathacenter.com
barathacenter@gmail.com

صِنَاعَةُ الْوَعْيِ

الْمَسْأَلَةُ الْخَفِيَّةُ
مِثَّةُ اسْتِرَاطِيَّةٍ فِي الْعَمَلِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ
وَتَفْكِكِ الْوَعْيِ

• د. محمد محمود مرتضى



مركزُ بَرائِثِ الدِّرَاسَاتِ وَالبُحُوثِ
بِيرُوتِ - بَغدَادُ

صِنَاعَةُ الوَعْيِ

في عالم تتسارع فيه الأحداث، وتشابك فيه التحدّيات، صار الوعي شرطاً لازماً للبقاء الحرّ والمستقلّ. فالشباب اليوم يواجهون منظومة معقّدة من الضغوط الذهنيّة، والنفسية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها، تُمارَس عليهم عبر الإعلام الموجّه، والتعليم الممسوخ، والمحتوى الرقميّ المصمّم لاجتذاب العقل، ولتكيفه وإعادة تكوينه ضمن قوالب مُهيمنة. ومع تنامي أدوات السيطرة الناعمة، باتت المعركة الحقيقيّة تدور في ميدان الإدراك: كيف نفكّر؟ وماذا نرفض؟ وما الذي نعدّه خطراً؟ ومن هو عدوُّنا أصلاً؟

وفي هذا السياق، تُطرح قضايا خطيرة تُلامس الأمن الثقافيّ، والاجتماعيّ، والسياسيّ: من تزييف الوعي باسم الحرية، إلى تسطيح المفاهيم باسم الحدّات، ومن اختراق المجتمعات عبر البيانات والإعلام، إلى تحييد الأفراد وتجريدهم من فاعليّتهم. كما أنّ غياب ثقافة الوعي، والانجرار خلف الاستعراضات الرقميّة، أسهما في إضعاف كثير من الحركات والعمل المقاوم.

من هنا، تنطلق (سلسلة صناعة الوعي) التي يُصدرها (مركز برانا للدراسات والبحوث)، بوصفها استجابة معرفيّة لهذه التحدّيات. فالسلسلة مشروع عمليّ لإنتاج دراسات تخاطب الشريحة الشبابيّة خاصّة، بهدف تحصين وعيها، وتعزيز مناعتها الفكرية، وتأهيلها لفهم أعمق لطبيعة الصراع.

وتركّز السلسلة على قضايا ملحّة تمسّ الوعي مباشرة، كالحروب النفسية، وأدوات التضليل والإقناع، وأهميّة السريّة في العمل المقاوم، ونقد التغريب والتطبيع، وغيرها من الموضوعات التي لا تنفصل عن الواقع اليوميّ للمجتمع المقاوم. وهي بذلك تسعى لبناء جيل لا يُخدع بالشعارات، ولا يُساق بالغرائز، ولا يُستنزف في معارك جانبيّة، وإنّما يدرك موقعه ودوره، ويتعامل مع الوعي بوصفه فعلاً مقاوماً. إنّ «صناعة الوعي» هي رؤية متكاملة، تعتبر أنّ النصر يبدأ من الفكرة، وأنّ الهزيمة تتحقق حين يُصادر العقل، أو يُخدّر، أو يُخترق.

مقدمة

لسنا في زمنِ السُّيُوفِ، لكننا لم نغادرَ ميادينَ المعركةِ. نحن فقط نقلناها من الجسدِ إلى الذَّهْنِ، ومن السَّلاحِ إلى الرَّمزِ، ومن الدَّمِ إلى الإدراكِ. ما يبدو عالمًا مفتوحًا على التَّواصلِ والحريَّةِ، ليس في كثيرٍ من جوانبه إلا غلافًا شفافيًّا لحربٍ مستترةٍ، تستهدفُ الوعيَ في مقاصدهِ الأولى، والهويَّةَ في بنيتها العميقة. إنَّها الحربُ النَّفسيَّةُ؛ باعتبارها جوهرَ المعركةِ المعاصرة؛ حيث لا تُهزَمُ الأُممُ على حدودِها، وإنَّما في أفكارِ أبنائها، ولا يُحتلُّ التُّرابُ، وإنَّما يُحتلُّ العقلُ.

لا تنحصرُ العمليَّاتُ النَّفسيَّةُ في ما نراه في كتائبِ الجيوشِ، ولا في ما تُدرِّسه المعاهدُ الأمنيَّةُ، وإنَّما تمتدُّ لتشكِّلَ منظومةً شاملةً من الأدواتِ الناعمةِ، تسري كالماءِ داخلَ العقولِ، وتُعيدُ تشكيلَ المشاعرِ

والمعايير من الدّاخل. هي الحربُ التي لا يُسمَعُ فيها صوتُ الرّصاصِ؛ لأنّ القتلَ فيها يجري على مهلٍ... عبر القناعاتِ، وعبر العباراتِ، والصُّورةِ، والتكرارِ، والإغواءِ، والشكِّ.

من هنا تنبُعُ الحاجةُ إلى هذا الكتابِ؛ ليغوصَ في صميمِ البنيةِ النَّفسيةِ التي تُبنى عليها أدواتُ الإخضاعِ في هذا العصرِ، حيث جرى استبدالُ أدواتِ السَّيطرةِ الخسنةِ بأدواتِ رمزيَّةٍ ناعمةٍ، وظهرتْ أنظمةٌ جديدةٌ من الهيمنةِ الإدراكيَّةِ تمارسُ فعلها دون الحاجةِ إلى احتلالِ عسكريٍّ أو انقلابٍ سياسيٍّ. تكفي بضعةٌ منصاتٍ رقميَّةٍ، وقليلٌ من الزخَمِ الإعلاميّ، وشبكةٌ من الرموزِ الثَّقافيَّةِ، حتَّى تتغيَّرَ بوصلةُ مجتمعٍ كاملٍ، أو تنهارَ مناعتهُ الدَّاخليَّةُ دون طلقةٍ واحدةٍ.

إنَّ الحديثَ عن مئةِ استراتيجيَّةٍ في العمليَّاتِ النَّفسيةِ ليس مجردَ تصنيفٍ تقنيٍّ لتكتيكاتٍ متفرِّقةٍ، بل هو محاولةٌ لبناءِ نموذجٍ مفهوميٍّ شاملٍ يساعدنا على فهمِ كفيَّةِ عملِ هذه الحربِ، وكيف تتقلُّ من مرحلةِ الاستهدافِ إلى مرحلةِ الإخضاعِ، ثمَّ إلى مرحلةِ الاختراقِ الكاملِ للوعيِ الجمعيِّ.

في هذا الكتابِ؛ اخترنا أنْ نحملَ المشروعَ على نحوِ إبداعيٍّ وتحليليّ في آنٍ، ونبتعدُّ فيه عن التَّقليدِ العسكريِّ المباشرِ، وعن التَّوصيفاتِ الجافَّةِ، لنعيدَ تسميةَ الاستراتيجيَّاتِ بأسماءٍ رمزيَّةٍ موحيةٍ،

المقدمة ٧

تُحاكي الطبيعة الشبكيَّة والمراوغة لهذه العمليَّات، وتعكسُ في الوقت ذاته طابعها النَّفسيَّ العميق. اخترنا العنوانَ ”السَّهام الخفيَّة“؛ لأنَّ العمليَّات النَّفسيَّة تقتلُ بسرعة السَّهم، لكنَّها أيضًا تخرقُ بصمتٍ كليِّ، وتغوصُ في الدَّاخلِ دون أن تُرى.

هذا الكتابُ لا يُعلنُ حربًا، وإنما يكشفُها. ويحثُّ قارئه على أن يعيَّ كيف يتشكَّل وعيُّه، وكيف تُبنى قناعاته، وكيف يُعادُ تشكيلُه على يد أدوات لا يبدو أنَّها تُقاتلُ، لكنَّها تُعيد صياغة الإدراكِ نفسه.

لقد جرى تقسيمُ الاستراتيجيَّاتِ إلى عشرةِ محاورٍ وظيفيَّة، نُعبرُ كلَّ مجموعةٍ منها عن نمطٍ محدَّدٍ من أنماطِ التأثيرِ النَّفسيِّ، سواء عبر الخداع، أم الإرباك، أم الانسحاب، أم الإغواء، أم السَّيطرة الرَّمزيَّة من الدَّاخلِ. وجرى تقديمُ كلِّ استراتيجيةٍ بعنوانٍ جديدٍ يحملُ دلالةً رمزيَّةً خاصَّةً، مع شرحٍ تحليليٍّ دقيقٍ لها، يتجاوزُ السَّطحَ التكتيكيَّ إلى البنية العميقة التي تقومُ عليها. ستجدُ في هذا الكتابِ استراتيجيَّاتٍ تُحاكي اللُّعبة النَّفسيَّة في أدقِّ تفاصيلِها؛ مثل ”مرايا المعنى المنحرف“، و”بئر العسل“، و”انسحاب في الضوء“، و”عرش الصدى“، و”أن يتحدَّث خصمُك بلسانك“، و”ورق الذهب على صدأ المعنى“، و”دع العدو يختارك عدوًّا وهو لا يدري أنك اخترته أوَّلًا“. عباراتٌ تعكسُ فلسفة كلِّ استراتيجية، وتفتحُ أمامَ القارئِ بابًا للغوصِ في منطقتها الدَّخليِّ.

نحن هنا نكشفُ الخداعَ ونُحلِّلُ فنَّ الإخضاعِ؛ لأننا نؤمنُ أنَّ الوعيَ وحده لا يكفي ما لم يُصاحبه فهمٌ عميقٌ للأدواتِ التي تعملُ ضدهُ. وأنَّ معرفةَ الحربِ النَّفسِيَّةِ ضرورةٌ وجوديَّةٌ في زمنٍ تُدارُ فيه الأممُ من غرفِ التَّحكُّمِ الإدراكيِّ أكثرَ ممَّا تُدارُ من قصورِ الحكمِ.

ومن هنا؛ فإنَّ هذا الكتابَ يُكتبُ للقارئِ المتأملِ، وللعقلِ الباحثِ، ولمن يريدُ أن يقرأ العالمَ على ضوءِ ما لا يُقالُ فيه، لا ما يُعلنُ على لافتاته. نحن نؤسِّسُ وعياً استراتيجياً طويلاً المدى، يُعيد بناءَ علاقةِ الإنسانِ بذاته أولاً، وبمحيطه ثانياً، وبما يُخاطبه من معانٍ وصورٍ وقيمٍ. هذا الكتابُ ليس عن مؤامرةٍ، وليس عن صناعةِ الأعداءِ، وليس دعوةً للارتيابِ، لكنَّه لا يطمئنُ إلى براءةِ العالمِ، ولا يغفلُ عن طبيعةِ الصِّراعِ. وهو نداءٌ للتحصُّنِ بالفهمِ. هذه مئةُ استراتيجيةٍ سنخوضُها معاً، ونسعى من خلالها إلى تفكيكِ ما يُرادُ بنا من خلالها.

وها نحن نبدأُ من أوَّلِ سهمٍ خفيٍّ..

ومن أوَّلِ خدعةٍ في المرايا..

ومن أوَّلِ معركةٍ لم يسمعَ قرعَ طبولها أحدٌ، لكنَّها غيرتْ مسارَ جيلٍ

بأكمله.

فلتكنْ أعيننا مفتوحةً..

ولنقرأ.. كما لو كانت أرواحنا على المحكِّ.

المحور الأول:

استراتيجيات الخداع والإرباك الإدراكي

الاستراتيجية الأولى: مرايا المعنى المنحرفِ

كيف تنعكس الحقيقة لتبدو وهماً؟

من بين جميع تقنيَّات الحرب النفسية، تظلُّ استراتيجية ”مرايا المعنى المنحرف“ من أكثرها خفاءً وتأثيراً؛ لأنَّها لا تُطلق النار على الجسد، ولا حتى على الوعي المباشر، إنَّما تُحرِّف البنية المعنويَّة التي يتلقَّى بها الإنسان العالم. نحن نتحدَّث هنا عن إعادة تشكيل المعاني؛ بحيث يحتفظ كلُّ شيءٍ بشكله الظاهري، فيما تنعكس دلالته في وعي المتلقِّي كما تنعكس الصورة في مرآة مشروخة. وبالتالي نحن لسنا بصدد الكذب أو التضليل الصريح.

هذه الاستراتيجية تستند إلى مبدأ أساسٍ في علم النفس الإدراكي، وهو أنَّ الإنسان يرى الأشياء كما تتعلَّم أن يراها، لا كما هي في ذاتها. فنظام المعنى الذي يُفسَّر من خلاله العالمُ لا يُعدُّ معطًى طبيعياً، وإنَّما يُبنى ثقافياً ونفسياً، ويتشكَّل عبر اللغة، والتربية، والخبرة الجمعيَّة. ومن

هنا، فإنَّ أقوى أشكال التلاعب بالحقيقة هي تلك التي تنجح في إعادة تأطيرها داخل معان جديدة؛ حيث يُعاد تعريف الباطل بوصفه فضيلةً، والعبودية حُرِّيَّةً، والتفاهة عمقاً، والاضطهاد أمناً.

تتجلَّى هذه المرايا بشكل بالغ الوضوح حين يُعاد تعريف المقاومة بوصفها إرهاباً، وتُقدَّم الحركات التي تدافع عن أوطانها ضدَّ الاحتلال على أنَّها تهديد للاستقرار الدَّولي. في هذه اللحظة، يُقمع المقاتل ويُجرَّد في الوقت نفسه من المعنى الذي يمنحه الشرعية، ويُعاد تأطيره ضمن قوالب جاهزةٍ معدَّة مسبقاً داخل مختبرات اللغة السياسية والإعلامية الغربية. يُقال لحزب ما إنَّه منظمَّة إرهابية، وتُدرج فصائل المقاومة الفلسطينية في لوائح العقوبات، وتُصوَّر الصواريخ التي تدافع عن غزَّة على أنَّها عدوان، فيما تُمنح آلة الحرب الإسرائيلية لقباً خُلقيَّةً، كتلك التي تصف جيشها بـ”الأكثر إنسانيَّة في العالم“. يكمن خطرُ هذه الاستراتيجية في قدرتها على قلب المعنى وصناعة بديل له، وتحويله إلى الإطار الوحيد القابل للتصديق. تماماً كما تُقدَّم حرب اليمن بوصفها دفاعاً عن ”الشرعية“، في حين تُحاصر المدن ويُجَوِّع المدنيون، ويمنع الوقود والدواء عن الأطفال تحت مبرر منع التهريب أو حماية الحدود. كلُّ ذلك يُقال بلغة ناعمة مدروسة، تهمس في أذنك بهدوء دون أن تصرخ في وجهك، بما يبدو منطقيّاً ومقبولاً.

وفي علم الاجتماع الرمزي، تُصبح المسألة أكثر تعقيداً؛ لأنَّ الإدراك العام يتشكَّل من خلال البنية الثقافية التي تعيد إنتاج هذه المعاني في حياة الناس اليومية، وليس فقط من خلال التصريحات السياسية. فعندما يُقدِّم نمطُ الحياة الغربي بوصفه النموذج الأعلى للحريَّة والكرامة، تُختطف مفاهيمُ المقاومة وتُشوَّه من الداخل، دون الحاجة إلى القوَّة. يصبح التمسُّك بالهويَّة ضرباً من التعصُّب، والممانعة تُصوَّر نوعاً من الانغلاق، وكلُّ من يرفض هذه المرآة المشروخة يُوصمُ بأنَّه خارجُ عن العصر، ومتخلف، وغير ديمقراطي. وهكذا تُصبح الحربُ النفسيَّة أكثر دهاءً، حين تُقنعك بأنَّك حرٌّ وأنت تكررُ ما فُرض عليك، وبأنَّك مستقلٌّ وأنت تُعيد إنتاجَ لغة خصمك. اللغة هنا تتحوَّل من وسيلة للتعبير إلى أداة للهيمنة. فالتسمية الأميركيَّة للحرب على العراق بـ”حرب تحرير“ -بغض النظر عن إجرام (صدّام حسين) وطغيانه- لم تكن مجردَ خطأ لغوي بل مرآة مقصودة عكست الواقع المأساوي بطلاءٍ من الخداع اللغوي، تماماً كما صُوِّرت الجماعات التكفيرية التي تموَّلت من الخارج على أنَّها ”ثورات شعبية“، ثم جرى وصمُّ من واجهها بأنَّه قمعي، واستبدادي، وعدواني.

في علم النفس، نعرف أنَّ التكرار وحده كافٍ لصناعة الحقيقة، خاصَّة إذا ارتبط بعاطفة جماعية أو بمصدر يبدو موثوقاً. وهنا تُستخدم وسائل الإعلام، ومنصَّات التواصل، وخطابات النُخب لتكرار الانعكاس

المشوّه حتى يترسّخ في اللاّوعي الجمعي. مع الوقت، لا يعود الناس بحاجة إلى من يُفنعهم بأنّ القصف على غزّة هو دفاع، أو أنّ فرض العقوبات على سورية وإيران عمل قانوني. يكفي أن تكون المرآة قد صُمّمت بطريقة تجعل هذا الانعكاس هو الصورة الوحيدة الممكنة.

ولعلّ الأدهى من ذلك، أنّ بعض ضحايا هذه المرايا يبدوون في الدفاع عنها، ويُعيدون تكرار سرديّتها وهم يظنّون أنّهم يُعبّرون عن أنفسهم. هذه هي قمّة النجاح في الحرب النفسيّة: أنّ يُدافع المستهدف عن أدوات تدميره، أنّ يُنكر وجود الحرب من حوله، أنّ يُحبّ صورته في المرآة، حتى وإن كانت مقلوّبة. إنّ مواجهة هذا النمط من الاستراتيجيّات لا يتحقّق بالصراخ المضادّ، وإنّما عبر تفكيك أدوات المعنى نفسها. علينا أن نُعيد النظر في اللغة التي نستعملها؛ في المفاهيم التي نستهلكها، وفي الصور التي تُعرض علينا باعتبارها بديهية. تدور الحرب اليوم في عمق المفاهيم، ولا يُمكن كسر المرايا المشروخة إلّا حين نُدرك أنّ ما نراه يعبر عمّا يُراد لنا أن نراه، لا عمّا هو عليه في الحقيقة.

هذه هي أولى السهام الخفيّة: أنّ تُصاب في إدراكك دون أن تُتلف، وأنّ تُخلع بوصولك دون أن تُدري، وأنّ تُعيد تعريف الحقائق ضدّ نفسك... وأنّ تظنّ أنّك من يملك الحقيقة.

الاستراتيجية الثانية: عبور الحافة بصوت مألوف

حين يتسلّل الجديد متنكراً في زيّ القديم

هل المطلوب دائماً أن نكسر وعيَ الخصم بالصدام؟ الجواب بالنفي؛ إذ كثيراً ما يكون الأجدى أن نتسلّل إلى الوعي عبر أبوابه المفتوحة؛ أن نرتدي أثوابه، ونتكلّم بلسانه، ونحمل معه مفاهيمه، ثم ندخل من خلالها محمولاتٍ جديدة، قد تكون مناقضةً تماماً لما يعتقد، دون أن يدرك أنّه يتلعب أفعى في جلد حَمَلٍ.

هذه هي خلاصة استراتيجية «عبور الحافة بصوت مألوف»: أن تُلبس الجديد ثوب المألوف، فالعقل البشري بطبيعته مقاوم للغرابة، لكنّه ميّال للاستجابة لما يعرفه سلفاً. كلّما اقتربت الفكرة من الصور الراسخة في الوعي، كان مرورها أسهل، حتى وإن كانت في جوهرها تهدم تلك الصور نفسها. هذا ما يسمّيه علماء النفس الاجتماعي التكييف التدريجي؛ حيث تُعرض التغيّرات الكبرى على دفعات ناعمة، مرتدّة على مفردات مألوفة، فتكتمل الدورة دون صدمة.

في السّياق السياسي تُمارَس هذه الاستراتيجية بكثافة ضدّ حركات المقاومة، لا سيّما في العالمين العربي والإسلامي، عبر إعادة تشكيل المفاهيم داخل قوالب خطابيّة مألوفة خالية من مضمونها الأصلي.

يُقال: إنَّ المقاومة هي «خيار استراتيجي»، ثمَّ يترك السؤال عمَّن يُقاوم، وأيُّ أدوات تُستخدم، وأيُّ إطار يُطبَّق. يُستعمل مفهوم «الاستقلال» بوصفه قيمةً عُليا، ثمَّ يُعاد تأطيره لينطوي على الانفتاح الكامل على المُهيمن، والتطبيع مع المحتلِّ، والتفاهم مع الغازي تحت ذريعة «السيادة الواقعيَّة».

في لبنان يتكرَّر الحديث عن «تحرير القرار الوطني» أو «تحرير قرار الحرب والسلام» ضمن حملة نفسيةً تطعن في شرعيَّة المقاومة بلُغة الكرامة والسيادة. الهدف هنا انتزاع قرار المواجهة من يد الشعب وتفريغه من مضامينه الفعلية، حتَّى يخضع لتوازنات دَولية لا إلى الحقوق الطبيعيَّة. يُقال للفلسطينيين: إنَّ «السلام خيار حضاري»، ثمَّ يُغفل أنَّ هذا السلام يخلو من عدالة ويرفض إعادة الأرض ويتجاهل اغتيال الأبرياء. ومع ذلك يُسوَّق في الإعلام العربي بأسلوب متسامح وناعم يجعل قبول الاحتلال خياراً أكثر تطوُّراً من مقاومته.

وفي إيران يُستخدم كلُّ من «التطور»، و«الانفتاح»، و«الاعتدال» باعتبارها واجهات لاختراق الثوابت الفكرية والسياسية للنظام. في هذا السياق، لا يشير الاعتدال إلى الموازنة الحكيمة، وإنَّمَا يتجلَّى في التخلي عن المبادئ الصلبة. كذلك لا يرتبط الانفتاح بالتفاعل النقدي، وإنَّمَا ينطوي على فتح الأبواب دون شروط للهيمنة الناعمة. أمَّا الحداثة

المحور الأوّل - الاستراتيجية الثانية ١٧

فليست بناءً للذات، وإنّما تعكس التشبّه بالآخر.

فعاليّة هذه الاستراتيجية تتجسّد في قدرتها على طمأنة العدو بدل إرهاقه ذهنيّاً. فهي تمنحه شعوراً بوجود سيطرة وألفة في المفردات، مع بقاء «الأسلوب»، أو «اللغة»، أو «السياق» هو المتغيّر الحقيقي. كما أنّ الاختراق لا يكتفي بالمرأعة اللغوية، إنّما يعتمد على تعديل بطيء لمنظومة الدلالات، فتُعاد صياغة الإطار المرجعي للوعي دون تبديله الصريح.

في علم النفس المعرفي نلتقي بمفهوم تأثير التّأطير المعجمي (Lexical Framing Effect) الذي يبيّن قابليّة المتلقّي لتقبّل معانٍ جديدة إذا صيغت بلغة مألوفة. عند استخدام تعبير «تحسين صورة المقاومة» يُستقبل الخطاب كما لو أنّه إصلاحٌ لصورتها بدل أن يكون انتقاداً لجوهرها. يكمن الواقع في أنّ الهدف الفعلي هو تغيير سلوك المقاومة، أو تجريدتها من سلاحها، أو تحجيمها إلى خطاب سياسي بلا أثر ميداني.

يعتمد الإعلام الغربي، ومن يحاذيه، على هذا الأسلوب باستمرار. في سورية رُوّج للجماعات الإرهابيّة بدايةً على أنّها مجموعات ثوريّة تناضل من أجل الحرّيّة مستندة إلى مفردات حقوقيّة إنسانيّة. ومع انكشاف الحقائق الميدانية حافظ الخطاب المألوف على غطاءه الرمزي

للمجازر، محيراً المشهد الإدراكي لدى الرأي العام. وفي اليمن تبدو الأساليب أكثر دهاءً؛ إذ تُستخدم تعبيرات مثل «استعادة الدولة» أو «عودة الشرعية»؛ لتبرير العدوان اليومي على المدن، فيما يُقدّم الخطابُ المقاومةَ اليمينية بصبغة طائفية؛ لتنقيص بُعدها الوطني والاجتماعي. تدير قنوات الأخبار، وتقارير المنظمات، وخطابات دعاة الديمقراطية هذا «الصوت المألوف»، فيما تغرق الحقيقة في صمت ثقيل.

في العراق اخترقت هذه الأساليب الذاكرة الجماعية نفسها. بعد الاحتلال لم يقف الهدف عند تبرير الغزو؛ إذ شمل أيضاً إعادة تفسيره داخل العقل العراقي. طرحوا مفردات «الحرية» و«إسقاط الدكتاتورية» و«إعادة الإعمار» بصوت مألوف، فتجسّدت القطيعة تحت ستار «عبور ناعم».

بيّنت هذه الاستراتيجية أنّ الحرب النفسية لا تتطلّب دوماً فرضاً مباشراً، ففي حالات عديدة يكفي الاقتراب والتحدّث بلغة الجمهور ومعرفة أصواته المفضّلة لتغيير مساره من الداخل دون رصاصة واحدة. الإدراك الواعي لطبيعة هذه المرايا الصوتية التي تُظهرنا نحن لا العدو، وتطمئننا بدل إخافتنا، يشكّل الخطوة الأولى لفهم ما نواجهه فعلاً. فالصوت المألوف لا يُشْتَبه فيه، حتى عندما يحمل معاني دخيلة تهدّد القفز فوق الحافة دون أن نشعر بسقوطنا.

الاستراتيجية الثالثة: الضجيج الساحر

حين نخنق الحقيقة بزخم التفاصيل تتجاوز العمليات النفسية مجرد الكذب أو التحريف الصريح، فتتكشف في التضخيم وإغراق الإحساس بحشد لا ينقطع من المحتوى، فيدفن الوعي تحت ركام من الأصوات والصور والبيانات والآراء المتنافرة، فتعثر وظائف العقل، وتعثر قدرات الإدراك.

تكمن استراتيجية «الضجيج الساحر» في إغراق الساحة الإعلامية والثقافية والسياسية بفيض من الرسائل المتلاحقة، بغرض الحيلولة دون تمييز الصادق من الوهمي. لا يتطلب الأمر إخفاء الوقائع، وإنما تشويهها بكثرة شبيهاتها، حتى يستسلم المتلقي لتخمة معلوماتية تشبه التسمم الإدراكي، فتقلص قدرته على الفصل بين ما هو أساس وما هو ثانوي، وتتآكل حرية اتخاذ القرار لديه.

في مواجهة العدوان الإسرائيلي على غزة تتوالى الروايات المتضاربة: المقاومة تختبئ بين المدنيين، أو الضربات دقيقة، أو صدر تحذير مسبق، أو الخطأ غير مقصود، أو المعلومات مغلوبة، أو الإرهاب يختبئ في المستشفيات، أو الصور مفبركة... تتراكم الادعاءات، ويسود جنون الردود والانفعالات، فيغيب الاستفهام عن مدى صدق أي رواية.

تُوِّد هذه الحالة ما يسمِّيهِ علماء النفس «الإرهاق الدفاعي المعرفي»؛ حيث يفضّل الفرد الانسحاب من محاولة الفهم، وينكفي داخل استهلاك عاطفي بحت، فتربح الأطراف المتحكّمة المعركة دون أن تثبت شيئاً عملياً؛ إذ يسود الانطباع بأنّ الإثبات لم يعد ذا جدوى.

عبر سورية تكرّرت الحكاية؛ حيث لم يُعرض سردٌ موحّد بل أُطلقت عشرات الروايات المتضاربة في كلّ مرحلة: النظام يُعدّب شعبه، والمعارضة معتدلة، داعش منفصلة، والنصرة مخترقة، والميليشيات متناحرة، والتدخّل الإيراني مذهبي، والوجود الأمريكي مؤقت، والانسحاب الروسي وشيك... وسرعان ما تحوّل الدم السوري إلى مجرد رقمٍ في حفلةٍ من التحليلات المتنافرة.

وفي العراق بعد الغزو الأمريكي، استُخدمت التكنولوجيا نفسها: لجان تفتيش دَولِيَّة، ووثائق سرِّيَّة، وأسلحة دمار شامل، واعترافات منشقين، وتقارير استخبارية... لينتهي الأمر باعترافٍ جماعي بأنّ ما قُدّم كان خطأ، فيما لم تعد ذاكرة الجمهور قادرة على تنقية هذا الفيض من الروايات.

يمارس الإعلام أسلوبَ الضجيج أيضاً في اليمن، بين كلّ مجزرة وأخرى، تُطلق بيانات متلاحقة: قصف التحالف عن طريق الخطأ، أو

المحور الأوّل - الاستراتيجية الثالثة ٢١

يستهدف أنصار الله المدنيين، أو تكسر الشرعية الحصار، أو تموّل إيران التمرد، أو يراقب المجتمع الدولي، أو إنّ الحلّ السياسي متاح... كلُّ عبارة تضيف طبقةً جديدةً من الضباب الرمزي.

تفهم إسرائيل هذا السحرَ تمامًا. عند ارتكاب مجزرة، لا تعلن عن براءتها، وإنّما تطلق فوراً بيانات متضاربة: التحقيق جارٍ، والصور تحتاج تدقيقاً، والمقاومة مسؤولة، والضحيّة متورّطة... قبل أن يُحال الموضوع إلى لجنة أمميّة، فتحوّل المجزرة إلى ملفٍّ إداري أو خبرٍ ثانوي في نشرة مزدحمة.

في حقل علم الاجتماع الإعلامي، يؤكّد الباحثون أنّ وفرة الرسائل تُنتج اللأ معنى، وأنّ المجتمعات المغمورة بالمحتوى بدلاً من أن تصبح أكثر وعياً، تكون أكثر تشبّثاً. ومن هنا، تنطلق خطورة استراتيجية «الضجيج الساحر»؛ أن تُغنيك عن الحقيقة بفيضٍ من شبيهاتها، فتقف أمام مرآة تغطّيها الطبقات حتى تكادُ لا تعين إلا هالاتها.

وإذا بدا الضجيج أمراً صادراً عن الخصم وحده، فالأدهى أنّه يُعاد إنتاجه محلياً عبر أبواب داخلية، وإعلام تابع، ونُخب مرتبكة، ومنتقنين مشروطين، يردّد جميعهم الصخب وهم يظنّون أنّهم يزيدون عمق المشهد، فيما هم في الواقع يوسّعون دائرة الخداع.

تكمن أولى خطوات المواجهة في الصمت الرّصين لا الانصراف،

وفي التبصُّر الدقيق لا الانجرار خلف الصوت. علينا أن نستمع لما وراء الصَّخْب، وأن نفرِّق بين ما يستحقُّ الإصغاء وما لا يُسْمَن من جوع، فالمعركة لا تُحَسَم بضجيجٍ مستمرٍّ، بل بالخروج من داخله.

الاستراتيجية الرابعة: وَهْمُ التَّلْقَائِيَّةِ

حين تُزرعُ الفكرةُ فيك... وتظنُّ أنك أنتَ من اخترعتها. في ساحة العمليات النفسية، لا شيء أشدَّ فتكاً من فكرة يعتنقها الإنسان بكامل إرادته، دون أن يعرف أنَّ إرادته نفسها قد جرت هندستها. لم تُفرض السيطرة هنا بالتكليف القسري أو التلقين المباشر. عوض ذلك، جرى زرع البذرة داخل وعي الخصم، ورعايتها ببطء، حتى تنمو كما لو كانت نبتةً من داخله، فتستحيل مقاومتها؛ لأنَّها ببساطة تبدو «فكرته الخاصَّة». هكذا يعمل وَهْمُ التَّلْقَائِيَّةِ: يجعل الفكرة المزروعة تبدو كأنَّها من إنتاج الذات دون اختراق خارجي.

يعتمد هذا النمط على ما يسمِّيهِ علم النفس الاجتماعي بـ«الزرع المعرفي اللاواعي» (Subliminal Priming)؛ حيث يُعاد تكوين السياق النفسي والإدراكي الذي تخرج منه الأفكار، بحيث يُوجَّه العقل دون إدراك منه نحو نتائج محدَّدة. حين تُطرح فكرة داخل بيئة مشبعة بمعطيات تُوحي بها، يبدأ الناس في تبنيها دون شعور بأنَّها أُمليت عليهم. والنتيجة أنَّ الخضوع يصبح طوعياً، والانصياع يبدو خياراً شخصياً.

في التجربة الغربية مع حركات المقاومة، يُوظَّف هذا النمط ببراعة.

فبدلاً من مهاجمة المقاومة بشكل فجّ، يجري إعداد بيئة معرفيّة تطرح أسئلة «مشروعة» على ظاهرها، لكنّها موجّهة في باطنها: هل جدوى المقاومة واقعيّة؟ أليس السلاح مكلفاً؟ ألا يؤذي المدنيين؟ أليس الزمن الآن زمن تفاهم؟ ثمّ تُكرّر هذه الأسئلة في الإعلام، وفي خطاب بعض «النخب الثقافيّة»، وفي الحوارات العامّة، حتى تتسرّب إلى وعي الناس؛ باعتبارها أفكاراً تنبع من داخلهم وليس مواقف خارجيّة مفروضة.

في لبنان مثلاً، كثيراً ما يُطرح خطاب يُشجّع الجمهور على التفكير بـ«الأولويّة الاقتصاديّة»، كأنّ المقاومة هي العائق أمام حلّ الأزمات، دون أن يُشار إلى منظومة الفساد، أو تدخّلات الخارج، أو تبعات الحصار الخانق. يُهيأ المناخ النفسي والاجتماعي ليُجعل الناس يشعرون أنّهم توصّلوا إلى هذه النتيجة بأنفسهم. لم يُجبرهم أحد، لكنّهم في الواقع كانوا مستهدفين بمنهج دقيق من البرمجة النفسية الجماعية.

وفي فلسطين، تتسلّل الفكرة على نحو أكثر خطورة، حين يدفع الشارع إلى الإحساس أنّ المقاومة «تُكرّر نفسها»، وأنّها لا تُنتج «أفقاً سياسياً»، وأنّ «الخيار الدبلوماسي» هو الطريق الوحيد «العقلاني». هذا لا يظهر في بيان عدائي مباشر، ويتّخذ شكل نبذة إعلامية عامّة، في تنويعات خطابية متكرّرة، وفي نشرات وتقارير وتحليلات تدّعي

الموضوعية، لكنّها تمارس تكييفًا إدراكيًا حادًا. وهكذا، يتحوّل الجمهور تدريجيًا إلى شريك في قمع فكرته الكبرى؛ لأنّه ظنَّ أنّه توصّل إلى قناعاته بذاته.

أما في سورية والعراق واليمن، فالوهم يُزرع عبر قنوات ثقافية، وفنية، وتعليمية، تصوغ وجدانًا يتعاطى مع المقاومة باعتبارها عبئًا، أو مع المواجهة باعتبارها فعالاً مضادًا للحدّثة، أو مع الخطاب الاستقلالي باعتباره تحجّرًا. يجري زرع الفكرة بهدوء: على لسان مغنٍّ، أو في مشهد درامي، أو في تصريح باهت منسوب لخبير. هذه ليست "بروباغندا" تقليدية، بل موجات ناعمة من البرمجة النفسية التي تُصيب الذهن دون أن تُعلن نفسها.

في علم النفس، يُعرف هذا النوع من التسلّل الفكري بظاهرة الاستبطان الزائف (False Internalization)؛ حيث يتبنّى الفرد آراء خارجية تمامًا، لكنّه يعيد تفسيرها باعتبارها نتاجًا شخصيًا. وبما أنّ الذات لا تُقاوم نفسها، فإنّ الفكرة تمرُّ بسلاسة، وتترسّخ بلا منازع. في تلك الحالة، يكفي سياق مشبّع بالرموز دون حاجة إلى سلاح أو قوّة قهرية... وهو يظنُّ أنّه قرّر وحده.

وهذا ما يجعل هذه الاستراتيجية غاية في الخطورة؛ لأنّها تصنع جيلاً يتنازل عن رموزه ومقاومته وتاريخه، وهو يظنُّ أنّه يفعل ذلك

باسم العقل، والحُرِّيَّة، والمصلحة. تصبح الكرامة نوعاً من الترف، والمواجهة ضرباً من الرومانسية، والشهداء علامات على الفشل لا على النهوض. وحين تصل الفكرة إلى هذا المستوى من "الافتناع الذاتي"، لا يعود الردُّ سهلاً؛ لأنَّ الجبهة التي يخوضها الفرد لم تعد خارجه، وإنما أصبحت في داخله.

تبدأ مقاومة هذا الوهم من إعادة وعي الفرد ببنية أفكاره نفسها. أن يسأل: لماذا أو من بما أو من؟ ومن أين جاءت هذه القناعة؟ وما السياق الذي نشأت فيه؟ وما المفردات التي شكَّلتها؟ وأن يستعيد علاقة نقدية بالمسلَّمات التي يظنُّ أنَّها نابعة من ذاته، وهي في الواقع انعكاسٌ لبرمجة صامتة وطويلة.

في العمليات النفسية، تمتدُّ المعركة إلى أبعد من مضمون ما تفكَّر فيه، لتشمل طريقة التفكير والأسباب الكامنة. وهذه الاستراتيجية تهاجم تلك الطبقة العميقة من التفكير؛ إذ تجعل القيد يبدو اختياراً، وتجعل الخضوع يبدو حكمة، وتجعل الانسحاب يبدو شجاعة. إنَّها لا تسرق وعيك... بل تجعلك تتبرَّع به.

الاستراتيجية الخامسة: التناقض المقصود

اصنع الفوضى... واترك العقل يبحث عن الخلاص.

يعتمد الدماغ البشري، في طبيعته الفسيولوجية والمعرفية، على الميل إلى الانسجام الداخلي، وعلى ربط الأفكار والانطباعات ضمن شبكات متماسكة تمنحه شعوراً بالاتساق والمعنى. حين يقع الإنسان في مواجهة تناقضات حادة لا يستطيع عقليتها، يتولد لديه ما يسميه علم النفس بالتناظر المعرفي (Cognitive Dissonance)، وهي حالة من القلق والإرباك تنشأ عندما تصطدم القناعات الشخصية بمعطيات متضادة لا يمكن التوفيق بينها بسهولة.

في الحرب النفسية، يجري استثمار هذه القاعدة المعرفية بوصفها أداة هجومية. فالهدف إدخال العدو في متاهة من الروايات المتناقضة عوض إقناعه برواية واحدة، وتصدر أحياناً هذه الروايات عن المصدر نفسه دون توضيح أو حسم أو اعتذار. وبدل السعي لتحقيق الإقناع، يُستهدف إحداث الإنهاك الإدراكي حتى يصل المتلقي إلى نقطة يتخلى فيها عن محاولة الفهم، أو يستسلم للمخرج الجاهز الذي يخفف ارتباكاً.

تنطلق هذه الاستراتيجية غالباً بإطلاق رسائل متضادة في التوقيت

ذاته؛ تقرير إعلامي يقول إنَّ العدوان لم يقع، وآخر يبرِّره، وثالث ينفي الضحايا، ورابع يتحدث عن أخطاء فردية، وخامس يتَّهم الضحية باستخدام الدروع البشرية. في آن واحد تُنشر خمسُ روايات متناقضة، كلُّها موثَّقة ومنسوبة إلى مصادر رسمية أو شبه رسمية. حين يحاول العقل التوفيق بينها، يبدأ في الانهيار التدريجي ويبحث عن خلاصه في أوَّل سرديَّة هادئة تُقدِّم له.

عندما قصفت الطائرات الإسرائيليَّة مبنىً سكنيًّا في غزَّة، انطلقت في اليوم ذاته روايات متعدِّدة؛ احتوى المبنى منصَّات صواريخ، وتحتلُّه حماس، ولم تعلم إسرائيل بوجود مدنيين، وكانت العمليَّة دقيقة، والضربة ضروريَّة لأمن تل أبيب... كلُّ رواية تنقض الأخرى، ومع ذلك تُعرض جميعًا في وقت واحد، ما يخلق شبكة ارتباك في وعي المتلقِّي المحليِّ والدَّولي، ويدفعه للتعاطي مع الحدث ببرود أو بلاذة.

في لبنان، وفي أثناء الحروب النفسيَّة التي رافقت عدوان تموز، تكرَّرت هذه التقنيَّة؛ قنوات غربية تنقل صورَ المجازر ثم تعود لتقول: إنَّ المصادر غير مؤكَّدة، أو إنَّ المقاومة تتحمَّل جزءًا من المسؤوليَّة، أو إنَّ الجيش الإسرائيلي أنذر السكَّان. هكذا يدخل العقل في حلقة لا نهاية لها من الأسئلة المتضاربة، فيتوقَّف عن المقاومة النفسيَّة وينكفي على ذاته طلبًا للراحة الإدراكية.

وفي الساحة السورية، بلغ هذا النمط ذروته. فمع كل مجزرة أو اجتياح أو تفجير، تُنشر عشرات التفسيرات من مصادر دولية؛ النظام فعلها، أو المعارضة، أو طرف ثالث، أو لعبة استخباراتية، أو ضربة تحذيرية... وبعد ذلك لا أحد يعرف شيئاً، والجميع يشعر بالإرهاق وفقدان البوصلة والاستعداد لتلقي أيّ تسوية تعيد بعض المعنى.

هذا الأسلوب لا يعكس خطأ إعلامياً أو تخبطاً سياسياً؛ إنّه تصميم استراتيجي مقصود لخلق فراغ إدراكي يُملاً لاحقاً بالسرديّة المعدّة سلفاً. فعندما تُربك عقل العدو، لا حاجة لقهره بعد ذلك؛ لأنّه سيبحث عن طوق نجاة بسيط وواضح، يريحه من فوضى التناقضات مهما كانت صحّته.

في علم النفس الجماعي، يُظهر هذا النوع من الفوضى المعرفيّة إمكانيّة تحويل الحقيقة إلى احتمال واحد بين احتمالات عدّة عبر إغراقها بتناقضات منهكة بدل إنكارها. يصبح الدفاع عنها خياراً مرهقاً، والتشكيك فيها سلوكاً أقلّ كلفة. في هذه البيئة، تستمرّ الحقيقة بقدر ما تكون أقلّ إزعاجاً.

والأخطر من ذلك، أنّ هذا الأسلوب ينخرط في الداخل الثقافي للشعوب المستهدفة، فبعد أن يعتاد الناس على الخطاب المتضادّ، يبدوون هم أنفسهم في تكرار التناقضات دون وعي. تؤمن بالمقاومة،

الاستراتيجية السادسة: الجنون المحسوب

حين تخرجُ عن المألوف لتخلخلَ المألوفَ ذاته

في قلب كلِّ منظومة إدراكية، هناك بنية افتراضية من التوقُّعات: ماذا سيفعل الطرف الآخر؟ كيف سيردُّ؟ ما الذي يمكن انتظاره منه؟ هذه التوقُّعات تتجاوز دائماً مجرد التخمينات وتبنى عليها سياسات وتحليلات واستراتيجيات مواجهة. ولذلك، حين ينحرف الفعل عن التوقُّع، ولو بدرجة محسوبة، تُصاب البنية الإدراكية بشلل جزئي يُربك خصمك، ويعيد توزيع الأوراق النفسية والمعنوية.

هنا تلعب استراتيجية «الجنون المحسوب» دورها؛ لا يحدث الخروج الكامل عن العقل، وإنَّما المدروس عن المألوف. خطوة تبدو بلا منطق، لكنَّها تخدم منطقياً أعلى. فعلٌ يبدو متطرفاً، لكنَّه يحدث أثراً مضاعفاً في وعي العدو لأنَّه غير متوقَّع. في هذه الحالة تنحجب الفائدة في الفعل ذاته تماماً، وتتجلَّى في الخلل الإدراكي الذي يزرعه في ذهن الخصم.

يرتبط هذا النمط بما يُعرف في علم النفس بـ«خرق النمط الإدراكي» (Pattern Interruption)، وهي تقنية تُستخدم لتفكيك العادات الذهنية التي تسير على تلقائية مطلقة. حين يجري كسر النمط، يُجبر

الدماغ على التوقُّف وإعادة التقويم؛ لأنَّه فقد القدرة على التنبُّؤ. في الحروب النفسية، يجري توظيف هذا الخرق لإحداث خلخلة في أنظمة التفكير السائدة لدى العدو.

وقد مارست القوى المعادية للمقاومة هذا النمط بمهارة، خاصَّة حين تسعى إلى فرض صورة غير قابلة للتوقُّع عن ذاتها. فالولايات المتحدة -مثلاً- حين انسحبت من أفغانستان فجأة دون ترتيب مُعلن، لم يكن المشهد مجرد فشل، وإنما خلق حالة من الفوضى الإدراكية: هل هذا انسحاب نهائي؟ وهل هناك خطة بديلة؟ ومن المستفيد؟ هذه الأسئلة لم تكن عرضاً جانبياً بل جزءاً من التأثير النفسي المُخطَّط له؛ حيث يُترك الخصم في حالة من الإرباك المستمرِّ.

وفي مرَّات أخرى، استخدمت إسرائيل هذه الاستراتيجية بأسلوب أكثر دقَّة. تُنفَّذ عمليات اغتيال في وضح النهار، دون تبينٍّ مباشر، أو تُسرَّب معلومات استخباريَّة ثمَّ تنفيها، أو تُعلن استعدادها للحرب ثمَّ تنسحب فجأة إلى التهديَّة. هذه الأفعال تُقاس بنتائجها الميدانية، مع التركيز على قدرتها على زعزعة توقُّعات الطرف الآخر، وتفكيك منطِق الردِّ. إنَّها إرباك متعمَّد، يُحوِّل القدرة على التنبُّؤ إلى عبء نفسي، ويُبقِي المقاومة في حالة إنذار دائم.

في المقابل، لم تكن حركات المقاومة بعيدةً عن توظيف هذه التقنية.

فحين تُنفَّذ عملية جريئة في وقت تهدئة، أو تُظهر تقنية جديدة في ساحة الاشتباك لم تكن متوقَّعة، أو تُصدر خطاباً إعلامياً يختلف نغمياً عن المعتاد، فإنَّ ما يجري ليس فقط كسرًا للتوقُّع، وإنما رسالة مضمونة بأنَّ الوعي المقاوم غير قابل للحصار في قوالب العدو الإدراكية. وقد رأينا ذلك في عدَّة ساحات: ففي لبنان، حين قلبت المقاومة قواعد الاشتباك فجأة عبر ردِّ مدروس. وفي غزَّة، حين فاجأت المنظومات الاستخباريَّة الصهيونية بقدرات ميدانية جديدة. وفي إيران، حين ردَّت على اغتيال قائد كبير بقصف مباشر على قواعد أمريكيَّة، متجاوزة حسابات "العقلائيَّة" الغربيَّة.

هذا النوع من السلوك "غير المألوف المحسوب" يسعى أولاً لإرباك العدو، ويعيد رسم صورته عن ذاته. فكلمًا شعر أنَّه لا يستطيع توقُّعك، بدأ يشكُّ في أدواته ومخططاته وتحالفاته. ومع الشكِّ، يظهر التآكل، وتراجع الثقة، ويبدأ جهاز العدو النفسي في الانحناء من الداخل. "الجنون المحسوب" ليس خرقًا للمنطق، وإنما توسعة لحواقفه. إنَّه استخدام للاختلاف بوصفه سلاحًا، ورفضًا للوقوع في فخِّ التوقُّعات التي يُراد لك أن تظلَّ أسيرًا لها. لا يُستخدم دائمًا، ولا ينبغي أن يتحوَّل إلى عادة، لكنَّه حين يُوظَّف بحكمة، يُصبح صفة إدراكية تُعيد ضبط كامل المشهد. وأحيانًا، لا تحتاج إلى أكثر من صفة لتعيد ترتيب الوعي.

الاستراتيجية السابعة: كمينُ الثقة

حين يُفتحُ البابُ أمامك... لتسقطَ وحدك.

الثقةُ في سياقاتِ العمليّاتِ النفسيّةِ تتجاوز الإحساسَ بالاطمئنان إلى أداةٍ لإيجاد فراغٍ إدراكي. حين يشعر الخصمُ بأنَّ الأبوابَ فُتحت له وأنَّ الساحةَ أكثرَ قبولاً، ينخفضُ منسوبُ الحذرِ ويعلو منسوبُ الاستجابة. هنا يبدأ الكمينُ بالعمل؛ حيث يعتمد على التمهيد أكثر من الصدمة، وعلى اللين المصطنع بدل العنف.

ما يُعرف في علم النفس بـ«الاستجابة الناعمة للسياق الإيجابي الخادع» يُطبَّقُ حرفياً في هذه الاستراتيجية. يَعمُرُ وعيَ العدوِّ بسلسلة من المؤشّراتِ المبشّرة: تصريحات تهادئة، وتغطيات إعلاميّة تبتُّ التفاؤل، ووسطاء يظهرون فجأة، وإشارات دبلوماسية، وترحيب ناعم في الصحافة الغربية، وإشادة بحكمة الخطاب، وربما بعض التسهيلات الرمزيّة. هذا كلُّه يخلق بيئة مشبعة بإيحاءات الثقة فتظنُّ المقاومة أنَّ هناك منعطفًا استراتيجيًا يمكن اغتنامه.

لكنَّ الكمين لا يُختتم في نهايتها؛ إنَّه ينشط طوَالِ الطريق إليها. في تلك اللحظة يتخلّى الطرف المقاوم عن جاهزيّته، أو يبطلُ إيقاعه، أو يعيد ترتيب خطابه الداخلي ظنًّا منه أن هناك فرصة تهادئة أو اعترافًا أو

شراكة. يكشف الواقع عن استدراجٍ ناعم يقوده نحو تفككٍ تدريجي. تجلّت التقنية بوضوح خلال العدوان الصهيوني على غزّة ولبنان، حين نقلت وسائل الإعلام باستمرار أخباراً عن قرب اتفاق لوقف إطلاق النار وأجواء تفاؤل في المفاوضات والمبادرات، في الوقت الذي كانت آلة الحرب تعمل بأقصى طاقتها والمجازر تُرتكب بلا هوادة. لم تكن الرسائل الموجهة للعدوِّ بقدر ما خُصّصت للوعي الشعبي: اطمئنوا، نهاية الحرب باتت قريبة. انعكس ذلك في انخفاض التفاعل، وتراجع وتيرة الغضب، وتعليق بعض المبادرات الميدانية انتظاراً لما لم يتحقّق. في مفاوضات أوسلو قبل عقود، أُعيد إنتاج النهج بصورة أعمق: صنّع مناخ دولي رقيق، فتّح أبواب الكلام، وتمرير خطاب اعتراف تدريجي حتّى بدا الأمر كما لو أنّ مرحلة جديدة على وشك الانطلاق. خلف تلك الواجهة الناعمة جرى نقل فصائل المقاومة من ميدان الاشتباك إلى مائدة مشروطة، وتفريغ المشروع من روحه. لم يُفرض شيء رسمياً، وإنما خُدّر الواقع الشعبي تدريجياً.

وعندما نقضت الولايات المتحدة الاتّفاق النووي مع إيران، سبق ذلك أشهر من التصريحات الودّية والإشادة بالمرونة الإيرانية والإيحاء بأنّ طهران أصبحت شريكاً. شكّلت النبوة الهادئة الغطاء المثالي لانقلاب مفاجئ على الاتّفاق، تلاه فرض عقوبات أشدّ، وبدء ضغط

أقسى. هنا تحوَّلت الثقة من وسيلة أمان إلى طُعمٍ مخادع. حين يمدحك العدو، سلِّ دائماً من يقف خلف هذا المديح وماذا يرمي وراءه. وعندما يفيض المشهد برسائل تهدئة، راقبِ مَدَيَاتِ طَائِرَاتِهِ فِي السَّمَاءِ. فِي الحروب النفسية، تُقاس الخدَع بما تُظْهِرُه من إشارات بدل محتواه المختبئ. وكلِّمَا بدأ الأفق مطمئناً أكثر من اللازم، اقترب الكمين من الاكتمال.

فالمعركة لا تنطلق من أوَّلِ رصاصة، إِنَّهَا تبدأ منذ أول لحظة ثقة تُمنح لك دون سبب مقنع.

الاستراتيجية الثامنة: تآكل النموذج

حين يُترك الرّمز ليزبَل في الوعي

حين يتعدّر على العدو تدمير النموذج المقاوم مواجهةً، يتولّى مهمّة إفراغه من معناه عبر إبقائه على السطح مع تحويله إلى طقس شكلي أو مادّة ثقافية خالية من المضمون. تتجسّد خطّة «تآكل النموذج» هذه في استخدام الأيقونات المقاومة عرضاً لتتبدّد قوتها في وجدان الجماعة. تقوم معركة تآكل الرمز على أسس نفسيّة وثقافيّة؛ حيث تُكرّر الصورة في الإعلام بلا توقّف مع غياب فعل حقيقي يحييها. يهيمن الاستهلاك المفرط في الساحة العامّة فتنهار طاقة الانتماء، ويتحوّل كلُّ ما كان يصهر الجماهير في بوتقة التضامن إلى ذكرى سطحيّة لا تلبث أن تُنسى.

ينطلق هذا الأسلوب من مفهوم الإشباع الرمزي الذي يدرسه علم النفس الثقافي؛ إذ يتقلّص أثر أيّ رمز تتحوّل تردّداته إلى طقوس مبتورة من جذوره. يتراجع زخم الفعل وتضعف الدافعية للاشتراك في الفعل المقاوم؛ لأنّ الرموز باتت يُختزل في صورة ثابتة لا تستدعي المشاركة أو الحركة.

استخدمت القوى الغربيّة وإسرائيل هذه التقنية على نطاق واسع

في العقود الأخيرة؛ حيث قُدمت أيقونات المقاومة الكبرى على أنها عناصر تجارية أو ديكور فني هش. أُدرجت صورُ القادة والمقاتلين ضمن عروض الأزياء ومعارض «الثقافة المحلية»، وعُرضت في إطلاقات إعلامية مصطنعة تُخفي في طياتها رغبة الترويض والتهميش. في الحالة الفلسطينية، أثمرت هذه التحويلات عبر انتشار الكوفيّة في شوارع المدن الأوروبية على صدر القمصان دون أي إشارة لنضال أصحابها. واستُخدمت صورة الشهيد في ملصقات سياحية تُسوّق للمكان بعيداً عن سياقه التحرري. وهكذا ذبلت دلالتهما الثورية وحلّت ضدّهما مظاهر «الأيقونة المحايدة».

شهد لبنان منهجاً مشابهاً حين ركّزت تقارير غربية على «الخصوصيّة الثقافية» للمقاومة، ما أفرط في إبراز الجوانب الغربية لدى شخصياتها. أصبح القائد المقاوم مادّة لتصوير مشاهد دراميّة شخصيّة، فيما غاب السياق الوطني عن الأضواء، فتقلّص دوره من حامل مشروع تحرر إلى عنصر جذب بصري.

في إيران برزت صورة الشهيد (قاسم سليمان) ضمن سردية «الشرق المعقّد» في صحف غربيّة؛ حيث انطبعت ملامحه في مقالات تكريميّة مشروطة. دمجته الأقسام الثقافية ضمن مقالات عامة عن أسرار الشرق، فتلاشت شحنة تحريضه، فيما حُفظت هيئته بصفته بطلاً خارقاً في قصّة

لا تثير الحراك.

امتدَّت المعركة إلى صناعة المسلسلات والأفلام التي تسلَّط الضوء على بيئة المقاومة للترفيه، أو التهكم، أو المبالغة الدرامية، فتفتكك الذاكرة الميدانية عند جمهور المشاهدين. مع كلِّ حلقة تُنتزع فكرة الفعل الواقعي لصالح حبكة تستهلكها الشاشة وتترك وجدان المقاومين جافاً.

في فضاء التواصل الاجتماعي تصاعد الإشباع الرمزي عبر إعادة نشر الأيقونات دون تحريك أي نقاش أو نشاط. تُنقل الصور بوصفها جزءاً من محتوى ينتهي بانزلاق سريع نحو محتويات أخرى. ويفقد الرمز موقعه بصفته دعوة فعلية، ويتحوَّل إلى لوحة خلفية في شاشات الهواتف.

تكمُن الاستجابة الحقيقية في إعادة شحن هذه الرموز بمعنى عملي. ويُترجم ذلك بتنظيم نشاطات ميدانيَّة تاريخيَّة، وتضمين المناهج الدراسيَّة سرديات مقاومة حيَّة، وتفعيل المسرح والفنون الشعبيَّة لتوثيق الحكاية وجعلها تجربة مُعاشة.

تبدأ مقاومة تآكل الرمز حين تُعيد الجماعة ربط الأيقونات بفعل يومي، فلا تظلُّ صورة الشهيد حاضرةً في الإطار وحده، بل تُجسِّد في الوقوف عند معاقله، وترديد قصائده في ساحات العطاء، وتنظيم

الاستراتيجية التاسعة: تسخين الداخل

حين يُنقل التوتُّرُ من الجبهةِ إلى البيتِ الداخليِّ

عندما تعجز أدوات العدو عن اقتحام الخطوط الأمامية للمقاومة بالقوة المباشرة، يبحث عن ثغرات خفية في عمق المجتمع ذاته. تبدد هذه الثغرات في تحويل حرارة الصدام الخارجي إلى احتقان داخلي يفتك بتماسك البيئة. بدلاً من هجوم يتصدى لعزيمة الجبهة الأولى، وتُسَخَّن الأجواء الداخلية لتنهيار المقاومة من الداخل.

تستند هذه الخطة إلى آلية نفسية اجتماعية تُعرف بتحويل العدوان (Displaced Aggression)، وهي عملية يُصرَّف فيها الأفراد غضبهم وإحباطهم بعيداً عن مصدر التهديد الحقيقي إلى أقرب هدف متاح. حين تتعثر المواجهة المباشرة، يلتف الإحساس بالقهر ليجد منفذاً في النزاع الداخلي، فيبدو كأنه يندلع صراع بين صفوف الحلفاء بدلاً من التلاقح مع أعداء خارجيين.

تتلوَّى ضغوط المعركة كالماء الساخن في أنابيب المجتمع، فإذا نجحت الدعاية الخارجية في بثِّ معلومات متضاربة عن الخسائر المعركة ومآلاتها، واستثمار الخوف من المستقبل المجهول، يتهيأ المناخ لفجوات داخلية، فتنفجر أسئلة عن استراتيجية القيادة وألويات الصفِّ

الوطني. يبدأ الجدل بأحاديث تتساءل عن لحظة الردّ المناسبة أو جدوى التضحية، ثم يتصاعد النقاش إلى محاسبة القادة وأتّهامهم بالتقصير. أثناء التصعيد في غزّة على سبيل المثال، سرعان ما انتقلت حدّة النقاش من مواجهة الدبّابات والطائرات إلى غرف الجلوس والمجموعات الافتراضية. بدا الجميع فجأةً منقسمين بين مؤيّدين لتكثيف العمليات العسكرية، ومعارضين يلوّحون بألوية السلام أو الانفتاح السياسي.

وجدت القنوات الإعلامية الموالية والوسائط الاجتماعية نفسها تغمر الجمهور بمنشورات ونقاشات استفزازية ودعوات تجارية متناقضة. في جنوب لبنان، لاحظ المراقبون كيف اتّسمت ماتم الشهداء بمشاعر الحزن، لكن أيضاً بنزعات لوم متبادلة: من تحمّل مسؤولية عدم نشر التحذيرات الكافية؟ ولماذا لم تهبّ المقاومة بدعم شعبي أكبر؟ فتح هذا الهدر الداخلي ثغرة استغلّتها وسائل إعلام معادية للتشكيك بدور الشباب المقاتل، ووزّعت مقالات تركّز على أخطاء عابرة متجاهلة مآثر البطولات.

عقب أيّ تهديّة مؤقتة، يندفع الناقدون إلى إعادة نشر تفاصيل القصف والدمار على أنّها دليل على خلل بناء. تحت ستار النقد، تجد الأصوات الإعلامية والرموز الاجتماعية نفسها تستنهض أزمة مقارنة

بين ضحايا محدّدين وضحايا آخرين، ثم تُلصق وَصْفَيْن بالقيادات؛ بأنّها ”بعيدة عن هموم الفقراء“ أو ”منفصلة عن الواقع“، فيسري الشعور بأنّ الخطر الأكبر لم يعد خارجياً.

تظهر هذه الحالة في أزمات ما بعد المواجهة (Post-Conflict Fractures) حسب علماء السياسة النفسية؛ إذ يخرج على السطح قلق جماعي وخيبة أمل دفيئة يدفعان إلى التفكُّك الداخلي. تصبح كلفة الدفاع الجماعي أعلى من كلفة سلوكيّات النفور والانقسام.

تتراكم صدوع الانقسام حتّى تنتقل من دوائر النقاش إلى علاقات الجيرة والعمل المشترك، فتراجع المشاركة في التطوُّع الكفاحي والمبادرات الإنسانية، ويغيب مقاتلو الصقّين عن صفوف الدعم. في هذه المرحلة، يصبح العدوُّ وشبْحُه أقلَّ إزعاجاً من التوتُّر الذي يفتك بأواصر الشراكة الوطنية.

لمواجهة هذا الخطر، ينبغي تطبيق أدوات احتواء متوازنة: فتح قنوات حوار شفّافة بين القيادات والقاعدة الشعبية، وتخصيص مساحات لإبراز إنجازات الجبهة دون مواربة، ومعالجة القضايا المعيشية بحلول عملية، وتفعيل المؤسّسات المجتمعية لامتناص غضب الجماهير قبل أن يحدث الانفجار.

ينبغي ترجمة الرؤى الاستراتيجية إلى خطوات ميدانية واضحة تُظهر

إسهامَ الجميع في شكلٍ فاعلٍ . تُنظَّم ورشُّ عملٍ ولقاءاتٍ تضمُّ شرائحَ متعدِّدة؛ للتعبير عن مخاوفها الغاضبة وتوجيهها نحو أهدافٍ إنتاجيةٍ بدل الانكفاء على الذات .

يبقى الهدف النهائي من هذه الاستراتيجية المضادَّة: أن يستعيد المجتمع حيويَّته، ويعيد رسم وحدته دون الحاجة إلى من ينبئه إلى خطر النفور الداخلي، حتى يوجَّه كلُّ طاقاته إلى صقل أدوات المواجهة الحقيقية خارج أسواره .

الاستراتيجية العاشرة: الكثافة المحبطة

حين تُفرضُ الواقعيَّةُ بوصفها ذريعةً للشَّلَلِ

في أحد الأحياء التي خرجت لتشيع شهيد، وقف رجلٌ في الخمسين من عمره على جانب الطريق دون هتاف أو رفع شعار، مكتوم العواطف. همس لجاره بمرارة: «كم ندفن قبل أن تتغيرَّ المعادلة؟» بدا السؤال عاديًّا، ولكنَّه حمل كل ثقل سنوات الحرب: صور الدمار، وأخبار القصف، ووعود التغيير المعلَّقة. جاء صوته ليكشف عن خطة ناعمة تهاجم المنظومة النفسية.

تُعرف هذه الخطة بالكثافة المحبطة التي تعتمد على الإغراق في التفاصيل دون اللجوء إلى الإنكار. تُثبت البيانات والتحليلات أنَّ الأعباء تفوق طاقتك، وأنَّ الطريق أبعد من حلمك، وأنَّ صوتك لن يخترق صمت العدو. بدل مطالبتك بالتراجع، تطلب منك الصمت والمراقبة كما لو أنك لم تعد معنيًّا، فتذوب الرغبة في المقاومة داخل بحر من اليأس.

يرتكز هذا الأسلوب على مفهوم تحويل العدوان (Displaced Aggression) في علم النفس الاجتماعي؛ حيث يصرف الأفراد غضبهم وإحباطهم بعيدًا عن مصدر التهديد الحقيقي إلى أقرب

هدف متاح. حين تبلغ المواجهة حدَّ الشلل أمام قسوة العدو، يلتفُّ الإحساس بالقهر ليجد منفذاً في النزاع الداخلي، فتبدو أزمات الداخل كأنَّها فشل المقاومة بدلاً من كونها تحدياً قابلاً للتجاوز.

تتجلَّى أساليب الكثافة المحبَّطة في سرديات لبنان الراهنة؛ حيث تُسوّق الأزمات المالية والعملة والغلاء للعيان باعتبارها دليلاً على تقصير المشروع المقاوم، لا عوامل تحدُّ يُتطلَّب تجاوزها. يتكرَّر الحديث عن شروط التعافي المستحيلة مع غياب أيِّ إشارة إلى دور القوانين أو تدخُّلات الخارج، فتفقد روح المقاومة مسارها في خضمِّ الشكوك.

في فلسطين، تحاصر صور الخراب ذكرى الفداء، وتغيب لحظات البطولة أمام تذكير متكرَّر بحجم الخسائر، فتتلاشى بهجته النضال تحت وطأة التحليل المظلم. وفي إيران، تُستثمر العقوبات والحصار الاقتصادي لصياغة سردية تقول: إنَّ الثورة فقدت القدرة على الصمود، فتنهار الثقة في الداخل قبل سقوط الأبواب الخارجية.

يتسلَّل الخطاب الإعلامي المهذَّب إلى الأذهان عبر نصائح "التفكير بعقل" و"الابتعاد عن الأوهام"، فيبدو النقد موضوعياً، ويتحوَّل الانقسام إلى حياد تلقائي. ومع مرور الوقت، تتحوَّل المقاومة من مشروع يملأ النفوس أملاً إلى عبء يرهق الوجدان، فينتقل الجمهور من الحماسة إلى الحياد، ثمَّ إلى اللامبالاة، وتراجع الالتزامات الذاتية بالتحدي.

لا يكسر الواقع إرادتهم بقسوة صادمة. بدلاً من ذلك، يتسلل عبر تراكم الشكوك حتى تغيب المبادرة، وتصبح ساحات القتال رمادية من العبث؛ إذ يضخُّ الإعلام الحربي كمّيات هائلة من الوقائع المحبطة، تنشئ حالة إشباع إدراك سلبي (Negative Cognitive Saturation)، فتخمد جذوة المبادرة وتفقد السرديات التاريخية جاذبيّتها.

الردُّ على هذا التحديّ يتطلّب أكثر من إنكار الأزمات. ثمّة حاجة إلى إعادة تصنيفها ضمن رواية الأمل والعمل. تُترجم الإسهامات اليومية الصغيرة إلى وقائع تُنشر بوضوح، وتُعرض قصصُ الصمودِ بوصفها أدوات للتحديّ لأبدالات الاستسلام. تنظّم المؤسّسات الدينيّة والثقافيّة ورش عمل لتفكيك الرسائل المشحونة، وتُركّز الحركة على إنجاز ملموس يوازن بين الفعل والرمز، فتتجدّد الثقة وتعود المقاومة إلى قلب المشهد.

يحضر القائد في منصّات التواصل الاجتماعي ببرامج قصيرة تبثُّ رسائل الصمود، وتؤكد أنّ النضال حضور دائم. وتوزّع الجمعيات الخيرية مساعدات رمزيّة تثبت أنّ روح المقاومة لا تنطفئ مهما اشتدّت المعاناة. هكذا يُعاد توجيه الوجدان الجماعي إلى المسار الصحيح، فلا ينتهي الجهد بحجب الأصوات أو إنكار المشاعر، بل باستثمار الواقع باعتباره وقوداً للتجدّد والإصرار.

الاستراتيجية الحادية عشرة: تطبيع الانكفاءِ

حين يصبحُ التراجعُ سلوكاً طبيعياً لا يستدعي التبريرَ في البدء، كانت لحظات الانكفاء تُعتبر استثناءً. يُبررها أصحابها بالظروف، ويشرحون للناس أسباب الصمت أو الانسحاب، ويتعهدون بالعودة. لكن ما إن تكرر لحظات التراجع حتى يُعاد خلق وجدان الجماعة: يتحوّل التراجع من كونه علامة ضعف إلى خيار واقعي. ويُعاد تأطير الانكفاء بوصفه «حكمة»، و«دهاء سياسياً»، و«مرحلة مؤقتة»... أو ببساطة: طبيعة المرحلة، بدلاً من اعتباره مشكلة. هكذا تتحوّل الاستثناءات إلى أعراف، والتبريرات إلى ثقافة.

في بيئات المقاومة، يُلاحظ هذا التحوّل بوضوح مع مرور الزمن؛ حيث تبدأ القوى الحيّة بالتراجع عن بعض المواقع، أو الخطابات، أو المواقف، ثم تتوقّف عن تقديم أي تفسير. لم يعد يُقال للناس «انتظرونا سنعود» بل يُطلب إليهم أن يتكيفوا مع الانسحاب، وأن يُعيدوا تعريف النصر بما يتناسب مع ما هو ممكن. في هذا السياق، لا أحد يُجبر على الاعتراف بالهزيمة... فالمطالبة بالنصر لم تعد قائمة أصلاً.

من الأمثلة الحيّة على هذه الاستراتيجية ما يُمارس ضدّ محور المقاومة في مراحل الخفوت الإعلامي أو السياسي: تُنسى أولويات

المشروع، وتُعاد صياغة الخطاب بلغة التحفُّظ والانضباط والانتظار، دون أن يُقدِّم للجمهور أيُّ وعد أو رؤية أو خطُّ تعبويٍّ. ويُطلب من الناس أن يتأقلموا مع الوضع الجديد، كأنَّ التراجع لم يحدث، وكأنَّ التقدُّم لم يكن واقعاً في أيِّ لحظة.

هذا الأسلوب يُعرف في علم النفس الجمعي بظاهرة «إعادة تعريف السلوك المنسحب» (Withdrawal Normalization)؛ حيث يتحوَّل الانسحاب المتكرَّر من ميادين الصراع إلى معيار جديد للسلوك المقبول. وتُستبدل القيم التعبوية بقيم السلامة والمرونة والبراغماتية، إلى أن تختنق روح المواجهة.

والمشكلة لا تتجسَّد في الانكفاء ذاته؛ إذ قد يكون ضرورة مرحليَّة، وإنَّما في تحوُّله إلى نمط دائم يُعاد إنتاجه دون مراجعة، ودون محاسبة، ودون ضوء في نهاية النفق. وعندما يتوقَّف الناس عن طرح السؤاَل: "لماذا صمتنا؟"، فذلك يعني، في العمق، أنَّهم باتوا يرون الصمت أنسب من الفعل.

وفي هذا السياق، لا حاجة للعدوِّ أن يشنَّ حملةً صاحبة على المقاومة؛ إذ يكفي أن يُوفَّر شروط الخفوت: ضغط إعلامي، وتشويش سياسي، وتجويع ناعم، وتكثيف للصراعات الجانبية. وما إن يتراجع الخطاب الثوري، حتى يُفتح المجال لما يُسمَّى بـ"الواقعية السياسية"،

أو "خطاب الدولة"، أو "المرحلة الانتقالية". ومع مرور الوقت، تُمحي
 الفكرة التي من أجلها انطلقت المقاومة.
 مواجهة هذه الاستراتيجية لا تقتصر على التعبئة المستمرة وحدها،
 بل تشمل أيضاً إبقاء الذاكرة حيّة: أن نتذكّر لماذا بدأنا؟ وماذا أردنا؟
 وأين وصلنا؟ وأن نتمسك بتعريف النصر كما هو، كي لا ننخدع بخسارة
 هادئة. فأسوأ ما قد يصيب مشروعاً مقاوماً... أن يألّف الصمت، ويعتاد
 الناس غيابه دون أن يتساءلوا: أين ذهب؟

الاستراتيجية الثانية عشرة: ترويض الانشغال

حين يتحوّل العمل إلى قيد يفقد دوره كحافز ليست كل حركة دليل حياة. أحياناً يُدفع الناس إلى العمل بهدف الانشغال أكثر من الإنجاز. يُشغل الفرد أو الجماعة في ملفات صغيرة، ومتكررة، وعقيمة، ودون بوصلة، إلى أن يتحوّل الانشغال إلى غاية بذاته. وهكذا تُروّض الروح الثائرة لتتلهّى بمشاريع جزئية لا تُقلق العدو، ولا تلامس جوهر المعركة.

يُسجّل التاريخ كيف أنّ بعض الأنظمة المخابراتية الغربية — لا سيّما في فترات احتدام الصراع مع الحركات الإسلامية أو الثورية — عمدت إلى دعم جمعيات أهلية غير سياسية، أو مجموعات فكرية «إصلاحية»، بهدف منحها شعوراً زائفاً بالجدوى، دون تمكين فعلي. هكذا، يُترك المجتمع يتحرك كثيراً، دون أن يحدث أثراً يُخيف موازين القوى. إنّها حركة محكومة بالسقف، وبالوقت، وبالإطار المرسوم مسبقاً.

هذا النوع من الترويض ينجح أكثر حين تُربط «المسؤولية» بمفاهيم الإغراق التنظيمي: اجتماعات لا تنتهي، وملفات إدارية متراكمة، ونشاطات استهلاكية، وأوراق عمل، وندوات، ونشرات، وتقارير، إلى

أن يغيب السؤال: لماذا نفع كل هذا؟ ولصالح من؟ وماذا نُنجز فعلاً؟ تُعرّف هذه الظاهرة في علم النفس المؤسّسي بـ«عبء المهام الوهميّة» (Pseudo-Productivity Load)؛ حيث يشعر الأفراد بالرضا لأنّهم منهمكون، رغم أنّهم، في العمق، لا يقتربون من التغيير. إنّها بيئة عمل تخلو من الصراع، ومؤسّسة تفتقر إلى الاشتباك، وتنظيم يفتقد الرؤية.

وقد تسلّلت هذه الآلية إلى بعض بيئات المقاومة، حين أصبحت الانشغالات الجزئية تُستعمل لتبرير غياب السؤال الاستراتيجي. يُقال: «مشغولون في ترتيب البنية»، و«نعمل على بناء الكادر»، و«نركّز على الداخِل أوّلاً»، فيما السؤال الأخطر يُوجَل دائماً: ما علاقتنا بالعدو؟ وأين موقعنا من المعركة الكبرى؟ وهل كل هذا الحراك يُقوّي المقاومة... أم يُحيدها؟

الأخطر من ذلك أنّ هذا النوع من الانشغال المُصطنع يمنح العدو فرصةً ذهبية: أن يرى خصومه يعملون ليلاً نهاراً، لكنّ خارج خطوط الاشتباك. يعرف أنّهم تعبوا، ويحترقون، ومع ذلك لا يقتربون من مراكز الضغط. وهكذا، تُستنزف الجهود في معارك بلا أثر، فيما الجبهة الحقيقية تبقى بلا مواجهة.

الردُّ على هذا الواقع لا يمرُّ عبر تقليص العمل بل يتطلّب إعادة

وصل الجهد بالغاية. يجب أن يكون كلُّ ملفٍّ، وكلُّ مشروع، وكلُّ خلية، في خدمة الرؤية الكبرى. فالتحرُّك وحده لا يكفي... المهمُّ أن يكون في الاتجاه الصحيح؛ لأنَّ الطاحونة التي تدور بلا هدف، تُنهك نفسها، وتُسعد العدوَّ.

الاستراتيجية الثالثة عشرة: رقعة الشطرنج في رأس العدو

دفعُ الخصمِ إلى اتِّخاذِ قراراتٍ مدمِّرةٍ عبر هندسةٍ ذهنيَّةٍ تجعلُ معرَّكَتهُ ضدَّ نفسه.

في الحروب النفسِيَّةِ المتقدِّمةِ، يبدأ التعامل مع الخصم بإضعافه من الخارج أو إرباكه بمؤثِّراتٍ صاخبةٍ، ثمَّ يتصاعد إلى إعادة تصميم وعيه من الداخل؛ حيث لا يحتاج العدوُّ إلى مواجهته؛ لأنَّه يتحوَّل إلى خصم لنفسه. هذه هي فلسفة استراتيجية «رقعة الشطرنج في رأس العدو»؛ حيث تُخاض المعركة داخل العقل التقديري للخصم، بدلاً من أن تدور على الأرض أو في السماء. هناك، تتحوَّل الرقعة إلى مساحة متداخلة، تتحرَّك فيها القِطْعُ بشكلٍ مربكٍ، وفق قوانينٍ خادعةٍ.

في هذا السياق، يُقاد العدوُّ إلى الهزيمة من خلال خيارات يظنُّها ذكية، دون أن يتعرَّض لضغطٍ مباشرٍ. يُهيأُ له أنَّهُ يسيطر، فيما هو يتحرَّك ضمن شبكةٍ مدروسةٍ من التوجيهات النفسِيَّةِ الخفيةِ، المُبرمَّجةِ بطريقةٍ تجعلُ الهزيمة تبدو كأنَّها اختياره الحرُّ.

تشبه هذه الاستراتيجية ما يُعرف في علم النفس السلوكي بـ«التحكُّم غير المباشر بالسلوك» (indirect behavioural steering)، وهو أن

تُدفع الكائنات - بما فيها البشر - إلى قرارات معيّنة دون أن تشعر بأنّها موجهة. وقد استُخدم هذا المبدأ في العلوم العسكرية بطريقة شديدة التطوُّر؛ إذ يجري التحكُّم بالمسار الإدراكي للعدوِّ، دون الاكتفاء بالتأثير في ردِّ فعله.

وإذا أردنا تمثيل هذه الفكرة بلعبة الشطرنج، فإنَّ الخصم لا يُسقطه هجوم مباشر، بل يخسر المعركة؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ تحرُّكه نحو الملك الآخر كان ذكاءً، فيما هو في الحقيقة كان يسير نحو فتح مرسوم منذ البداية. العقل هنا هو الرقعة، والأفكار هي القطع، وكلُّ خطوة محسوبة ضمن مصفوفة ذهنية زُرعت فيه سلفاً، دون أن تنبع من إرادته المستقلَّة. في الصراعات السياسية والعسكرية، نجد أمثلة عديدة لهذه الاستراتيجية. كم من مرَّة جرى استدراج العدوِّ إلى مواجهة خاسرة دون أن يُدرك؟ وكم من مرَّة ظنَّ أنه اخترق صفوف المقاومة، فيما كان يُقاد إلى فتح معلوماتي جُهَّز بدقَّة؟

النسخة النفسية من هذه الاستراتيجية تبدأ بإعادة بناء "سردية الخطر" داخل وعي العدوِّ. فبدل أن يرى المقاومة مصدراً تهديد خارجي مباشر، يُدفع إلى أن يراها عامل تشويش داخلي في مجاله، ما يدفعه إلى تحرُّكات داخلية استنزافية. وحين ينهمك في إدارة "الاضطرابات النفسية" في مؤسَّساته أو جمهوره أو حلفائه، يكون قد نزل إلى الرقعة،

وبدأ يُحرِّكِ قِطْعَه ضمن الخِطَّة التي لم يصنعها بنفسه.
وهنا تظهر قوَّة التضييل الصامت؛ حيث تُستخدم المعطيات الناقصة،
أو ”الحقائق المختارة“، بدلاً من الأكاذيب الكبرى. تُبنى قرارات العدو
على ما يراه، دون أن تستند إلى الواقع الكامل، ويبدأ بالتصرُّف وفق
خريطة ذهنية مشوَّهة، ظنًّا منه أنَّها الخريطة الصحيحة.

ومن أدوات هذه الاستراتيجية:

١. إفشاء معلومات مضلِّلة داخل بيئة العدو الإعلامية دون

نسبها للمقاومة.

٢. نشر تحليلات تبدو مستقلة تؤدي إلى تهيئة المزاج العام

داخل خصمه.

٣. خلق ضغوط نفسية متراكمة على بعض مفاصله الحساسة

(الاقتصادية، والأمنية، والشعبية...)، تدفعه إلى ردود أفعال

غير متَّزنة.

٤. تحفيز صراعات جانبية داخلية تجعل الخصم يُعيد ترتيب

أولوياته وفق أخطار ثانوية.

٥. ببساطة، تأخير ردِّ الفعل عند المقاومة عن قصد، لخلق

مساحة يُبادر فيها العدو بنفسه، ومن ثمَّ يقع في الفخ

الإدراكي.

في التجربة في فلسطين، كثيراً ما بُنيت معاركُ متقنة على ترك العدو يتصرّف وفق حساباته، حتى يُستدرَج إلى نقطة ضعف تكشف هشاشته. وفي معركة "سيف القدس"، بدا واضحاً كيف كانت "رقعة الوعي" لدى العدو مضطربة، وأنَّ حركته الإعلامية والسياسية جاءت ردّاً فعل على معادلة لم يفهمها بالكامل، رغم ظنّه أنّه يتحكّم بها.

أمّا في الفضاء الدّولي، فتتجلّى هذه الاستراتيجية حين تقوم الأطراف الاستعمارية الكبرى بإغراق خصومها بخيارات متشابكة في ملفّات معقّدة (مثل الاقتصاد، والطاقة، والاتفاقيات الدّولية...)، ما يجعل الخصم يتصرّف بدافع الانفعال أو الحساب الخطأ، بدلاً من أن يُبادر من موقع الفهم الكامل.

أخطر ما في هذه الاستراتيجية أنّها تُمارَس دون أن تُكتشف بسهولة من الخارج. قد يبدو العدوُّ في حالة نشاط، ويقوم بخطوات محسوبة، ويتخذ قرارات مؤسّسيّة، ومع ذلك يجري كلُّ ذلك داخل رقعة ذهنية غير سليمة. تتجاوز المواجهة هنا الوعي الظاهر، وتتموضع في منطوق اتّخاذ القرار ذاته.

وحين تنجح هذه الاستراتيجية، لا ينهار العدوُّ من أوّل خطوة، بل يدخل في سلسلة من الهزائم الصغيرة المتراكمة التي تبدو في ظاهرها أخطاءً عاديّة أو ضغوطاً جانبيّة، حتى يصل إلى لحظة الانكشاف الكامل.

والأهمُّ أنَّ الجبهة التي تُتقن هذه اللعبة يجب أن تمتلك بدورها نقاءً إدراكياً عالياً. هذه الاستراتيجية لا تُستخدم إلا حين تكون المقاومة واثقة من أنها تتحرك خارج أيِّ فخٍّ ذهني مضادٍّ؛ لأنَّ اللعب على رقعة العدوِّ يتطلب معرفةً كاملةً بشكل الرقعة وحدودها وقوانينها. من هنا، تُفهم ”رقعة الشطرنج في رأس العدو“ بوصفها خطةً هجوميةً من جهة، ومرآةً دفاعيةً من جهة أخرى. كلُّما شعرت المقاومة بأنَّها تقود العدوَّ إلى خيارات مخطئة، وجب عليها أن تتفقد رقتها الداخلية لتتأكد من أنها لا تتحرك هي الأخرى ضمن وهَمِّ مماثل. فكلُّ شطرنج يقوم على رقتين: رقعة الخصم، ورقعة الذات.

المحور الثاني:

استراتيجيات الاستدراج والتفكيك

الاستراتيجية الرابعة عشرة: دع الباب يُغلق من تلقائه

حين يجري دفع العدو إلى اتّخاذ قرار الخروج بنفسه دون أن يُفرض عليه. تُعدُّ هذه الاستراتيجية من الأساليب النفسيّة غير المباشرة التي تهدف إلى دفع الطرف المقابل نحو الانسحاب من ساحة المعركة أو التراجع عن المواجهة، دون أن يُفرض عليه ذلك بشكل صريح. وبدلاً من استخدام الضغط القسري، يُستدرج الخصم ليقتنع بأنّ الانسحاب هو الخيار الوحيد المتاح أمامه. وتتكامل هذه الآليّة مع عدد من النظريّات النفسيّة والاجتماعيّة، أبرزها:

١ - نظريّة الالتزام (Commitment Theory)

في علم النفس الاجتماعيّ، تشير هذه النظريّة إلى أنّ الأفراد يصبحون أكثر ارتباطاً بقراراتهم عندما يشعرون أنّهم اتّخذوها بأنفسهم. فكلّما كان الشخص ملتزماً بخيار ما، زادت احتماليّة استمراره فيه، حتى لو كانت نتائجه غير مؤاتية. في هذا السياق، لا يُفرض الانسحاب على الطرف المقابل، بل تُزرع في وعيه أفكارٌ تجعله يعتقد أنّ الخروج قرارٌ نابع من قناعته الذاتيّة. وبما أنّه بدأ التفكير في الانسحاب استجابةً للرسائل الموجّهة إليه، فإنّه يلتزم به كما لو أنّه اختاره بإرادته.

٢ - نظرية الضغط الاجتماعي (Social Pressure Theory)

تركز هذه النظرية على التأثيرات التي تمارسها الجماعة أو البيئة المحيطة في سلوك الأفراد. فعندما يرى الفرد أنَّ الجميع يتجهون نحو خيار معين، يصبح أكثر ميلاً للانضمام إليهم، حتى لو لم يكن مقتنعاً تماماً.

في هذا النوع من الاستراتيجيات، يُستغلُّ الضغط الاجتماعي لإقناع الطرف المقابل بأنَّ «الجميع» يرون في الانسحاب الخيار الصائب.

سواء عبر الإعلام، أو الشائعات، أو التحركات السياسية، يُصاغ جوٌّ عامٌ يُشجِّع على التراجع؛ باعتباره القرار المنطقيَّ الوحيد.

في هذا النوع من الحروب النفسية، لا يُجبر الطرف الآخر على مغادرة ساحة المعركة، بل تُصنع ظروف تجعله يرى هذا القرار عقلياً ومبرراً. يُستخدم الإعلام بكثافة لإيصال رسائل مربكة أو متناقضة، ما يُضعف المعنويات ويدفع إلى الاعتقاد بأنَّ الاستمرار في المواجهة لم يعد مجدياً.

فعلى سبيل المثال، في حرب غزة، قد تُبثُّ أخبارٌ تُبرز تفوق العدوِّ التكنولوجي أو استنزاف الموارد، بهدف ترسيخ فكرة أنَّ المقاومة تتجه نحو الهزيمة. وتُسهم هذه الرسائل في جعل الأفراد داخل فلسطين أو في المحيط العربي يتقبلون فكرة أنَّ التفاوض أو الانسحاب أكثر فاعلية من استمرار القتال.

المحور الثاني - الاستراتيجية الرابعة عشرة ١٣

وفي حروب لبنان، عندما تتعرّض المقاومة لضغوط عسكرية ودبلوماسية، قد يُروَّج لفكرة أنّ المجتمع اللبناني بأسره بدأ يفقد الأمل في النصر. وتنتقل هذه الأفكار تدريجياً إلى القيادات السياسية والعسكرية، فتبدأ بالتشكيك في جدوى الاستمرار في المواجهة.

الهدف الأساس من هذه الاستراتيجية هو تقويض القدرة على اتّخاذ القرار لدى الطرف المقابل. فعندما يتعرّض الأفراد أو الجماعات لضغط نفسي مستمرّ عبر الإعلام، والشائعات، والتهويل المتعمّد للمخاطر، تبدأ الثقة في إمكانية تحقيق النصر بالتآكل. ويُنظر إلى الانسحاب باعتباره الخيار الأقلّ ضرراً بل الأكثر عقلانية.

ومع مرور الوقت، يتعرّز الاعتقاد بأنّ الهجوم أو المقاومة لم يعودا مجدّيين، وأنّ التراجع بات ضرورة. وتنجح هذه الاستراتيجية بدرجة أكبر عندما تتمكّن الرسائل المضادّة من إرباك الجبهة الداخلية، ودفعها إلى التشكيك في فعالية مشروعها المقاوم.

ولمواجهة هذا النوع من الاستراتيجيات، لا بدّ من الحفاظ على الثقة بالنفس، وتعزيز الإيمان بأنّ الاستمرار في المقاومة هو الطريق الوحيد نحو النصر. ويجب أن يُبنى التواصل بين القيادة والشعب على أساس أنّ المقاومة ليست انفعالاً عاطفياً، بل مشروعاً سياسياً استراتيجياً طويل الأمد. من الضروري أيضاً التأكيد على أنّ المقاومة تمثّل خياراً جماعياً، وأنّ

الاستراتيجية الخامسة عشرة: نزيه المرتفعات

حين يُدفعُ العدوُّ إلى التراجعِ عن مواقعهِ العُليا تدريجيًّا حتَّى يفقدَ سيطرته دون أن يشعرَ بالألم.

تعتمد هذه الاستراتيجية على مبدأ الضغط المتدرج الذي يُنهك الطرفَ المقابل دون أن يُشعره بخطر مباشر أو تهديد صريح. يُمارَس هذا الضغط عبر سلسلة من الخسائر الصغيرة التي تُضعف قدرته على الصمود، وتُفقد تدريجيًّا السيطرة على مواقع استراتيجية، فيما يظنُّ أنه ما زال ممسكًا بزمام المبادرة. وتستند هذه الآلية إلى عدد من المفاهيم والنظريات في علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع، من أبرزها:

١ - نظرية الانهيار التدريجي (Gradual Erosion)

(Theory)

تشير هذه النظرية إلى أنَّ الأفراد أو الكيانات لا ينهارون دفعة واحدة بل يتعرَّضون لتآكل بطيء نتيجة تراكم الضغوط والخسائر الصغيرة. التأثير لا يظهر فوراً، لكنّه يتراكم بمرور الوقت حتى يُفقد الطرف الآخر القدرة على المقاومة. في سياق الحروب النفسية، يُستخدم هذا النمط لتقويض المعنويات ودفع العدو إلى التراجع دون أن يدرك أنه انهزم.

٢ - نظريَّةُ الحوافزِ المتراكمةِ (Cumulative Small Incentive Theory)

تقوم هذه النظرية على تقديم مكاسبٍ صغيرة تبدو غير مؤثرة في البداية، لكنَّها تتراكم لتُحدث تحوُّلاً كبيراً في السلوك. في الحرب النفسية، تُستخدم هذه الآلية لتفكيك الثقة داخل المجتمع المقاوم، أو لإضعاف العلاقة بين القيادة والقاعدة الشعبيَّة، من خلال تغييرات تدريجية تُحدث أثراً تراكمياً على المدى البعيد.

٣ - نظريَّةُ الاستنزافِ (Attrition Theory)

تُرَكِّزُ هذه النظرية على إنهالك الطرف الآخر من خلال استنزاف موارده وقدراته بشكل متواصل. بدلاً من خوض مواجهة حاسمة، يُعتمد على إنهالك الخصم عبر تآكل مستمرٍّ في قدراته العسكرية والنفسية والاجتماعية، حتى يصل إلى مرحلة العجز عن الاستمرار.

٤ - نظريَّةُ الضَّغَطِ الاجتماعيِّ (Social Pressure Theory)

تُشير هذه النظرية إلى أنَّ الأفراد أو الجماعات، تحت تأثير ضغط اجتماعي مستمرٍّ، يبدوون في التكيُّف مع هذا الضغط تدريجياً، حتى وإن كانوا في البداية رافضين له. في هذا السياق، يُصاغ مناخٌ ضاغطٌ

عبر الإعلام أو أدوات نفسية أخرى، يجعل المقاومة تميل إلى التراجع باعتباره الخيار الوحيد المتاح. تتكرر الرسائل السلبية حتى تتحوّل إلى قناعة داخلية بأنّ الاستمرار لم يعد مجدياً.

٥ - نظرية التوقع (Expectation Theory)

تفترض هذه النظرية أنّ الأفراد يتصرفون بناءً على ما يتوقعونه من نتائج مستقبلية، استناداً إلى تجاربهم السابقة والبيئة المحيطة بهم. في هذا الإطار، يسعى العدو إلى التلاعب بتوقعات الطرف المقابل، ودفعه للاعتقاد بأنّ الاستمرار في المواجهة سيؤدّي إلى خسارة حتمية، ما يجعل خيار التراجع يبدو أكثر عقلانية.

في الحروب النفسية، تُنفذ هذه الاستراتيجية عبر ضغط متسلسل لا يتخذ شكل ضربة مفاجئة، بل يتجسّد في سلسلة من الخسائر الصغيرة المتكررة. هذه الخسائر تُضعف الثقة، وتُربك الحسابات، وتدفع الطرف المقابل إلى التفكير في التراجع باعتباره خياراً منطقيّاً.

فعلى سبيل المثال، في غزّة، قد تُنفذ ضربات عسكرية متتالية تُضعف قدرة المقاومة على الردّ، ما يُشعر الجمهور بأنّ الاستمرار في القتال سيؤدّي إلى مزيد من الخسائر دون نتائج ملموسة. وفي لبنان، يُركّز الإعلام المعادي على تصوير الوضع الحدودي باعتباره تهديداً دائماً

بلا أفق للحسم، ما يخلق شعوراً بالإرهاق لدى المجتمع والمقاومين . وفي العراق، يُستخدم الضغط الدبلوماسي والعسكري لإقناع الناس بأنَّ المعارك الطويلة تستنزفهم دون تحقيق مكاسب حقيقية . الهدف من هذه الاستراتيجية هو إضعاف الروح المعنوية بشكل تدريجي . فمع استمرار الضغط، يبدأ الأفراد أو الجماعات في الشعور بالعجز، ويتراجع الأمل في تحقيق النصر . وعند هذه النقطة، يبدو الانسحاب كأنَّه الخيار الأكثر واقعيةً، حتى وإن لم يكن كذلك في الحقيقة .

وحين يصل الطرف المقاوم إلى هذه المرحلة، يصبح أكثر عرضة للتراجع أو حتى الاستسلام، دون أن يدرك أنَّه وقع في فخَّ الإحباط النفسي الذي صُمِّم له بعناية .

ولمواجهة هذا النوع من الحروب النفسية، لا بدَّ من ترسيخ الثقة بالمشروع المقاوم، وتثبيت الوعي الجماعي بأنَّ التراجع تحت الضغط لا يُنقذ، بل يُضعف أكثر . التضامن الداخلي، والربط بين التضحيات والرؤية الاستراتيجية، هما الأساس في مواجهة هذا النمط من التآكل البطيء . كما يجب أن يكون الخطاب المقاوم واضحاً في التأكيد على أنَّ الاستمرار في التحدي هو السبيل الوحيد نحو النصر، وأنَّ الانسحاب لا يُنهى المعركة، بل يُعيد إنتاج الهزيمة بأشكال أخرى .

الاستراتيجية السادسة عشرة: صيد النمر بالحنان

حين يُستدرجُ العدوُّ إلى موقفٍ غير متوقَّعٍ عبر استمالته بالعاطفة واللُّطف. تعتمد هذه الاستراتيجية على استخدام الحنان باعتباره أداةً نفسيَّةً؛ حيث يُستبدل أسلوب المواجهة الصلبة بخطاب عاطفي هادئ. يُقدِّم الطرف المقابل جهةً منفتحة على التفاهم، تُظهر استعداداً للحلول السلمية، وتُخفي خلف هذا المظهر مشروعاً أكثر تعقيداً: تحييد الخصم، واستنزاف طاقاته النفسية، وتحويله من موقع المواجهة إلى موقع التفاوض. يُدار هذا المسار بهدف تفكيك القوَّة المعنوية من الداخل حتى تتآكل تدريجيًّا.

ترتكز هذه الاستراتيجية على مبدأ التأثير العاطفي في علم النفس الاجتماعي؛ إذ تُعدُّ المشاعر القويَّة، مثل الرحمة والتعاطف، من المحرِّكات الأساس للقرارات. وتُقارِب هذه الفكرة ما يُعرف بـ«نظرية التأثير الاجتماعي العاطفي» (Emotional Social Influence Theory) التي تدرس كيفية تأثير المشاعر في اتِّخاذ القرار ضمن المواقف المعقَّدة.

١ - نظرية التأثير العاطفي (Emotional Influence Theory)

تشير هذه النظرية إلى أنَّ العواطف تُوجِّه السلوك البشري بعمق.

وغالبًا ما تُستخدم المشاعر لإعادة تشكيل الرغبات والقرارات. في هذا السياق، لا يُخاطب العدو بالتهديد، بل يُستهدف وجدانه، ويُدفع إلى الشعور بالعجز الداخلي حتى وهو في موقع القوة. كلما فكّر الطرف المقاوم في التفاوض أو التراجع، يتسلّل إليه الإحساس بأنّ الاستمرار في المقاومة سيجلب مزيدًا من المعاناة.

٢- نظريّة التلاعب بالمفاهيم الاجتماعيّة (Social Concept Manipulation Theory)

من خلال هذه النظرية، يُعاد تشكيل صورة العدو في وعي الطرف المقابل. يُقدّم لوصفه جهة متفهّمة، حريصة على الحلول الإنسانية، في حين يُدار في الخفاء مشروعٌ لإرباك الخصم وإضعاف معنوياته. يُروّج للعدوّ باعتباره صاحب نوايا سلمية، وتُصوّر المقاومة باعتبارها قوّة متشدّدة أو غير عقلانية.

في غزّة، تُستخدم هذه الاستراتيجية عبر وسائل إعلام تُظهر الاحتلال طرفًا يسعى للهدنة، وتُركّز على المعاناة الإنسانية لتبرير وقف القتال. تُقدّم المبادرات الإنسانية غطاءً لاستمرار العدوان، وتُدفع المقاومة إلى التفاوض تحت ضغط خُلقي داخلي.

في لبنان، يُصوّر العدو بوصفه جهةً عقلانيةً تدعو للحلول، وتُقدّم

المحور الثاني - الاستراتيجية السادسة عشرة ٧١

المقاومة بوصفها طرفاً يرفض السلام. الرسالة النفسية هنا تهدف إلى إنهاك المقاومة معنوياً، ودفعها إلى التراجع تحت ضغط الصورة العامّة. في العراق واليمن، تُستخدم حملات إعلاميّة تُركّز على "الحوار" و"التفاهم"، مع تجاهل كامل لشرعيّة المقاومة. تُصوّر المقاومة وصفها جهة متطرّفة، ويُقدّم العدوُّ باعتباره من يسعى لإنهاء الصراع من أجل "الإنسانيّة".

يبدأ التأثير بتشيط عزيمة المقاوم من خلال إثارة مشاعر الذنب أو القلق بشأن استمرار المواجهة. التعاطف الزائف يُربك الخيارات، ويجعل قرار الاستمرار في القتال يبدو أنانياً أو غير إنساني. ومع الوقت، يشعر الطرف المقاوم بأنّه محاصر عاطفياً، وتبدأ إرادته بالتآكل. تُصوّر المقاومة باعتبارها سبباً في معاناة المدنيين، ويُدفع المجتمع إلى المطالبة بالتراجع أو التفاوض.

تتطلّب المواجهة وعياً عميقاً بمحاولات الاختراق النفسي. لا بدّ من التأكيد على أنّ المقاومة ليست انفعالاً ظرفياً بل مشروعاً استراتيجياً طويل الأمد. يجب أن تبقى الرسائل الداخلية واضحة؛ لا يسعى العدوُّ إلى سلام حقيقي بل يهدف إلى إنهاك المقاومة معنوياً.

تعزيز الوعي الجماعي داخل المجتمعات المقاومة ضروري للحفاظ على وحدة الموقف. كما أنّ إعادة بناء الخطاب المقاوم على

أسس الثبات والمرونة يُعدُّ شرطاً أساساً لمواجهة الضغوط العاطفية، وتفكيك صورة العدوّ "المتعاطف" التي تُستخدم باعتبارها أداة اختراق ناعمة.

الاستراتيجية السابعة عشرة: بئر العسل

حين يجري إغراء العدو بمكاسبٍ ظاهريةٍ تُخفي فخاً قاتلاً، تقوم هذه الاستراتيجية على إغراء الطرف المقابل بمكاسبٍ زائفةٍ، حيث تُقدّم له فرصٌ تبدو في ظاهرها مربحةً أو إيجابيةً، لكنها تُخفي في جوهرها فخاً مدمراً. لا يُستخدم الضغط العسكري المباشر، ولا تُعتمد المواجهة الصريحة، بل يُستدرج الخصم عبر عروض تُصوّر باعتبارها تسوياتٍ مثالية، فيما تُهيأ له بيئةٌ تؤدّي إلى تفكيك قدرته على الصمود. ترتكز هذه الآلية على مبدأ «المكاسب الزائفة» في علم النفس الاجتماعي؛ حيث يُغرى الطرف الآخر بعروض تُقدّم على أنها إنجازاتٍ أو فرصٍ استراتيجيةٍ، فيما الهدف الحقيقي هو إضعاف المقاومة وتفكيك مواقفها الموحّدة. تُصاغ هذه العروض بطريقة تُوهم الطرف المقابل بأنه يحقق تقدّماً، في حين يُدفع تدريجياً نحو فقدان التماسك الداخلي والقدرة على المواجهة طويلة الأمد.

في غزّة، على سبيل المثال، قد يُقدّم العدو وعوداً برفع جزئي للحصار أو تخفيف الحملة العسكرية مقابل تنازلاتٍ سياسيةٍ أو اتّفاقاتٍ تهدئة. في البداية، تُستقبل هذه العروض بوصفها فرصاً إيجابيةً، لكن في الواقع، يستغلّ العدو هذه المرحلة لتعزيز مواقفه العسكرية، فيما تتآكل

الجبهة المقاومة من الداخل. ما يبدو مكسباً مرحلياً يتحوّل إلى خسارة استراتيجية؛ إذ يُمنح العدو الوقت لإعادة التموّج، فيما تتراجع ثقة الداخل بجدوى الاستمرار.

في لبنان، تُطرح عروض سياسية ودبلوماسية تُظهر العدو طرفاً يسعى لتخفيف التوتر، فيما يُستخدم هذا الخطاب لتشتيت تركيز المقاومة. لا تُمارس الضغوط العسكرية بشكل دائم، بل يُكتفى بطرح أطر تفاوضية تُربك القرار المقاوم، وتُضعف وحدة الجبهة من خلال استنزافها سياسياً ونفسياً.

في العراق واليمن، ظهرت هذه الاستراتيجية من خلال وعود اقتصادية، تخفيف الحصار أو تقديم مساعدات إنسانية. تُقدّم هذه العروض بوصفها خطوات نحو السلام أو التعافي، لكنّها تُستخدم لتقويض المواقف المقاومة، وتحويل الانتباه عن العمليات العسكرية التي تستمر في تنفيذ أهدافها بهدوء.

يبدأ التأثير بإضعاف الإرادة؛ حيث يُدفع الطرف المقاوم إلى الانجرار خلف أمل وهمي بتحقيق مكاسب سريعة. التنازلات التي تُقدّم تحت ضغط هذه العروض تُحدث ارتباكاً داخلياً، وتُضعف الثقة بالقيادة، وتُهدّد لانقسامات داخل الجبهة. ومع الوقت، يتحوّل الأمل إلى تردّد، والتردد إلى تآكل في القرار، ما يجعل المقاومة أكثر عرضة

للانهيار المعنوي.

تكمُن المواجهة في التمسُّك بالمواقف المبدئية، ورفض الانجرار خلف تسويات مؤقتة تُخفي أهدافاً بعيدة. لا بدَّ من وعي جماعي يُدرك أنَّ العدوَّ لا يسعى إلى تسوية عادلة، بل إلى تفكيك المقاومة من الداخل. يجب أن تبقى القيادة والمجتمع المقاوم على وعي تامٍّ بأنَّ العروض المغرية لا تُقدِّم من موقع ضعف، بل تُستخدم بصفقتها أداة لإضعاف الإرادة وتفكيك الصفوف.

يجب أن يُعيد الخطاب المقاوم التأكيد على أنَّ الثبات لا يعني الجمود، بل يعني الوعي بالأخطار الكامنة خلف ما يبدو مكاسب. كلُّ تنازل غير محسوب يمهد لفقدان التوازن، وكلُّ تراجع تحت ضغط الوهم يُقوِّض المشروع من جذوره.

الاستراتيجية الثامنة عشرة: الحفرة في قلب السؤال

حين يُزرعُ الشكُّ في المفهوم لا في السلوك... ويتحوّل السؤال من أداة وعي إلى أداة تقويض.

تحدّد قيمة السؤال بنيته وسياقه، لا بمظهره أو نبرته. تُطرح بعض الأسئلة بهدف التبصير، وأخرى تُستخدم باعتبارها أدوات تفكيك ناعم. هذه القاعدة تُشكّل مدخلاً لفهم واحدة من أخطر أدوات الحرب النفسية المعاصرة: زعزعة المفاهيم الأساس من الداخل عبر ترويج أسئلة تُقدّم في هيئة نقد تنويري، لكنّها تُخفي مشروعاً مبركاً يُقوّض البنية الرمزية للمقاومة. تتجاوز الغاية تصحيح المسار، وتهدف إلى تفرغ المفهوم من محتواه، عبر فتح فجوة فكرية غير مرئية تبتلع الثقة ببطء.

تبدأ هذه الاستراتيجية بطرح أسئلة تبدو ذكيّة ومشروعة:

- ١- «ما معنى المقاومة أصلاً؟»
- ٢- «وهل المشروع التحرري ما زال ممكناً؟»
- ٣- «ألسنا بحاجة إلى إعادة تعريف مفاهيم كالجهاد والصراع؟»
- ٤- «هل يبرّر الظلم مقاومةً لا نتائج لها؟»
- ٥- «متى تنتقل من العنف إلى السياسة؟»

المحور الثاني - الاستراتيجية الثامنة عشرة ٧٧

٦- «هل ما زالت الكرامة مفيدة في زمن الاقتصاد؟»

لا تنشأ هذه الأسئلة في بيئة حوار نقدي ناضج بل تظهر في لحظات الإحباط الجمعي، أو بعد نكسة جزئية، أو في ظل ضغط نفسي متراكم. فتُطرح باعتبارها ضباباً رمادياً يتسلل إلى الوعي الجمعي، ويخاطب الإعياء ويُربك الالتزام، ويستهدف المفهوم قبل السلوك. فالسؤال لا يدعو إلى تعديل الفعل بل يُشكك في شرعيته من الأساس.

في علم النفس السياسي، يُعرّف هذا النمط بـ«الانزياح عن الإطار»، أي نقل السؤال من دائرة المشروعية إلى دائرة الجدوى، ومن دائرة الفعل إلى دائرة المعنى. وبهذا، يُفرغ الفعل من دلالاته، لا بفشله بل بتقويض المفهوم الذي يمنحه شرعيته. ومن هنا، جاءت تسمية هذه الاستراتيجية: الحفرة في قلب السؤال؛ لأنّ التفكير الظاهري يتحوّل إلى انزلاق رمزي نحو فراغ مفهومي لا يستند إلى أرض صلبة.

وقد جرى حفر هذه الحفرة مراراً في النقاشات الإعلامية التي أعقبت كلّ مواجهة بين المقاومة والاحتلال. وبعد كل حرب، تظهر وجوه متداكية تطرح أسئلة من قبيل:

١- «هل انتصرنا فعلاً؟»

٢- «هل دم الشهداء أتى بنتيجة؟»

٣- «هل تُقاس الكرامة بالموت؟»

هذه الأسئلة لا تُطرح بهدف الفهم أو التقويم بل لتغذية مناخ داخلي مشكّك، يحوّل الهزيمة من حدث خارجي إلى شعور دائم، حتى في لحظات الانتصار.

في العراق، بعد الانسحاب الأميركي عام ٢٠١١، سُئل كثيرون: «هل كان الأمر يستحقُّ كلَّ هذا الدم؟»

وفي لبنان، بعد تموز ٢٠٠٦، تكرر السؤال: «هل كانت الحرب ضروريّة؟»

وفي غزّة، بعد كلِّ صمود، تُعاد الأسطوانة: «أين النصر؟ وما الذي تغيّر؟»

هذه الأسئلة لا تتبع من رغبة في المحاسبة، بل من محاولة لفصل الكلفة عن القيمة، والتضحية عن المعنى.

تستبطن هذه الاستراتيجية فرضيّة خفيّة؛ أنّ مشروعيّة المقاومة مشروطة بالنتائج، وأنّ النصر يُقاس بمقاييس الإعلام الغربي، لا بميزان الوعي والكرامة. وبهذا، يُعاد تعريف النصر وفق منطق التنازلات، وتُجرّ الجماهير إلى منطقة اللاّ قرار؛ حيث المعنى يتآكل، والفعل يُختزل، والقضيّة تتحوّل إلى مادة قابلة لإعادة التفاوض.

في هذا النمط من الحرب النفسية لا يحتاج العدو إلى التقدّم ميدانيّاً، يكفيهِ أن يتراجع وعي الخصم خطوات إلى الوراء. إنّها حفرة ناعمة،

وغير مرئية، وتُفتح في أذهان النخب أولاً، ثم تتسرّب إلى الجمهور عبر الإعلام، والنكات، والحوارات، وثيمات ساخرة. وتُقدّم هذه الانزلاقات تحت عناوين التنوير، والتساؤل، وحرية التفكير.

أما المواجهة، فتبدأ بإعادة تثبيت المفاهيم في أصلها، لا في نتائجها. لا يُختزل الصراع في صفقة، إنّما يُفهم بصفته قضية. والكرامة لا تُقاس بالمكاسب، بل تُستمدّ من الثبات. والسؤال الذي لا يصدر عن جوهر ملتزم يُستخدم أداة تقويض مموّهة، ولا يُنتج وعياً.

فالسؤال الذي يُطرح من خارج الالتزام لا يفتح أفقاً، إنّما يحفر حفرة. والمعنى لا يسقط من الخارج، لكنّه يتآكل حين يُفرّغ من الداخل.

الاستراتيجية التاسعة عشرة: تسريب الشك

حين يُزرعُ الشكُّ في المفهوم لا في السلوك... ويتحوّل السؤالُ من أداة وعي إلى أداة تقويضٍ.

لا يُعدُّ الشكُّ تهديدًا في ذاته. ففي كثير من السياقات، يُمثّل جزءًا من الوعي النقدي ومن الحيويّة الفكرية في أيّ مشروع حيّ. لكنّ الشكَّ حين يُزرع عمداً وببطء في البنية الداخلية للثقة داخل الحركات المقاومة، يتحوّل إلى فيروس نفسي يعمل بصمت. لا يحدث ضجيجًا، لكنّه يُقوّض الإيمان من الداخل، من خلال زعزعة الثقة بمن يحمل الفكرة، دون الحاجة إلى نقض الفكرة نفسها.

تعتمد هذه الاستراتيجية على تفكيك الثقة من الداخل؛ حيث لا يُركّز العدوُّ على إثبات صحّة موقفه بل يُوجّه جهوده نحو زرع الارتياب في نوايا من يُفترض أنّهم موضع ثقة. يكفي أن يُثار الشكُّ في صدق الخطاب، أو في نزاهة القيادة، أو في دوافع التوجيه. ما يُستهدف هنا هو السند النفسي الذي يمنح الفكرة قابليّتها للتصديق والتبني.

في علم النفس الجماعي، يُعرّف هذا الأسلوب باسم «زرع التشكيك القيمي» (Value Undermining)، ويُستخدم بكفاءة في الحروب النفسية المعاصرة. لا يُطلب من الجمهور تغيير موقفه، بل يُدفع إلى

المحور الثاني - الاستراتيجية التاسعة عشرة ٨١

التردد في الدفاع عنه، وإلى التراجع في الحماسة، وإلى الفتور في الالتزام. ومن هنا، يبدأ الانهيار النفسي البطيء الذي لا تُدرك خطورته إلا حين يفقد المجتمع مناعته الخُلقيّة.

وقد استُخدمت هذه التقنيّة بكثافة خلال الحرب الناعمة على جمهور المقاومة؛ حيث نُشرت تقارير إعلاميّة تتحدّث عن الفساد داخل صفوفها، وعن ثروات مشبوهة، وعن صفقات سرّيّة، وعن خلافات داخلية. هذه التقارير لا تُقدّم دائماً بصيغة هجوميّة بل تُغلّف أحياناً بلغة "الحرص" و"الموضوعيّة" و"الشفافيّة". ينصبُّ التركيز على زعزعة الثقة بين المقاومة وجمهورها دون الدخول في مواجهة مباشرة معها. فالمطلوب أن تتحوّل الأسئلة من العدو إلى الذات، وأن يصبح التشكيك في الداخل هو اللغة السائدة.

في فلسطين، سرّبت وثنائق تزعم وجود خلافات بين قيادات المقاومة، وتُبرز تفاوتاً في الخطاب أو تناقضاً في الأولويّات. وغالباً ما تُقدّم هذه الوثائق في لحظات حرجة: فُبيل تصعيد، أو أثناء مفاوضات، أو بعد إنجاز ميداني. الرسالة المضمّنة تقول: لا تثقوا كثيراً، من تقاتلون من أجلهم لا يتفقون في ما بينهم.

وفي لبنان، استخدمت بعض الجهات الإعلاميّة هذه الاستراتيجية بأسلوب ناعم: تسريبات، وصور، ونقاشات مأخوذة من داخل بيئة

المقاومة، تُنتزع من سياقها وتُقدّم بوصفها علامات اضطراب داخلي. وبدلاً من أن تُطرح الاتهامات بشكل مباشر، تُصاغ بلغة توحى بالقلق الداخلي: "الناس بدأت تتساءل"، أو "الشفافية غائبة"، أو "الثقة لم تعد كما كانت". هذه اللغة المموّهة تُعدُّ جوهر هذه الاستراتيجية؛ لأنّها تتكلّم بلسان القريب، وتُخاطب الداخل من موقع الحذر الظاهري.

والأخطر أنّ هذه البذور حين تُزرع، لا تُحدث أثراً فورياً، لكنّها تبقى كامنة في الوعي، وتتكرّر، وتُعاد، وتُغذّى، حتى تتحوّل إلى صوت داخلي في جمهور المقاومة ذاته. صوت يتساءل، ويتحقّق، ويتريث، ويراقب بدل أن يتحرّك. وعند هذه النقطة، لا تعود المعركة بين جبهة العدو وجبهة المقاومة، وإنما تصبح بين الشكّ واليقين داخل الجبهة نفسها.

لا تتحقّق مواجهة هذه الاستراتيجية بالصراخ أو النفي، وإنما ببناء الثقة العضوية. ولا تُصنع الثقة بالشعارات بل بالتواصل الحقيقي، وبالشفافية الفعلية، وبالعلاقة الواضحة بين القيادة والقاعدة. تُكتسب المصدقيّة من خلال الفعل المتكرّر الذي لا يناقض ذاته. وإذا كان العدو يزرع الشكّ، فإنّ الردّ لا يكون بالإنكار، إنّما بزرع الصدق الفعّال.

الاستراتيجية العشرون: تجزئة المعاناة الجماعية إلى آلام فردية

حين تُفَرِّغُ الكارثة من بعدها الجمعي وتُخْتزِلُ في قصص شخصية متناثرة

في زمن الحرب، تُنتج المعاناة الجماعية طاقةً نفسيّةً وسياسيّةً هائلة. حين يشعر الناس أنهم يتألّمون معاً، يتكوّن وعي مشترك، وتشكّل قابليّة جماعيّة للتكافل، والتضحيّة، والمواجهة. هذا الوعي لا ينبع من الألم وحده بل من إدراك أنّ الجرح مشترك، وأنّ المصير لا يُفهم إلاّ من خلال الجماعة. ولهذا، يعمل العدو على تفكيك هذه المعاناة إلى وحدات فردية معزولة، تُقدّم في هيئة إنسانيّة، لكنّها تُفَرِّغ من أيّ أثر سياسي.

تبدأ هذه الاستراتيجية من مدخل عاطفي. تُسلّط الأضواء على أمّ ثكلى، أو طفل جائع، أو بيت مدمر، لكن دون أيّ إحالة إلى السياق النضالي أو البنية الاستعماريّة التي أنتجت هذه المعاناة. تُروى القصّة بصفاتها حدتاً إنسانياً، لا جزءاً من مشروع قمعي. فيستثار الحزن، ويُهمّش الغضب، وتُستدرّ الدموع، ويُعيّب الفعل. وبهذا، تتحوّل الجريمة إلى مأساة مجرّدة، وتستهلك وجدانياً دون أن تُترجم إلى موقف.

في هذا النمط، تهيمن الرواية العاطفية على المشهد الإعلامي. تُعرض صور طفل فقد عائلته، أو عجوز فقدت مأواها، أو شاب فقد ساقه، لكن هذه الحالات تُقدّم باعتبارها قصصاً شعورية منفصلة، لا أعراض سياسة ممنهجة. فيُمحى الفاعل من السرد، ولا يُذكر الاحتلال، ولا يُسمّى الاستعمار. ما يظهر هو الإنسان المتألم، لا النظام الذي ولّد الألم.

وقد استُخدمت هذه الآلية بكثافة في الحروب على غزة؛ حيث امتلأت الشاشات بصور الأطفال المصابين دون الإشارة إلى الجهة التي قصفتهم. وفي لبنان، غُطيت آثار العدوان بلقطات من الحياة اليومية، وتُقدّم بوصفها أحزان عابرة. وفي العراق واليمن، اختزلت المأساة في مشاهد المجاعة والتشرّد، دون أيّ تحليل للحصار أو العدوان الخارجي.

يصف علماء الإعلام هذه الظاهرة بـ«تفكيك الوجدان الجماعي عبر التفريد العاطفي» (Emotional Atomization of Collective Trauma). هذا النمط من السرد يُنتج تعاطفاً مشلولاً. يتفاعل الناس مع القصص، لكنهم لا يتحرّكون. يشعرون بالألم دون أن يتكوّن لديهم وعي بالعدو أو إحساس بالانتماء. الحزن يُصدّق، والسبب يُنسى. والنتيجة أنّ المقاومة تفقد قدرتها على التعبئة النفسية. لم تُصغ

المعاناة باعتبارها وعياً جمعياً بل أماً فردياً. يتحوّل الجمهور إلى متلقٍ سلبي غير فاعل. تُقنعه الشاشة أنّ دوره ينتهي عند التأثر، وأنّ أقصى ما يمكن فعله هو البكاء.

تبدأ مواجهة هذه الاستراتيجية من إعادة وصل الألم بسياقه. كلُّ دمة يجب أن تُربط بالفاعل، وكلُّ قصةٍ شخصيّة يجب أن تُفهم ضمن البنية السياسية التي أنتجتها. والمطلوب ليس استدرار العاطفة بل استعادة المعنى، وأن يُقال للناس: لسنا شتات حكايات بل أبناء جرح واحد. لا تكتمل الصورة حين تُعرض مجزأة بل حين تُفهم بوصفها كفاحاً مشتركاً، لا ملفّ مأسٍ فردية.

الاستراتيجية الحادية والعشرون: أرض المعركة غير المرئية

حين يُستنزفُ العدوُّ دون أن يدركَ

لا تقتصر الحروبُ على الخنادق، ولا تُقاس المعارك بما تتركه من دخان في الهواء. ثمة ساحة مختلفة تُدار فيها المواجهة في مساحات لا ترصدها أجهزة الاستشعار العسكرية ولا التحليلات الأمنية. هذه هي أرض المعركة غير المرئية؛ حيث تُعاد صياغة المعاني، وتُبنى السياقات، ويُعاد تشكيل الإدراك.

في هذا النمط من الصراع، لا يُطلب من الخصم أن يرى المعركة حتى يخوضها. يُدفع إلى ساحة لا يدرك وجودها، ويُستنزف دون أن يسمع طلقة واحدة. لا يواجه جنوداً، ولا يرى جبهات، لكنّه يتراجع. النزيف يحدث من الداخل، دون إعلان.

ينتمي هذا النوع من الاستراتيجيات إلى ما يُعرف بـ«الجيل الخامس من الحروب» (5GW)؛ حيث تُستخدم الخطابات، والتقنيات الثقافية، والمنظومات الرمزية باعتبارها أدوات رئيسة. لا يُواجه الخصم مباشرة بل يُعاد توجيهه وعيه، ويُدفع إلى إعادة تعريف ذاته، وهويته، ومفاهيمه، ومشاعره.

في هذه الأرض الرمزيّة، تُستدرج المقاومة إلى خطاب ناعم يُطالبها بتبرير مشروعها بلغة مستوردة، ويُطلب منها إثبات شرعيّتها ضمن معايير لا تنتمي إليها. حين تستجيب، تنتقل المعركة إلى ساحة لا تملك أدواتها، ويُعاد تشكيل موقعها ضمن شروط الخصم. يجري هذا النقل عبر أدوات ناعمة، منها:

١. الإعلام الموجّه الذي يُصوّر المقاومة طرفاً يسعى إلى "كسب الاعتراف" أو "إثبات النضج السياسي".
٢. المنظّمات الدولية التي تُعيد صياغة المفاهيم النضاليّة ضمن قوالبٍ حقوقية مصمّمة على مقياس ثقافي خارجي.
٣. الترفيه الشعبي الذي يُعيد تعريف البطولة ضمن رموز منفصلة عن مفاهيم التضحية والجهاد والصبر.
٤. والمصطلحات المعرفية التي تُفرض تدريجيّاً لتبديل المحتوى دون ضجيج.

تبدأ المعركة من اللغة. تُستبدل المفاهيم الأصلية بمصطلحات محايدة ظاهريّاً، لكنّها مشروطة دلالياً. يُقال "الأطراف المتنازعة" بدل "الاحتلال والمقاومة"، و"تبادل الأسرى" بدل "تحرير الأسرى"، و"تغيير السلوك" بدل "مواجهة وجوديّة". هذه التحوّلات تُعيد توجيه زاوية النظر، وتُربك البوصلة.

في هذا النوع من الحرب النفسية، تُستنزف الطاقة الداخلية للمشروع من خلال إعادة توصيفه. حين يُجبر القائد المقاوم على الحديث بلغة الخصم، مستخدماً مفرداته وتقويماته، يفقد السيطرة على خطابه. كلُّ كلمة تُستخدم ضدّه، وكلُّ استجابة تُسجّل بصفحتها تنازلاً رمزياً.

وقد تجلّت هذه الحرب في التجارب الإسلاميّة والعربيّة الحديثة. طُلب من الحركات التحرّرية أن "تدين العنف"، وأن "تفهم الآخر"، وأن "تتكيّف مع الواقعيّة السياسيّة". في المقابل، لم يُطلب من المحتلّ أن يُراجع أُسسَه البنيويّة. هذه المطالب لا تنتمي إلى منطق الحياد بل تُستخدم باعتبارها أدوات سحب ناعم إلى ميدان غير متكافئ.

تكمّن الخطورة في هذه الاستراتيجيّة في قدرتها على الإقناع؛ حيث تُدفع المقاومة إلى الاعتقاد بأنّها مطالبة بالتكيّف. ومن هنا تبدأ عملية التآكل، ويُعاد تعريف الكرامة، ويُعاد تأطير فعل الشهادة، ويُطلب من الخطاب المقاوم أن يُخفّف من نبرته ليُصبح مقبولاً في السوق الإعلامي والثقافي العالمي.

وفي بعض السياقات، يُدفع المشروع المقاوم إلى الاندماج في "الديمقراطية"، أو "الحوار الوطني"، أو "إعادة الإعمار"، دون أن تُحدّد شروط المعركة الأصليّة. عند هذه النقطة، تُنتزع منه القدرة على المبادرة، ويتحوّل إلى كيان تفاعلي داخل ميدان لم يصمّمه.

من جهة الخصم، يتحقّق النجاح حين تُعدّل المقاومة مسارها لتُصبح مفهومةً ضمن قاموسه. يتراجع القتال حين يبدأ التنازل من الداخل. وقد نجحت بعض المؤسّسات الغربية في تحييد جماعات ثوريّة من خلال دفعها إلى تبنيّ "لغة السوق"، أو "الهويّة المدنيّة"، أو "حقوق الإنسان" بصيغتها النيوليبرالية. لم تُحسم المعركة بالسلاح بل أُعيد تشكيلها من الداخل.

تتطلّب مواجهة هذه الاستراتيجية وعياً عميقاً بميدانها الحقيقي. فلا يكفي تحديد الأهداف، والحفاظ على الأرض الرمزية والمعنوية شرط أساس، الخروج من هذه الأرض لا يُنتج شرعيةً بل يُفقد المعنى. الحفاظ على ساحة المعركة الأصلية يعني أن تبقى المواجهة مع الاحتلال مواجهة تحرر، ويجب أن تبقى مفاهيم الشهادة والجهاد والتضحية حيّة بلغتها الأصلية؛ حيث إنّ استخدام قاموس الخصم يُعيد تعريف المعركة، ويُفرغها من مضمونها.

المحور الثالث:

استراتيجيات الفوضى وتحويل السياق

الاستراتيجية الثانية والعشرون: الغبار الذهني

حين يُكَدَّسُ الوعيُ بمعلومات لا تَلَزِمُهُ... فيعجزُ عن رؤية ما يلزُمُهُ في الحروب النفسِيَّةِ الحديثةِ، لا يعتمدُ العدوُّ دائماً على الكذب المباشر. أحياناً، تُستخدمُ الحقيقةُ نفسها بوصفها سلاحاً حين تُقدِّمُ مجرَّاةً، ومشوشةً، ومتراكبةً، ومتزامنة بلا منطوق. الهدف من هذا الأسلوب هو تشويش الإدراك الجماعي عبر الإغراق المعرفي. هذا هو جوهر استراتيجية «الغبار الذهني»: تكديس العقل الجمعي بسيل من المعطيات، والأخبار، والإشعارات، والتحليلات، والصور، والمقارنات، والقراءات المتعارضة، حتى يفقدَ الناسُ القدرةَ على بناء المعنى وسط الضجيج.

هذه الاستراتيجية لا تهدف إلى محو الوعي بل إلى إغراقه حتى يفقدَ توازنه. تُستخدمُ أدوات الإعلام، والمحتوى البصري، والتفاعل اللحظي على وسائل التواصل، لضخِّ كمِّيَّات هائلة من «البيانات» التي تُحدث ما يسمِّيهِ علماء النفس الإدراكي «تأثير الضباب المعرفي» (Cognitive Fog). في هذه الحالة، يشعر الإنسان أنه يعرف كثيراً، لكنّه يعجز عن اتِّخاذ موقف؛ لأنَّ الصورة الكلية غائبة.

تتجلَّى هذه الآليَّة بوضوح في تغطيات القنوات الغربيَّة لأيِّ عدوان

على غزاة أو جنوب لبنان. تُعرض صور متفرقة من الضحايا المدنيين، ثم تُقابل بصور من الصواريخ المنطلقة، يليها تحليل من ضابط استخبارات، ثم بكاء أمٍ إسرائيلية، ثم خريطة متحركة، ثم هاشتاغ عن وقف الحرب، ثم تذكير بالهولوكوست، ثم صراع داخل الكنيسة، ثم تغريدة من فنّان عالمي. كلُّ ذلك يُعرض في نشرة واحدة. والنتيجة أنّ المشاهد يتأثر، لكنّه لا يتحرك، فيتلاشى المعنى وسط الغبار.

لا يقتصر هذا الغبار على تغطية الحدث بل يمتدُّ إلى حجب السياق. والوعي لا يتشكّل من الوقائع وحدها، بل من السياقات التي تمنحها معناها. حين يُسلب السياق، يُفقد المعنى. يُقدّم الاحتلال باعتباره أزمةً، وتُختزل المقاومة في ردِّ فعل، ويُصوّر الدمار أنّه نتيجة متبادلة. بهذه الطريقة، يتسلّل التفكيك الناعم إلى المفاهيم دون صدام مباشر. لا يصدر الغبار الذهني فقط عن الإعلام المعادي. أحياناً، يصنعه الأصدقاء دون قصد من خلال المبالغة في التحليلات المتعارضة، والقراءات المتشظية، والبتّ المستمرّ لكلِّ ما يُقال ويُعاد. والنتيجة أنّ كلّ شيء يبدو ممكناً، ومحتملاً، ورمادياً. يفقد الناس البوصلة، ليس بسبب نقص المعلومات، بل بسبب فائض غير منظمّ منها.

في علم النفس، يُعرف هذا النمط بـ"الإشباع السلبي للمعلومة"، حين تتراكم المدخلات في الوعي دون معالجة كافية، فينهار النظام

الإدراكي كما ينهار الحاسوب عند تحميل ملفات متضاربة في وقت واحد. أمّا في علم الاجتماع الإعلامي، فيُسمّى هذا الوضع بـ"الهيمنة عبر اللاّ قرار"، وهي الحالة التي يُترك فيها الجمهور في شلل إدراكي، فلا يثق بشيء، ولا يلتزم بشيء، ولا يدافع عن شيء.

وقد استُخدمت هذه الأداة بكثافة خلال ما سُمّي بـ"الربيع العربي"؛ حيث جرى إغراق الجمهور العربي بمزيج من الشعارات، والتغطيات، والآراء المتضادة، حتى اختلطت الثورة بالمؤامرة، والشهيد بالمخزّب، والفقيه بالعميل. والنتيجة أنّ الناس وقعوا في دوامة التشكيك بكلّ شيء، وفقدت القضايا الكبرى قدرتها على التثبيت في الوعي.

مواجهة هذه الاستراتيجية لا تتحقّق بالانسحاب من المشهد، ولا بالصراخ داخل الغبار. المطلوب هو إعادة ترتيب المعنى. وذلك يتطلّب تصنيف المعلومات، وتبسيط التحليل، وتثبيت الأولويات، وتوضيح السياق العام الذي يمنح الحدث قيمته. لا يحتاج الوعي إلى كثافة الصور بل إلى عدسة واضحة.

الغبار الذهني هو معركة ضدّ التركيز، وضدّ المعنى، وضدّ الذاكرة. وكلّ من يساعد الناس على تثبيت المفاهيم، لا على بثّ الوقائع فقط، يشارك في المقاومة ضدّ هذه العاصفة الرماديّة. لا تنتصر الحرب النفسية عبر محو الحقيقة بل عبر إغراقها حتى لا تُرى.

الاستراتيجية الثالثة والعشرون: حين تشتعل المياه

حين يُستخدمُ السلامُ بوصفه أداةً لتفجيرِ الدَّاخلِ، ويُستغلُّ الهدوءُ لتخريبِ البنية

في الخيال الجمعي، تُقابل الحرب بالنار، ويُقابل السلم بالماء. تُتهم النار خطراً ظاهراً، والماء طمأنينةً. لكنَّ الحرب النفسِيَّة الحديثة أعادت ترتيب هذا التصنيف. في بعض السياقات، تُطلق النار إنذاراً، ويُستخدم الماء لتخدير الحسِّ. من هنا، تنشأ إحدى أدوات التفكيك الناعم: توظيف فكرة «الهدوء» بوصفه غطاءً لزرع التآكل الداخلي، أو ما يمكن تسميته بـ«الاشتعال الصامت».

تشير هذه الاستراتيجية إلى اللحظات التي تبدو فيها الجبهة ساكنةً، والواقع مستقرًا، والخطاب السياسي متزنًا، بينما تجري في العمق عمليات تخريب ثقافي، وتشكيك فكري، وتفكيك قيمي، وتصفية هادئة لأركان الهوية الجماعية. لا صفارات إنذار، ولا صواريخ، ولا مواجهات. ما يظهر في السطح هو اتفاقيات، ومنتديات، وأغانٍ، وابتسامات دبلوماسية. أمَّا ما يتآكل فهو البنية.

في مراحل ما بعد الحرب، تُطلق المنظومة المعادية خطابًا ناعمًا:

١- «نحن في مرحلة السلام، دعونا ننسى الماضي»

٢- «العالم تغير... فلنواكب العصر»

٣- «الحوار هو الحل»

٤- «لا نريد أن نورث أبناءنا الكراهية»

٥- «لنفتح صفحة جديدة»

الوظيفة الأساس لهذه العبارات هي إعادة تشكيل الوعي، لا تقديم الحلول. تُسحب المقاومة من العقل، وتُطفأ جذوة الرفض، ويُعاد تأطير الفعل المقاوم باعتباره ذنباً يجب التكفير عنه. يُقدّم الخطاب المعروف في هيئة سلام، لكنّه يُخفي استسلاماً تدريجياً.

في فلسطين، تجلّت هذه الاستراتيجية بعد اتّفاق أوسلو، حين فُتح الباب للمؤتمرات، والتمويلات، والتنسيقات، والمنصّات الحقوقية. في الوقت نفسه، كانت الأرض تُبتلع، والمستوطنات تُبنى، والهويّة تُعاد صياغتها على مقياس «شعب مسالم بلا طموح تحرّري».

وفي العراق، بعد الغزو الأميركي، ظهر خطاب جديد يقول: «المقاومة تُعرقل بناء الدولة». وقُدّم الاحتلال بوصفه شريكاً دولياً، والمليشيات المدافعة وُصفت بأنّها خطر أمني، والشهادة أُعيد تأطيرها باعتبارها تهوُّراً. في هذا السياق، لا تُطلَق صفّارات، ولا يُحرّك الغضب، ولا يُستنهض الوعي. يشعر الناس بأنهم يعيشون حالة طبيعية، فيما يجري تطبيع التفكُّك باعتباره واقعاً جديداً.

يصنّف علم النفس الاجتماعي هذه الحالة بـ«التكيّف التخديري» (Numbing Adaptation)؛ حيث يُعاد تشكيل الاستجابة النفسيّة للحدث، لا عن طريق الصدمة بل عبر الاعتياد. كلّما طالت فترات «اللاّ حدث»، أُعيد ضبط وعي الجماهير ليقبل الانحدار بوصفه واقعاً هادئاً. ويُقاس السلام بغياب الانفجارات دون اشتراط وجود السيادة. حين يُعتمد هذا النوع من الحرب الناعمة، يبدأ الناس بالتخلّي عن أحلامهم الكبرى مقابل استقرار نسبي. وعندما يُربط هذا الاستقرار بالعدوّ من خلال اتفاقيّات، وزيارات، وتعاون أمني، أو منصّات إعلاميّة مشتركة، يتحوّل العدوّ إلى شريك لا يُراد إغضابه. في هذه اللحظة، تُشتري الجماهير بقليل من الراحة النفسيّة المؤقّطة. مواجهة هذه الاستراتيجيّة تتطلّب تفكيك وهم الاستقرار. ليس المطلوب إثارة الذعر بل تذكير الناس بما خسرنه مقابل هذا السلام: الأرض، والقرار، والهويّة، واللغة، والكرامة، والقدرة على الغضب. حين يُدفع ثمن وجودي مقابل الهدوء، لا يمكن اعتبار هذا الهدوء مكسباً. ما يحدث في هذه الحالة هو هدنة مع التآكل. تُستخدم المياه أحياناً لإطفاء الإرادة. والخطر لا يكمن في الحوار ذاته بل في التخدير الذي يُرافقه حين يُستخدم غطاءً للقبول. حين تُنسى هويّة العدو، وتُعاد صياغة العلاقة معه بلغة المجاملة، تنتقل المعركة من الأرض إلى الذاكرة. وهنا تبدأ الهزيمة الحقيقية... بصمت.

الاستراتيجية الرابعة والعشرون: ابتسامة الصدمة

حين تلبسُ المأساةُ قناعاً هادئاً... وتُفرغُ من صدمتها
التَّغْيِيرِيَّة.

من قواعد الحرب النفسيَّة الحديثة أن تُمنع الصدمة من أداء وظيفتها الطبيعيَّة. حين تقع مجزرة أو جريمة أو انتهاك جللٌ، لا يُسمح للغضب الشعبي أن يتمدَّد. تُسارع المنظومة الإعلامِيَّة - السياسيَّة إلى تطير الحدث ضمن سرديَّة تهدئة، أو تطبيع، أو تفسير عقلائي. الهدف هو منع الصدمة من التحوُّل إلى شرارة.

هذه الاستراتيجية لا تُنكر الحدث، بل تُعيد تقديمه بابتسامة محسوبة. تُقابله بتعاطف منضبط، وبيانات مدروسة، وتحليلات «متفهِّمة»، وابتسامات حزينة. وحين تكون الصدمة داميةً، يُعاد تقديمها في قالب «واقعي»:

١- « هذه ضريبة المرحلة »

٢- « ما جرى خطأً فردي، لا يعني المؤسَّسة »

٣- « لا نريد استغلال الدماء سياسياً »

٤- « علينا أن ننتظر نتائج التحقيق »

٥- « المشاعر لا تحلُّ الأزمات »

بهذه الطريقة، تتحوّل الصدمة من جرس إنذار إلى مادة تكيّف. ومن مفجّر للغضب إلى نقطة تأمل ناعمة.

في علم النفس، يُسمّى هذا النمط «تبريد المشاعر» (Emotional Cooling)، أي التدخل المبكر لترويض الوجدان قبل أن يُنتج فعلاً. يُقصد به تقليص المدى الزمني والوجداني لردّ الفعل الشعبي، وتسويق المأساة بصيغة يمكن للذهن تقبّلها دون أن تدفع الجسد إلى الميدان. رأينا هذا النمط يتكرّر في غزّة، حين عرضت بعض القنوات صور الأطفال الشهداء مرفقة بموسيقى حزينة وصوت مذيعة خافت. ورأيناه في لبنان، حين سُوق لانفجار مرفأ بيروت بوصفه «كارثة وطنية يجب أن نتجاوزها»، بدلاً من اعتباره جريمة استعماريّة. وفي العراق؛ حيث انتزعت الصدمة من فاجعة سبايكر، وصيغت بلغة تسويويّة، تقول: «لا نريد أن نُعيد الانقسام الطائفي».

كلّما حدثت صدمة كبرى، تبدأ سلسلة إجراءات خطائيّة تهدف إلى تفرّغها من وظيفتها، لا إلى مداواتها:

١. تصدرُ الشخصيّات الرماديّة المشهد.
٢. خفض نبرة الغضب إعلامياً.
٣. استباق الحزن الجماعي بخطابات «الهدوء والحكمة»
٤. تكرار عبارة «فلنقف دقيقة صمتاً»

المحور الثالث - الاستراتيجية الرابعة والعشرون ١٠١

٥. ضخُّ محتوى فنيٍّ وعاطفي لتهدئة الجوّ العام.

في العمق، ما يجري هو فصل تامُّ بين الوجدان والفعل، وبين الألم وردُّ الفعل، وبين الدم والغضب. إنَّها إعادة صياغة وجدانية للحدث، تُحوِّله إلى مادة قابلة للتأقلم.

الخطورة هنا؛ أنَّ الصدمة تفقد بعدها التحويلي. حين تكون الصدمة صدمةً، تُولِّد وعياً جديداً، وتفتح جرحاً في العقل لا يُغلق بسهولة، وتُربك السردية الرسمية، وتُخرج الناس من قوقعتهم. أما حين تُقابل بابتسامةٍ تعاطفٍ أو تحليل بارد، فإنَّها تُمحي دون أن تترك أثراً بنوياً.

مواجهة هذه الاستراتيجية تتطلَّب حماية الصدمة من التسويق. المطلوب هو تهيئة الوعي لاحتضانها لا تعقيمها من خطر التغيير. يجب أن تُترك مساحة للغضب، وللغليان، وللانفعال، وللجنون المؤقت الذي يسبق الفعل الكبير. بعض الصدمات لا تحتاج إلى تهدئة، بل إلى تفجير.

حين يُغسل الدم بالتحليل الهادئ، وتُرافقه موسيقى حزينة بدل صيحة غضب، ويُقال للناس: "لا تبالغوا"، نكون قد دخلنا مرحلة خطيرة، مرحلة يعمُّ فيها الحزنُ على الشهداء دون التفكير في منع سقوط شهداء جدد.

الاستراتيجية الخامسة والعشرون: نارُ الغيابِ

حين يُشعلُ غيَابُ العدوِّ الحقيقةَ ويُعيدُ تشكيلَ الذَّاكرةِ لا تُرى النارُ دائماً، والحربُ لا تُعلنُ في كلِّ مرَّة. في الحروبِ النفسِيَّةِ، يتحوَّلُ الغيابُ- غيابِ الشخصِ، وغيابِ الفكرةِ، وغيابِ الصوتِ، وغيابِ التغطيةِ، وغيابِ الموقفِ- إلى أداةِ هجومِيَّة. ما يُحذفُ لا يختفي بل يُستبدلُ: يحلُّ الصمتُ محلَّ الصرخةِ، ويُزيحُ النسيانَ الذَّاكرةَ، ويُقدِّمُ الحيادَ بديلاً عن الانحيازِ للحقِّ. بهذه الطريقةِ تتشكَّلُ استراتيجيةُ «نارِ الغيابِ»؛ حيث لا يُقالُ إنَّكَ مخطئٌ، ويُتركُ الفراغُ ليؤدِّي المهمَّةَ.

العدوُّ في هذا النمطِ يتجنَّبُ المواجهةَ، ويعتمدُ على محوِ الذِّكرِ دونِ صدامِ. لا يواجهه الرمزُ بل يُسقطه من الخريطةِ. يتعاملُ مع الشهيدِ بالتجاهلِ الكاملِ دونَ أن يمرَّ حتى عبر السخريةِ. ويُقصي الحكايةِ من التداولِ لا عبر المنعِ، بل عبر تفرغها من شروطِ السردِ. في الإعلامِ الغربيِ، يُذكرُ الكلبُ الذي ارتعب في سديروت، ويُسى الشهيدُ الفلسطيني الذي قضى تحت الأنقاضِ. في المناهجِ التعليمِيَّةِ، تُحذفُ المجازرُ تحت عنوانِ «عدمِ إثارةِ الحساسِيَّاتِ»، ويُعادُ تعريفُ الاستعمارِ بمجردَ «مرحلةِ إدارية».

المحور الثالث - الاستراتيجية الخامسة والعشرون ١٠٣

في الفن والثقافة، تُهمَّش رموز المقاومة، وتُستبدل بمسلسلات عن العشاق، والثراء، والتفاهة.

هذا الغياب لا يُطفئ الذاكرة بل يُعيد تشكيلها. يُسمَّى علم النفس السياسي هذه التقنية «الإبادة الرمزية عبر الإهمال». الفكرة لا تُحارب بل تُترك لتذبل. تجاهلها لا يُنهيها، لكنَّه يمنعها من النمو، ويُعيد رسم خريطة الذاكرة الجمعية دونها.

وفي هذا الفراغ، تُزرع رموز بديلة. تُقدَّم للجيل الجديد قذوات أخرى: المغنّي، والمؤثّر، ونجم المباريات، ورائد الأعمال، والمهرج الظريف. هؤلاء يملؤون الشاشة، فيما يقف المقاوم في الظل مجهولاً وغريباً بلا ذكر.

تُحرق الذاكرة بهدوء. يرى علماء الاجتماع أنَّ أخطر ما في «نار الغياب» هو أنَّها لا توقظ الغضب. الناس لا تشعر بأن شيئاً انتزع منها، بل تظنُّ أنَّه لم يكن موجوداً أصلاً. وعندما يُسأل الجيل الجديد عن دير ياسين، أو مجزرة قانا، أو سجن الخيام، أو انتفاضة الأقصى، ينظر بتعجُّب، كأنَّ الحديث يدور عن كوكب آخر.

أُعيد تصميم اللاوعي الجماعي بطريقة تمنع هذه الأحداث من الاستدعاء التلقائي. في هذه اللحظة، تتحقَّق الهزيمة الكبرى. يتحوَّل الغياب إلى طمأنينة، ويُقدَّم النسيان باعتباره حالة طبيعية.

لا تُبنى المواجهة على الاحتجاج ضد التغييب بل على صناعة حضور لا يمكن محوه. المطلوب هو الكتابة، والرواية، والإنتاج، والتكرار، وتحريك الذاكرة الجمعية على نحو لا يسمح للنسيان أن يستقرَّ. يجب أن يبقى أبطالنا على الشاشات، وفي الشعر، وفي القصص، وفي المدارس، وفي اللافتات، وفي أسماء الشوارع، وعلى الجدران، وفي كلِّ زاوية.

في عالم يُدار ممَّن يملأ الفضاء الرمزي، لا يكفي فيه امتلاك الحق، فالحضور شرط أساس، والصوت يجب أن يُسمع، والنور يجب أن يبقى.

الاستراتيجية السادسة والعشرون: القصص الميته

حين يُبقي العدو القصة حيّة ويُفرغها من معناها

في ساحة الحرب النفسية، لا يكفي العدو بإخفاء القصص المقاومة أو محوها من الذاكرة. في بعض الحالات، يُبقي القصة حيّة في ظاهرها، ويُفرغها من روحها. تُروى الحكاية كما يشاء، وباللغة التي يفضل، وفي الإطار الذي يُعطل قيمتها النضالية. هنا تتجلى استراتيجية «القصص الميته»؛ حيث تُستخدم الذاكرة سلاحاً ضد أصحابها.

في هذا النمط، لا تمنع قصة الشهيد من التداول، لكن تُعاد صياغتها بطريقة تُحوّلها إلى حكاية إنسانية عامة، خالية من الاتجاه السياسي. يُقال عن الشهيد إنه «شابٌ طموح، ومحبٌ للحياة، ويعشق الموسيقى، ويكتب الشعر»، فيما يُسكت عن إيمانه، ووعيه، وخياره الواعي بالقتال، ومشروعه التحرري. يتحوّل من رمز مقاوم إلى ضحية محبوبة دون قضية.

لا يُهاجم العدو الرواية، بل يُعيد إنتاجها بشروطه:

١. يُسمح بعرض الفيلم عن المقاومة، بعد حذف مشاهد

السلاح.

٢. يُرحّب بالشعر عن الشهداء، إذا لم يُذكر اسم فلسطين.

٣. تُمنح الجوائز للأفلام الوثائقية، حين تركّز على الألم الفردي وتتجاهل الاحتلالَ فاعل الألم.

٤. تُشجّع القصص التي تُظهر المقاومة كونها خسارة، وتُغفل كونها خياراً واعياً.

بهذه الطريقة، تُعاد كتابة الحكاية بأدوات الخصم. تُمسح وتُسجّل بأنّها «مأساة إنسانية»، ونُفصل عن مشروعها التحرري. تُعرض قصّة لاجئ فلسطيني على منصّة غربية بصفتها دراما عن «المعاناة» دون ذكر النكبة. يُنتج فيلم عن حرب تموز؛ يظهر فيه أطفال الجنوب ضحايا دون الإشارة إلى من قصفهم ولماذا. يُكتب عن الأسير اللبناني أنّه «رجل محبٌ لعائلته» دون ذكر مواجهته للاحتلال.

يُسمّى علم النفس الثقافي هذا النمطَ بـ«إعادة التأطير العاطفي» (Emotional Reframing). تُروى القصّة بالعناصر نفسها، لكن يُسحب منها البُعد الرمزي الذي يمنحها القدرة على التعبئة. تُستدرّ دموع الناس، ويُمنع الغضب، ويُسمح بالبكاء، ويُعطّل الثأر الرمزي. يتحوّل السرد إلى أداة تهدئة، ويُفصل عن وظيفته في توليد الوعي.

هذا النمط شائع في مؤسّسات الأمم المتّحدة، وفي برامج التعاون الثقافي الدّولي، وفي بعض جوائز السينما العالمية. لا يُمنع الخطاب

المحور الثالث - الاستراتيجية السادسة والعشرون ١٠٧

المقاوم، بل يُعاد تغليفه وتسويقه ضمن إطار "إنساني" مبهم. تُحبُّ القصة دون أن تعرفَ من هو العدوُّ. وتتألم دون أن تُطالب بالمواجهة. وتتضامن دون أن تنخرط.

بهذا المسار، تُفرِّغ الحكايات من شحنتها السياسيَّة، ويُعاد دمجها في سوق "القصص العالمية عن المعاناة". تتحوَّل إلى سرديات عامة بلا خصوصية، وبلا مشروع، وبلا بُعد صراعي. يُقدِّم الشهيد الفلسطيني كضحيَّة زلزال، وتُساوى المجازر بالحرائق، ويُختزل الاحتلال في ظرف طبيعي. تُروى القصة، لكنَّ معناها يُمحي.

تتطلَّب مواجهة هذه الاستراتيجية استعادة زمام الحكاية. يجب منع الخصم من إعادة سرد قصصنا وفق منطقِه. إنَّ المطلوب هو كتابة الرواية بلغة فنيَّة دون أن تُفرِّغ من حقيقتها. يجب أن تبقى أسماء القتلة واضحة، وأن يُقال لماذا سقط الدم. ليس الشهيد مجرد شابِّ حالم بل مقاومًا اختار الطريق. والكفاح لا يُختزل في مرثيَّة، والمرثيَّة ليست حالة شعورية بلا فعل.

لا تموت القصص حين تُنسى بل حين تُروى دون مقاومة. كتابة التاريخ بلغة الخصم تعني خسارة الذاكرة بصفتها سلاحًا، حتى لو ظننَّا أننا نرويها بمحبَّة.

الاستراتيجية السابعة والعشرون: الحرقُ الانفعاليُّ

حين يُستهلكُ الغضبُ في الأماكن الخطأ

«صرنا نبكي ونفترج. شو بعد ناقص؟ نصير نعتذر لأنو تأثرنا؟»
 قالها شابٌ في مجلس عزاء بعد أن مرّت شاشة التلفاز بصور أطفال
 يُتشلون من تحت الأنقاض في غزّة. لم يكن غاضباً من العدو بل من
 الناس، ومن نفسه، ومن هذا الإحساس العميق بأنّ المشهد يُعاد، وردّ
 الفعل يُعاد، والنتيجة واحدة: دموعٌ في الصدور دون أثر في الواقع.
 في تلك اللحظة، يكتشف الإنسان أنّ عاطفته لم تعد كافية. تحوّل
 الحزن الذي كان محرّكاً إلى مُهدئ. وأصبح الغضب الذي كان بوابةً
 للرفض وسادةً للراحة النفسية. كما تُسكب المياه على الجمر لتطفئه،
 يُسكب الحزن على الغضب ليخدره. هذه هي آليّة الاستنزاف الشعوري:
 أن تُستهلك الطاقة النفسيّة في غير موضعها.

لم يُعدّ العدوُّ بحاجة لإسكاتنا، يكفيهِ أن يتركنا نصرخ، ونبكي،
 ونكتب، ونصوّر، ونشارك، ونعلّق، ثمّ نذهب للنوم. تحوّل الغضب
 إلى نشاط ثقافي، أو طقس عاطفي، أو مادة ترفيهيّة - نعم، ترفيهيّة
 - في زمن منصّات الفيديو القصير. نستهلك الانفعال كما نستهلك
 المسلسلات. نذهل، ثمّ نُطفأ.

المحور الثالث - الاستراتيجية السابعة والعشرون ١٠٩

في العلوم السلوكية، يُقال إنَّ الإنسان إذا عُوِّض شعوريًّا، قلَّ اندفاعه الفعلي. وكلِّما شعر أنَّه قام بفعل رمزي يعبرُّ عن موقفه، تراجعت احتماليَّة أن يقوم بفعل عملي. يُسمَّى هذا «الإشباع الوهمي»: حين تنتهي الحاجة النفسيَّة بالتفريغ، لا بالحركة. هذه هي الآليَّة التي تُمارس على جماهير المقاومة: يُسمح لها أن تتألَّم، بشرط ألاَّ تتحرَّك.

السؤال الجوهرى لا يتعلَّق بالبكاء، بل بالغضب. لماذا لا يتحوَّل الانفعال إلى فعل؟ ولماذا يكتفي الواحد منَّا بإعادة نشر صورة مؤلمة، ثم يُقنع نفسه أنَّه «قام بواجبه»؟ هل لأنَّ الوسيلة مفقودة أم لأنَّنا تعلَّمنا، من فرط الإغراق، أن نستهلك الفجيرة باعتبارها وجبة إعلاميَّة، لا نداءً خُلقيًّا؟

لا يخشى العدوُّ الدموع. ما يخشاه هو اللحظة التي تتحوَّل فيها الدموع إلى وعي، والوعي إلى قرار، والقرار إلى تراكم منظم. أمَّا إذا بقي الانفعال بلا اتجاه، فلن يُنتج إلاَّ جيلاً مرهقاً يشعر أنَّه شارك، فيما كلُّ ما فعله... أنَّه شاهدَ ومراً.

الاستراتيجية الثامنة والعشرون: تحويلُ التعدُّدِ إلى تناقضٍ

حين يُعادُ تعريفُ التَّنوعِ الدَّاخِليِّ بوصفه خطراً داهماً من سمات المجتمعات الحيَّة أن تكون متعدِّدة المشارب، ومتنوعة الأصوات، ومتداخلة الهويَّات. والمقاومة، بوصفها ظاهرة إنسانية - اجتماعية - حضارية، لا تنمو في بيئة مفرغة من التمايز بل تتغذى بالتنوع، وتحوِّله إلى طاقة. هذا التعدُّد لا يُضعفها بل يمنحها مرونة وقدرة على التكيف. لكنَّ الحربَ النفسيَّة التي يشنُّها العدوُّ لا تستهدف هذا التعدُّد في ذاته بل تسعى إلى تغيير زاوية النظر إليه. يُعاد تقديمه باعتباره تهديداً، ويُفهم بوصفه بذرة شقاق كامنة، لا بوصفه تنوعاً بناءً. بهذا المنطق، يُعاد تكوين الوعي الجمعي بطريقة تُنتج رهاباً خفياً من كلِّ اختلاف. يُقال: هؤلاء لا يشبهونا، أولئك يستخدمون مصطلحات مختلفة. تلك الجماعة تقرأ التاريخ من زاوية مغايرة، ثمَّ تتكرَّس مقولة: «إمَّا أن تكون مثلنا تماماً، أو أنت خطر علينا». وبهذه البساطة، تتحوَّل المسافة الطبيعية بين الاتجاهات إلى خندق يُستعمل لإطلاق النار الرمزية.

هذه الآلية لا تنشأ تلقائياً بل تُدار من قِبَل أجهزة متخصصة في

المحور الثالث - الاستراتيجية الثامنة والعشرون 111

«هندسة الفرقة»، تُعَدِّي أطرافَ كلِّ تباين بمضامين إعلامية وتحليلية تؤكد لهم أن الطرف الآخر يُشكّل تهديداً وجودياً. أحياناً تُبثُّ مقاطع مُجتزأة، أو تسريبات مدروسة، أو خطابات مشحونة، ويجري توجيهها لجمهور محدد لإثارة حفيظته، ثمَّ يُترك الانفجار ليبدو عفويّاً.

وقد استُخدمت هذه التقنية في أكثر من مكان: ففي لبنان جرى تضخيم التباين بين بيئات المقاومة الطائفية واليسارية حتى كاد يظهر أن التعايش مستحيل، رغم وحدة القضية. وفي العراق، أُعيد تعريف المذهبية ضمن بيئة المقاومة نفسها لتُصور باعتبارها صراعاً تحت الرماد. وفي اليمن، سُوق للقبيلة بوصفها نقيضاً للنهج المقاوم، لا سنداً له. في كلِّ الحالات، لا يُسأل الناس: ماذا تريدون؟ إنما يُقال لهم: انتبهوا، الآخرون لا يريدونكم.

في علم النفس الجماعي، يُطلَق على هذه الظاهرة اسم «إعادة إنتاج الخصومة بالتضخيم الإدراكي» (Cognitive Amplification of Dissonance)؛ حيث يُعاد تفسير كلِّ اختلاف بسيط بوصفه دليلاً على نية مضمرة أو تهديد مستتر. والنتيجة هي تعميم سوء الظنِّ، وبناء الحواجز النفسية بين أطراف الجماعة الواحدة.

الهدف من هذه الاستراتيجية لا يقتصر على الانقسام التنظيمي أو السجال الفكري. فالمطلوب هو زرع بنية ذهنية ترى في كلِّ تنوع فرصة

انهيار. فتُعاد صياغة المرونة الداخلية بوصفها تسيّبًا، والتعدُّدية بوصفها تفكُّكًا، والنقاش بوصفه انشقاقًا.

مواجهة هذه الحرب تبدأ من إعادة تأصيل الفكرة؛ فالجماعة لا تنهار بسبب الاختلاف حين تحتكم إلى أصل مشترك، والوحدة تتحقّق حين تتّجه المكوّنات المختلفة نحو غاية واحدة دون أن تلغى خصوصيّاتها. لا يكتفي العدوُّ بإدارة الخلافات القائمة بل يعمل على توليدها وصياغتها من الأساس.

الاستراتيجية التاسعة والعشرون: تحويل الصمود إلى عبءٍ نفسيٍّ

حين يُثقلُ الصمودُ؛ يبدأ الانهيارُ من الداخل

في الوجدانِ الشعبيِّ المقاومِ، يُنظرُ إلى الصمودِ بوصفه قيمةً عليا يُمثِّلُ الكرامةَ، ويشكِّلُ أساسًا لكلِّ انتصار. فالحرب النفسية التي يديرها العدوُّ تستهدف هذه القيمةَ بشكلٍ مباشر، فتُبقيها في الخطاب، لكنَّها تُعيد تقديمها بوصفها عبئًا متراكمًا، وكلفة مرهقة، وتفصلها عن جذورها الواعية.

تبدأ الآليَّةُ بصناعة سؤالٍ خفي يتسرَّب إلى الوعي الجمعي: «إلى متى؟». تُكرِّرُ العبارات بطريقة تُضعف المعنى: «إلامَ سنبقى نصبر؟»، و«إلامَ نقاوم؟»، و«إلامَ نتحمَّل؟». تُبثُّ مشاهد التضحية اليوميَّة، وتُعرض وجوه الجرحى، أنين الثكالي، وركام البيوت، وتُرفق برسائلٍ ضمنيَّة تُحمِّلُ خيارَ المقاومة مسؤوليَّة الألم. هذه المشاهد لا تُعرض بهدف الإلهام، إنَّما تُستخدم باعتبارها أداة إنهاك نفسي.

لا يَنتكر العدوُّ الصمود، لكنَّه يُعيد تأطيره باعتباره حالة استنزاف. يُروِّج أنَّ الصبرَ قدرُ الفقراء، وأنَّ الموت صار اعتيادًا، وأنَّ التضحية تحوَّلت إلى تكرار بلا أفق. يُقنَع الناس بأنَّهم وحدهم من يدفعون الثمن، فيما

الآخرون يخطِّطون ويتكلمون ويظهرون في الشاشات. تُقدِّم المقاومة باعتبارها كياناً يتغذى بمعاناة الناس، وتُفصل عن مشروعها التحرري. وقد استخدمت هذه الآلية في أكثر من ساحة: في غزة، تُعرض مشاهد الحصار على أنها قدر دائم، وتُختزل المعاناة في «ضريبة عناد». وفي لبنان، يُربط الانهيار الاقتصادي بخيارات المقاومة، ويُغفل الحصار الخارجي. وفي اليمن، يُقدِّم الجوع نتيجة لقرار المواجهة، وتُحجَب الحرب العدوانية عن المشهد. بهذه الطريقة، يتحوَّل الصمود من حالة معنوية متسامية إلى شعور بالإنهاك المتراكم.

في علم النفس الحربي، تُعرف هذه الآلية بـ«تحويل العبء المعنوي إلى عبء وجودي» (Existential Burden Conversion). يُعاد توصيف الصبر بوصفه حالة إنهاك طويلة الأمد. يفقد الفرد علاقته الإيجابية مع الصمود، وتُنتزع الجماعة من قدرتها على الاحتمال.

الخطاب المعادي لا يُواجه الفكرة بشكل مباشر. يُظهر تعاطفاً مصطنعاً: «نحن نحزن لمعاناتكم»، و«أنتم ضحايا قرارات غيركم»، و«لستم وحدكم». هذا الخطاب لا يُبنى على نية التضامن بل يُستخدم لتفكيك القدرة على الاحتمال. والهدف هو كسر تلك الطاقة التي تجعل الجماعات تنهض من الرماد وتبني من جديد.

مواجهة هذه الاستراتيجيات لا تتطلب تزيين المعاناة، ولا تستدعي

إنكار الثمن. المطلوب هو إعادة وصل الصمود بالمعنى، بالتاريخ، وبالهدف. يجب أن يُقال للناس إنَّهم يتحمَّلون؛ لأنَّهم جزء من مسار تحرُّري طويل. والتضحيات تُبنى بها المراحل، ولا تُختزل في الألم. وما دام بين الناس صوت يقول: "نحن هنا"، فإنَّ الصبر يُمارَس باعتباره اختياراً واعياً، ويُفهم باعتباره قوَّة تُبقي الجماعة واقفةً.

الاستراتيجية الثلاثون: تثبيتُ العدوِّ مرجعيّةَ معرفيّةٍ وإخباريّةٍ

حين يُفرضُ المحتلُّ بصفته منبعاً للحقائق في وعيِ الخصمِ نفسه بعيداً عن استراتيجيّات الإغراق الإعلاميِّ وتشويش الإدراك، تأتي هذه الاستراتيجية لتسلط الضوء على آليّة أكثر خبثاً: تثبيت العدوِّ نفسه بوصفه المرجعيّة الإخبارية والمعرفيّة لما يجري في ساحة الصراع.

فالعدوّ لا يكتفي ببثّ روايته، وإنما يسعى إلى جعلها نقطة البداية، والمصدر الأوّل، ومرجع التحقق... حتى لدى جمهور المقاومة.

يبدأ الأمر من خلال توظيف أدواته الإعلامية - الرسمية وغير الرسميّة - لتقديم الأخبار بسرعة، وبدقّة ظاهرية، وبلغّة «محايدة»، وبقوالب عصريّة مغرية. ومع مرور الوقت، تتكوّن عادة خفيّة لدى جمهور العدوِّ وجمهور الخصم على حدّ سواء: «لنتنظر ما سيقوله العدو».

في كلّ واقعة، وفي كلّ عملية، وفي كلّ غارة أو مواجهة، تُعامل الرواية الإسرائيليّة أو الأمريكيّة أو العربيّة على أنّها المعلومة الأساس، وما سواها يُعدُّ تعليقيّاً أو تبريراً.

ونحن هنا لا نتحدّث عن اختراق أو تجسّس، وإنما عن إعادة تكوين العلاقة المعرفيّة بالعدوّ: فقد تحوّل من كونه عدوّاً في ساحة الإعلام

المحور الثالث - الاستراتيجية الثلاثون ١١٧

إلى مرجع إخباري، وأحياناً يُنظر إليه بصفته محللاً استراتيجياً، ويُقدّم نفسه عبر شخصيات أمنية تظهر بلباس مدني، تتحدّث بلغة علمية، وتُحلّل بهدوء. وحين يتابعها جمهور المقاومة، لا يتعامل معها على أنّها جزء من الحرب، وإنما يراها «نافذة ضرورية للفهم».

وقد تجلّت هذه الظاهرة بوضوح في العدوان على غزة؛ حيث بات كثير من النشطاء وحتّى المحلّلين ينتظرون تصريح المتحدث العسكري الإسرائيلي ليعرفوا ماذا جرى! وفي لبنان، يُتابع العدو على مدار الساعة لفهم ما يجري على الحدود. وفي العراق، تُبنى بعض التحليلات المحليّة على تقديرات السفارة الأمريكية ومراكز أبحاثها. يسمّي علماء الإعلام هذه الظاهرة بـ«تثبيت الخصم سلطة معرفية» (Epistemic Authority Inversion)، وهي تعني أنّك تبدأ بالتصديق أو الاستناد إلى من يُفترض أنّه مصدر الكذب أو التلاعب، فتحوّل العلاقة معه من علاقة نفي إلى علاقة تحقّق.

وهذا من أخطر أشكال الحرب النفسية؛ لأنّه لا يطلب منك أن تُصدّق العدو، وإنما يكتفي بأن تبدأ منه. أن تُنقع نفسك بأنك لن تفهم الحدث قبل أن تسمع رأيه. وهنا؛ يفقد الطرف المقاوم مركزه السردية، وتُبنى تحليلاته على مرآة مشوّهة منذ اللحظة الأولى.

مواجهة هذه الحرب لا تكون بإغلاق العيون، وإنما بإعادة تثبيت

مرجعيتنا الإخبارية والمعرفية أصلاً للحدث لا معلقاً عليه، وأن نصوص
 الرواية انطلاقاً من التجربة لا من انعكاسها في شاشة العدو، وأن ندرك
 أن من يقتلنا لا يحقُّ له أن يُفسَّر لنا كيف ولماذا ومتى حصل ذلك.
 فالتحرُّر يبدأ حين نستغني عن رواية العدو لفهم أنفسنا.

الاستراتيجية الحادية والثلاثون: ابتسامَةُ الثعلبِ في حفلِ التتويجِ

حيث يُستنزفُ المشروعُ بزخمِ الانتصارِ نفسه تُعدُّ لحظة النصر في الوعي الجمعي لحركات المقاومة ذروةً وجدانيةً تفيض منها الطمأنينة، ويُعاد فيها ترميم المعنويات المكسورة، ويعلو فيها صوت العدالة فوق أنقاض الظلم. ومع أنَّها تُقدَّر باعتبارها ذروة رمزيَّة، فإنَّها في هندسة الحرب النفسيَّة تُعامل بوصفها لحظة انتقال حرجة يُراد لها أن تُختزل، ويُعاد تصميمها لتبدو مشهداً احتفاليّاً مشوشاً يزرع الغرور ويُقصي البصيرة، ويُنتج وهماً في النهاية يغيب معه وضوح البداية.

يظهر الثعلب - رمز المكر السياسي - في تلك اللحظة، لا بصفته مهاجماً للجبهة المنتصرة بل مبتسماً لها. وابتسامته بدل أن تُفهم على أنَّها تعبيراً عن رضا، تُستعمل مخدراً رمزيّاً يُقنع المنتصر أنَّه بلغ القمة، وأنَّ التقدُّم لم يعد ضروريّاً. إنَّه يقنعه - بهدوء بالغ - أنَّ المعركة قد انتهت، وأنَّ جوهرها الآن يتمثَّل في البقاء في موقع النصر. وهكذا يتحوَّل النصر إلى فخٍّ، لا عبر ضجيج السقوط بل من خلال صمت الاكتفاء.

في هذا السياق، تُركن أدوات التشويه المباشر أو ضرب المعنويات جانباً، وتُستبدل بلغة التبجيل المدجّن: يشيد الإعلام الغربي بـ«نضج المقاومة»، والخصم السياسي يعترف بـ«تفوقها الخُلقي»، وفي الوقت ذاته يُصخّخ الخطاب الذي يدعو إلى «التقاط الأنفاس» وإعادة التوضع» و«عدم التسرّع في استثمار الانتصار». وعلى الرغم من أنّ هذا يبدو عقلاً عقالانياً في الظاهر، فإنّه يُعيد بناء غرفة العمليات النفسية للعدوّ داخل اللأ وعي المقاوم دون أن يترك أثراً ظاهراً.

يشبه هذا الأسلوب تكتيكاً عسكرياً قديماً يُعرف بـ«فتح الممرّ ثم إطلاق النار»؛ حيث يُفسّح الطريق أمام الخصم كي يتقدّم بثقة، ثمّ يُضرب حين يفقد يقظته. وفي نسخته النفسية، يُسمح للجبهة بأن تحترف، وتُشجّع على ذلك، وتمنح شاشات ومنابر، بل تمنح أحياناً جوائز... ومع ذلك، فإنّ العمق يشهد دفعها ببطء نحو التحوّل إلى صورة جامدة، لا إلى فعل متجدّد. الصورة تجمّدها، وتستنزف طاقتها في تمثيل الانتصار بدل ترجمته إلى مشروع مستدام.

ويلاحظ في كثير من تجارب حركات التحرّر أنّ اللحظة التي تنفجر فيها الشعوب فرحاً بالنصر؛ هي اللحظة ذاتها التي يُعاد فيها تكوين الخطر من جديد، ولكن بصيغة أقلّ ظهوراً. فالعدو، في بعض الحالات، لا يسعى إلى استعادة الأرض بل يكتفي بإعادة تعريف النصر

المحور الثالث - الاستراتيجية الحادية والثلاثون ١٢١

داخل وعي المنتصر. وإذا ما تحوّل النصر إلى احتفالية إعلامية مؤقتة دون أن يُترجم إلى بنية ثقافية استراتيجية، فإنّ زمام المعركة يعود إلى يد العدو دون أن يطلق رصاصة واحدة.

تُستعمل الابتسامة هنا أداة فعلية، وليست مجرد صورة مجازية. ويُطلق خطاب يُشيد بـ«التجربة المقاومة»، وتُعلن «التهاني الرسمية» من أطراف طالما ناصبتها العداء، ويُستدرج جمهور المقاومة إلى مساحات الخطاب العام؛ حيث تُفرغ التجربة من فرادتها، ويُعاد إنتاجها ضمن قاموس «التسويات» و«الواقعية» و«التهذبة». وما إن يدخل المنتصر في هذه اللغة، حتى يفلت منه تدريجياً لسانه الأوّل، ويتحوّل إلى متلقٍ لتوصيف العدو لانتصاره.

وحين نقرأ في بعض الصحف الغربية أو عبر التحليلات السياسيّة التي تُصدّر بعد الانتصارات، عبارات من قبيل «لقد قدّمت المقاومة نموذجاً قابلاً للدمج في المعادلة الإقليمية»، أو «باتت المقاومة لابعاً لا يمكن تجاهله»، فإنّ هذه العبارات، رغم ظاهرها الإيجابي، تُوظّف في محاولات ناعمة لتدجين المشروع داخل قوالب التوازنات والصفقات، دون أن يُنظر إليه بوصفه حركة تغيير جذريّ.

وإذا ما بدأت المقاومة نفسها بتبني هذا النوع من اللغة، من غير أن تدرك أنّها لغة مصمّمة لتُطفئ شرارتها، نكون قد دخلنا رسمياً مرحلة

«ابتسامة الثعلب»؛ حيث يتحوّل التهديد من خارجي إلى داخلي، ويكمن الخطر في الذهن بدل الجبهة.

ومن الناحية النفسية، تؤدّي هذه الاستراتيجية إلى نقل مركز الثقل من الميدان إلى الصورة، ومن المواجهة إلى التمثيل، ومن الفعل إلى التأويل. فبدل أن يُنظر إلى النصر على أنه لحظة تراكم وبناء واستعداد للجولة التالية، يُعاد تصميمه في وعي الجمهور على أنه نهاية القصة، وذروة لا تحتاج إلى استمرار.

وعندما يحدث ذلك، يبدأ الجمهور بانتظار لحظة النصر القادمة دون فعل، ويصاب بخيبة إن لم تأت في الموعد، كأنّ النصر أصبح إيقاعاً استهلاكياً لا مشروعاً تحويلياً. وهذا ما يجعل الجبهة مع الوقت أقلّ صلابة، وأكثر تعلقاً بالتكرار العاطفي، دون البناء الطويل النفس.

في التجربة اللبنانية مثلاً؛ بعد انتصار ٢٠٠٦، بدأ واضحاً حجم المكر الدولي في تطويق المقاومة بالإشادة ثم الترويض. فقد جرى تقديم «الانتصار» بوصفه إنجازاً يُفترض أن يُترجم إلى تسوية داخلية، أو ترتيب سياسي، بدل أن يُجسّد مرحلة جديدة من المواجهة. فابتسامة الثعلب كانت حاضرة في كلّ لقاء، وكلّ منبر، وكلّ تحليل ناعم.

وفي فلسطين، بعد معارك مثل «سيف القدس»، و«ثأر الأحرار»، يظهر جهد هائل لإعادة تقديم المقاومة باعتبارها مجرد ورقة ضغط

المحور الثالث - الاستراتيجية الحادية والثلاثون ١٢٣

قابلة للتفاوض، دون أن تُعامل بوصفها قوّة تغيير حضاري. ويُعاد إنتاج الخطاب الإعلامي ليُنعج الجمهور أنّ النصر قد تحقّق، وأنّ المواجهة لم تعد ضروريّة، وأنّ المشروع دخل مرحلة «الإدارة». وهكذا تنجح الاستراتيجية؛ لأنّ العدو تفوّق ميدانيّاً بل لأنّ المقاومة توقّفت عند ذاتها. والاكْتفاء هنا هو السّم؛ إذ إنّ الجبهة التي تشعر بأنّها بلغت القمّة، تتوقّف عن الصعود، وتبدأ مرحلة التآكل من الداخل.

ولهذا، فإنّ الوعي بهذه الاستراتيجية يتطلّب تفكيكاً دقيقاً للغة «التهنئة»، والانتباه إلى كلّ من يربّت على كتف المقاومة ليُسكّن طاقتها. فالنصر لا يُستثمر إلا حين يُعاد تعريفه باستمرار. أمّا إذا نُحت في صورة واحدة، وقُدّم ككأس للاحتفاء، فإنّه يتحوّل إلى تمثال يجمّد صاحبه، بدل أن يكون لحظة تحرّره.

المحور الرابع:

استراتيجيات تحويل الضعف إلى تأثير

الاستراتيجية الثانية والثلاثون: بزوغ من الفراغ

حين يتراجع العدو خطوة... فليس ذلك من أجل الغياب، وإنما للظهور من مكان آخر.

في الحروب النفسية الكلاسيكية الحضور هو التهديد: الاحتلال، والقصف، والسجون، والرقابة، والهيمنة. لكن في الحروب النفسية الحديثة، قد يكون الغياب هو الخدعة الأكبر. حين ينسحب العدو من الواجهة، أو يُخلي موقعاً رمزياً، أو يتراجع إعلامياً، لا يكون ذلك دائماً هزيمة أو ضعفاً... وإنما تكتيك لإعادة التموضع من زاوية غير متوقعة. وهذا هو جوهر استراتيجية "بزوغ من الفراغ": العدو لا يختفي، وإنما يُعيد تشكيل حضوره داخل مساحات نتصور أنها فارغة، محايدة، أو تابعة لنا. يفتح لك المجال لتشعر أنك حر، وأنتك تنتصر، وأنتك تتحكم... وفي اللحظة التي تملأ الفراغ بثقة، يظهر هو من حيث لا تتوقع.

تبدأ هذه الاستراتيجية بإشارات خادعة:

- ١- تقليص التدخُّل المباشر.
- ٢- انسحاب تكتيكي من موقع صدامي.
- ٣- صمت إعلامي مريب.
- ٤- منح مساحة أكبر لحراك ثقافي أو اجتماعي.
- ٥- تراجع في المواجهة المباشرة أمام رموز المقاومة.

لكن في الخلفية تجري هندسة معقّدة: يُزرَع المحتوى، وتُجهَّز الرموز البديلة، وتموّل مؤسسات موجّهة، ويُعاد تدريب النخبة، وتُترك المساحة تُدار شكلياً من الداخل، لكنّها مُصمّمة كي تولّد ما يريد العدو بالضبط. في فلسطين، انسحب الاحتلال من غزّة عام ٢٠٠٥، ولكن بموازاة ذلك، بدأ يحاصرها من الخارج، ويتسلّل إلى وعي الداخل عبر الإعلام، والمساعدات، وأدوات الانقسام، وأذرع الحرب الناعمة.

وفي العراق، انسحب الجيش الأميركي عام ٢٠١١، لكنّ الشركات الأمنيّة، ومراكز الأبحاث، والمنظّمات الدوّليّة، والمشاريع الثقافيّة... تكاثرت فجأة، وملاّت الفراغ بمعنى آخر. وفي لبنان، حين خفّت صوت الهجوم السياسي الغربي على المقاومة، بدأ بروز "النماذج المدنيّة" المموّلة بهدوء التي

تقدّم خطابًا ناعمًا لكن بمضامين تتقاطع مع سرديّة العدو. يُسمّي علم النفس الاستراتيجي هذا النمط بـ”الإيهام بالفراغ“، وهو جزء من تقنيات ”إدارة الفضاء الرمزي“؛ حيث يُخلَق انطباعٌ بوجود حيزٍ حرٍّ، فيما هو مُصمَّم مسبقًا ليستوعب الصدمة، ويفرّغها من طاقتها، ويحوّلها إلى حركة داخل قفص غير مرئي.

والأخطر أنّ هذا الفراغ لا يُعدُّ موضعًا، وإنما يُفهم أنّه حين يتجنّب العدو مهاجمة المقاومة علنًا، فإنّه يترك لها أن تنهك نفسها عبر الاحتكاك الداخلي. وحين يمتنع عن الاعتراض على خطابك، يفسح له المجال في المنصّات ثمّ يسحبه بهدوء نحو الترويض. وحين يتجاهل انتقادك، يمنحك مساحة أكبر... لتفرّغ غضبًا.

يتحقّق البزوغ من الفراغ أيضًا عبر صناعة بدائل لا تبدو معادية:

١. مؤسّسات حقوقية تتحدّث باسم الضحية، لكنّها تُدين سلاحها.

٢. رموز شبابية تنادي بالكرامة، لكنّها تنأى بنفسها عن المشروع التحرّري.

٣. منصّات إعلامية مستقلّة ظاهريًا، لكنّها تُعيد إنتاج الخطاب العقيم ذاته.

ومع الوقت، ينسى الجمهور من هو العدو؛ لأنّ العدو لم يعد

أمامهم... وإنما أصبح في داخلهم، من خلال الأفكار، والمصطلحات، وطريقة تفسير الواقع.

أما المواجهة، فهي أن لا نُخدع بالفراغ، وأن نرصد لحظات الانسحاب بدقّة، ونسأل: لماذا اختفى؟ وماذا سيأتي بدلاً منه؟ وأن لا نملاً كلَّ حيزٍ متروك بثقة ساذجة، لكننا نملؤه بحذر استراتيجي، وأن ندرك أنّ العدوَّ حين يغيب، فهو لا ينام... وإنما يتحوّل. ففي الحرب النفسيّة، الانسحاب أحياناً أقوى من الهجوم، والفراغ قد لا يكون خالياً... وإنما مُجهّزاً لانبعاث غامض، وحين نُصقِّق لغيابه دون وعي، قد نكون نحتفل ببزوغه من بابٍ خلفي لم نره.

الاستراتيجيةُ الثالثةُ والثلاثون: انعكاسُ المرأةِ

حينَ يَستخدِمُ العدوُّ خطابَكَ... لِيُحَيِّدَكَ بِهِ

من أخطر أدوات الحرب النفسية أن يُستعمل سلاحك ضدَّك، لا عبر كسره، وإنَّمَا عبر نسخَه، وأن يُستعمل خطابك، ومفرداتك، وقيمك، لكنُّ بوجه مقلوب. وأن ترى خصمَكَ يتكلَّم لغتك، ويقتبس من تراثك، ويرفع شعاراتك بل يذكرك بمبادئك... لا ليؤيِّدك، وإنَّمَا ليجرِّدك منها.

هنا تعمل استراتيجية انعكاس المرأة:

لا يأتي العدوُّ بهويَّته الصريحة، وإنَّمَا يتقمَّص ظلك، ويُعيد إنتاج خطابك كما يبدو عليه... لا كما هو في جوهره. فتراه:

١. يتحدَّث عن «العدالة»، لكنَّه يقصد استسلامك.
٢. يدعو لـ«السلام»، لكنَّه يعني تسليمك.
٣. يقتبس من أقوالك عن الكرامة، ثم يُطالبك بـ«ضبط النفس».
٤. يذكرك بـ«القيم الإنسانية»، ثم يلومك لأنك تدافع عن نفسك بالسلاح.

في هذه المرأة، لا تظهر أنت... وإنَّمَا صورة مصنوعة منك، مشوَّهة ومؤدلجة، ويُعاد توظيفها لتحديدك.

إنَّها ليست حرباً ضدَّ خطابك، وإنَّمَا استنساخ خبيث له.

هذه التقنية شائعة جداً في الحملات الغربية ضد المقاومة؛ حيث نرى السياسة الأميركية يتحدثون عن «حقّ الشعوب في تقرير المصير»، ثمّ يدافعون عن (إسرائيل). ونسمع بيانات من منظمات دولية تقول: «نقف إلى جانب المدنيين»، لكنّها تُدين فقط قذائف المقاومة، لا القصف المكثّف للعدوّ.

يردّد بعض المثقّفين: «نحن مع فلسطين... ولكنّ ضدّ العنف»، متناسين أنّ الاحتلال نفسه هو الجذر العميق للعنف. وفي هذا السياق، يُستخدَم نصُّك كمرآة، لكنّ الهدف ليس أن يعكسك... وإنما أن يُخضعك. فما يُراد هو أن تُجرَّ إلى الخطاب المتواطئ بلغة مألوفة، وأن تُصدّق مرآة لا تُظهر ملامحك الحقيقية بل ما يرغب العدوُّ أن تكون عليه.

يُسمّى علم النفس السياسي هذا النوع من المناورات بـ «تلاعب التماهي» (Mimetic Manipulation)؛ حيث تُبنى الثقة مع الخصم من خلال التماهي الشكلي معه؛ تمهيداً لإعادة برمجة موقعه في الصراع. أمّا إعلامياً، فُتستخدم هذه التقنية في إنتاج شخصيّات ظاهرها مقاوم، وباطنها مُروّض:

١. تتحدّث رموز بلغة الثورة، لكنّها تُحدّر دائماً من الانفعالات.
٢. يتحدّث نُشطاء عن الكرامة، لكنّهم يُفرغونها من أيّ فعل صدامي.

المحور الرابع - الاستراتيجية الثالثة والثلاثون ١٣٣

٣. يرتدي فنانون الكوفيّة، لكنهم يُعْتَوْنَ للسلام القاتل.

هذه الاستراتيجية تحوّل القوّة إلى ضباب:

تُفرغ الشعار من معناه، وتُجرّد المفردة من شحنتها، وتجعل الجمهور يسمع ما اعتاد عليه... لكن بمضمون آخر. فيظنُّ أنّه ما زال يقاوم، فيما هو يصفق لصورة مُعدّلة من خطابه الأصلي.

مواجهة هذه الاستراتيجية تبدأ من التحقق من المرأة:

هل ما نراه فعلاً يُعبّر عنّا؟

هل ما يُقال بلغتنا، هو فعلاً لغتنا؟

هل من يستعمل قيمنا، يشاركنا في معركتنا أم يعكسنا في صورة يريد

بها أن يُطفئ جذوة الفكرة؟

فالمراة، حين تُصنع بيد خصمك، قد تُشعرُك أنّك ما زلت صامداً،

وأنت في الحقيقة... تُعاد برمجتك لتقف في الصفّ الخطأ.

الاستراتيجية الرَّابِعَةُ والثلاثون: طُعْمُ الزُّجَاجِ

حين تُقدِّم أداةً سحريةً... بشرط ألا تُستخدمَ ضدَّ من منحَكَ
إيَّاهَا.

يلهو طفل على شاطئ مدرِّم، ويلمع شيء أمامه وسط الركام، يظنُّه قطعة حلوى، أو خرزة. يمدُّ يده، ويلتقطه، ويتأمَّله... وإذا به شظيَّة زجاج من قنابل فسفورية لم تنفجر بالكامل. يجرح إصبعه، ثم يبكي، ويعود إلى البيت، لكنَّ الدم يسيل من إصبع صغير، في بيت فقد أربعة من أهله.

وهذا الجرح، بكلِّ بساطته، هو صورة مكثِّفة لما تفعله الحرب النفسية حين تقدِّم أدواتها في شكل جميل، ومغرٍّ، وبريء... لكنَّها شظايا مبرمجة.

لا يُوجَّه «طُعْمُ الزجاج» إليك بوصفه سلاحًا، وإنما يُقدِّم لك لتلمسه بيدك، وبارادتك:

١. منصَّة تدريب مجانيَّة مدعومة من جهة خارجية.
٢. منحة دراسية دَولية؛ عنوانها «السلام والتواصل الحضاري».
٣. حملة على وسائل التواصل الاجتماعي بعنوان «فكِّر خارج القطيع».

٤. عرض عمل في مؤسّسة «دعم التنمية الفكرية».

٥. تطبيق ذكي يُعلّمك «التفكير النقدي».

كلُّها أشياء لامعة، ومغرية، ومفيدة... لكن داخلها نقطة اختراق، وخطط ربيع يربطك بخطاب غير خطابك، وسقف غير سقفك، وسؤال غير السؤال الذي خرجت لأجله.

في الحروب التقليدية، كانت الحرب تُشنُّ بالسلاح، والمواجهة تُدار بالمواقف. أمّا في الحروب النفسية، فالعدوُّ لا يطلب منك الاستسلام، إنّما يعرض عليك خدمة:

«خذ هذه الأداة، هي لك، لنساعدك على التقدّم، ولنفتح لك أبواب العالم».

وفي كل أداة، هناك قيد صغير غير مرئي، أو بند مخفي في اتفاق الاستخدام، أو شرط ضمني:

١. ألاّ تخرج عن اللغة المتاحة.

٢. ألاّ تُسمّي العدو عدوًّا.

٣. ألاّ تطرح الأسئلة الحقيقية.

يصنّف علم النفس الإعلامي هذا النوع من أدوات الحرب ضمن ما يُعرف بـ«الأدوات الناعمة ذات النواة الصلبة». يُتاح لك استخدام كلِّ شيء... بشرط ألاّ يودّي إلى شيء. تمنحُ فكرياً نقدياً... ما دام لا ينتقد

أصل السلطة. تُفتح لك المنصّات... ما دمت تتحدّث لغة مفهومة من قبل ممولّيها.

هكذا، تتكاثر التطبيقات والمبادرات والبرامج. وتبدو «مستقلّة»، و«ذكيّة»، و«حديثّة»، لكنّها مصمّمة بدقّة لانتزاع شيء خفي منك: زاوية النظر، أو توقيت الغضب، أو حرارة اللغة.

كيف نواجه هذا؟

ليس بإغلاق الباب على كلّ جديد، بل بفهم من صمّم هذا الجديد، ولماذا الآن؟

وليس برفض كل تقنية، بل بسؤال:

١. هل هذه الأداة تزيدني وعياً بموقعي أم تُفرغ هذا الوعي من

قدرته على التحرك؟

٢. هل هذا التطبيق يُوسّع فكري أم يعلمني كيف أفكر دون أن

أقول ما أرى؟

٣. هل هذه المنحة تمهّد لطريقي أم تعلمني طريقاً آخر؟

طعم الزجاج لا يؤكل... لكنّه يُجرّب. ومن يجربّه، قد لا ينزف فوراً، لكنّه بعد حين لا يجروّ على الرفض؛ لأنّه تعود أن يلمس الزجاج كأنّه قطعة سكر.

الاستراتيجية الخامسة والثلاثون: الحافة الناعمة

حين يكون الطريق ممهدًا، لكنه لا يقود إلى مكان

ما من أحد يدخل الحرب النفسية من باب العنف الرمزي المباشر. تلك المعارك تُخاض في المراحل الأخيرة، حين تنضج السرديات وتكسر الموانع، وتصبح المفاهيم جاهزة للاشتباك العنفي. أما الخطورة، فتكمن في المراحل الأولى، حين تُفتح بوابة صغيرة على طرف الوعي؛ وبوابة لا تنذر بخطر، ولا توحى بمواجهة، وإنما تبدو امتداداً طبيعياً لما نعرف ونؤمن ونحب. إنها لا تفتحك، وإنما تستدرجك.

وهذا هو وجه «الحافة الناعمة» - الاستراتيجية التي لا تطلب منك تغيير موقعك، وإنما تتركك تمشي في الاتجاه ذاته، بينما تُعيد رسم الطريق تحت قدميك. لا تُجبرك على الانقلاب، وإنما تُقنعك بأنك ما زلت في موقعك، حتى وأنت تنزلق بعيداً عنه.

الحافة الناعمة لا تُرغمك على التراجع، وإنما تُطمئنك إلى أنك تتقدم، وأنت تُحسن التفكير، وأنت تتحرر من التكرار. تُشعرك بأنك أكثر نضجاً، وأكثر تعقيداً، وأكثر انفتاحاً. وما يخفى عنك هو أن ما تمشي عليه لم يعد طريقك، ولا أرضك، ولا حتى لغتك، بل تحوّل إلى ممرٍ جرى تبطينه بلغة مألوفة، ومفاهيم جزئية، واقتباسات من أدبيات

المقاومة، لكنَّه في جوهره صُمِّم ليتمدَّ بك بعيدًا عن ساحة الفعل، نحو تخوم ناعمة من الانشغال الدائم بالتأمُّل، والمراجعة، والقلق، والنسيبِيَّة... حتى تفقد في نهاية الأمر اتجاهك، دون أن تشعر أنَّك ضللت.

في هذا النمط من الحروب، لا يُقال للمثقف المقاوم: «تخلَّ عن موقفك»، بل يُقال له: «فلنُدقِّق أكثر في دلالات هذا الموقف»، ثمَّ: «ألا تعتقد أنَّ هذه المفاهيم تحتاج إلى تحديث؟»، ثمَّ: «ما الضرر من مراجعة القناعات القديمة؟»، ثمَّ: «ربما أن الأوان لتُعيد تعريف مفرداتنا حتى نكون أكثر انفتاحًا»، ثمَّ: «لنتحدَّث عن الإنسان، لا عن الصراع»، ثمَّ: «ماذا يعني أن نكون مقاومين في زمن ما بعد البطولات؟».

وهكذا، تبدأ الرحلة من نقد مشروع، وتنتهي عند ضياع المشروع كلِّه في هوامش فكريَّة تبدو راقية، لكنَّها مفرَّغة من كلِّ بوصلة فعلية.

يصف علم النفس السياسي والاجتماعي هذه الدينامية بـ«استراتيجية التحييد الناعم» (Soft Neutralization). وهي تختلف عن القمع أو التفكيك؛ إذ لا تعارض الخطاب مباشرة، وإنَّما تحتويه ثمَّ تُفرِّغه من شحنته. الفكرة لا تُقتل، وإنَّما يُكثَّف الحديث عنها حتى تختنق. واللغة لا تُمنع، وإنَّما يُفتح المجال لتعدُّد تأويلاتها حتى تفقد أثرها العملي. وهكذا، يُسحب الفعل إلى هامش الجدل، ويُعاد تدوير الالتزام

يُصبح انشغالاً دائماً بالأسئلة التي لا إجابة عنها، وتحليلاً لا يتوقَّف، واستفهاماً يُجمِّد كلَّ إرادة.

في هذا السياق، يُدفع المثقَّف أو الشابُّ المتحمَّس إلى الحافةِ الناعمة عبر قنوات مغلَّقة بالشرعيَّة: منابر الحوار، برامج "إعادة التفكير"، منصَّات "التفكير النقدي"، ورشات العمل حول "المفاهيم المتداولة"... حيث يجري الاحتفاء به بوصفه صاحب رأي، لكن داخل إطار رمزي يمنعه من الفعل، بل يضمن أنَّه سيُعيد إنتاج نفسه بوصفه محللاً أبدياً لا مقاوماً فعلياً. يُمنح صوتاً، لكن يُسحب منه أثره. الخطر الأكبر في هذه الاستراتيجية أنَّها لا تنفضك، وإنما تُثني عليك.

لا تُعارضك، وإنما تُسرِّع لك طريقاً من التهذيب الرمزي، بحيث تنسى تدريجياً أنَّك كنت تمشي في اتجاه آخر. تُقنعك أنَّ ما تقوم به الآن أكثر نضجاً، وأكثر تعقيداً، وأنَّ العودة إلى الصيغة الصدامية تعني أنَّك لم تتطور بعد. وهكذا، يصير التخليُّ مظهرًا من مظاهر الرقي، والانفصال عن المعركة تعبيراً عن عمق فكري، ويُختزل الأصيل في "مرحلة مراهقة ثورية" لا تليق بالوعي المتقدم.

لا تتطلَّب مواجهة الحافةِ الناعمة صراحاً، وإنما وعيٌ حادُّ بما يتغيَّر داخلنا حين يُفتح أمامنا طريق يبدو مألوفاً. أن نسأل أنفسنا، بدلاً من:

الاستراتيجيةُ السَّادسةُ والثلاثون: تشظيةُ القدوةِ

حين يتحوَّل الرَّمزُ الواحدُ إلى شظايا متنازعة

لا تُختزل الرموز الكبرى في الوعي الجمعي في شخصيات أو صور بل تتجسّد في بنى موحّدة، تحمل معاني تتجاوز الأفراد، وتُشكّل الجبهة الخُلقية التي يستند إليها الناس في لحظات التحدّي. ولهذا، فإنّ من أنجع أساليب تفكيك هذه الرموز لا يتحقّق عبر تشويهها أو محوها، وإنّما من خلال نقيتها من الداخل؛ أي تقطيع صورتها إلى أجزاء متضادّة، وتضخيم بعض ملامحها وتهميش أخرى، وزجّها في نزاعات الهويّات والانتماءات والقراءات المتعارضة؛ حيث تفقد مركزيّتها وتحوّل إلى وجه مألوف في معركة سرديات لا تنتهي.

في علم النفس الجمعي، تُصنّف هذه الظاهرة ضمن ما يُعرف باليّات التنازع الرمزي (Symbolic Contention)، وهي تشير إلى الحالة التي يُعاد فيها تأويل الرمز الواحد من جماعات متعدّدة بطرائق متضاربة، ما يُضعف من أثره التوحيدي، ويزرع حوله طبقات من الشكّ والصراع التأويلي، فيفقد قدرته على الإلهام الجمعي. وعندما يتحوّل الخلاف من موقع الرمز إلى تعريفه ذاته، فإنّ الانقسام يتجاوز مجرد اختلاف في الرأي، ليلبغ مستوى الانقسام في المخيال العام.

وقد لجأت القوى الغربيّة و(إسرائيل) إلى هذه الاستراتيجية في التعامل مع رموز المقاومة. فبدل مهاجمة شخصيّات، مثل القادة الشهداء أو مؤسّسي النهج الثوري في العالم العربي والإسلامي، تُطلق حملات متعدّدة الاتجاهات: بعضها يُثني على ”حنكتهم“، وآخر يُدين ”تشدّدهم“، وثالث يُسلّط الضوء على ”أخطائهم“، فيما تُنتج أفلام ووثائقيات تُعيد تشكيل سرديّاتهم بطريقة تُجزّئهم عن مشروعهم الأساس. ليس الهدف من ذلك محوهم من الذاكرة، بل تفكيك صورتهم الجامعة وتفريغها من تماسكها الداخلي.

في الحالة الإيرانية -مثلاً- جرت محاولات حثيثة لتفكيك صورة الشهيد (الحاجّ قاسم سليمانّي): يُقدّم تارة بطلاً قومياً، وتارة رمزاً طائفيّاً، وأحياناً أداة للنفوذ الإقليمي، أو قائداً عسكريّاً ناجحاً فحسب. هذه الزوايا لا تسعى إلى محوه، وإنّما تهدف إلى إضعاف البنية الرمزيّة الجامعة التي كان يمثّلها. وبهذا، يتراجع حضوره بوصفه رمزاً موحدًا، ويتحوّل إلى موضوع للتأويل المتنازع عليه، ما يفقده وظيفته التعبويّة.

وفي فلسطين، تُعاد صياغة صورة (ياسر عرفات) من قبل أطراف متباينة: يُحتفى به في الخطاب الرسمي، ويُشككّ فيه في الخطاب المقاوم، ويُقرأ بوصفه تاريخاً سياسياً أكثر من كونه رمزاً للكرامة

المحور الرابع - الاستراتيجية السادسة والثلاثون ١٤٣

الوطنية. ونتيجة لذلك، لا تتلقاه الأجيال الجديدة كونه قيمة مركزية، وإنما باعتباره ملفاً خلافيًا، ما يُضعف من أثره الرمزي في لحظات الصراع المصرية.

حتى صورة (الإمام الخميني) فُتِّسَتْ لم تسلم من هذا النمط من التفكيك: يُقدّم أحياناً مجدِّدًا دينيًا، وأحياناً زعيمًا سياسيًا تقليديًا، أو مفكرًا فقهياً. هذا التقطيع لا يهدف إلى محوه بل إلى فصل أبعاده عن بعضها، وتحويله إلى مرجع مجتزأ لا إلى مشروع ثوري متكامل.

وفي لبنان، خضعت صورة (السيد حسن نصر الله) (رحمه الله) لمحاولات مشابهة: هناك من يُعلي من خطابه العسكري ويُقلل من شأن خطابه السياسي، وهناك من يحتفي بمقاومته ويُشكِّك في تحالفاته، أو من يحصره في بيئة معيّنة، رغم أنّ خطابه يتجاوزها. هذه المحاولات لا تستهدف شخصه بل تضرب أثره الرمزي الذي يجمع ولا يُفَرِّق.

إنّ تفكيك القدوة لا يهدف إلى تحطيمها بل إلى نزع قدرتها على البناء الجمعي. ولهذا، فإنّ حماية الرمز لا تتحقّق عبر منع الاختلاف حوله، بل من خلال تقديمه باستمرار وحدة عضوية متكاملة، لا تقبل التقطيع وفق المزاج السياسي أو اللحظة الإعلامية. فالرمز المقاوم لا يُختصر في بعد واحد بل يظلُّ مشروعًا حيًّا، يرفض أن يتحوّل إلى صورة معلّقة فوق جمهور منقسم.

الاستراتيجية السابعة والثلاثون: تهجين الخطاب

حين يتكلَّم الرَّمزُ بِلِغَةِ خِصْمِهِ

لا شيء يفتك بـخطاب المقاومة كأن يُفرض عليه أن يتكلَّم بغير لسانه، أو أن يُعاد تشكيل منطقته الداخلي ليتلاءم مع مفردات الخصم. فالهزيمة الحقيقيَّة لا تبدأ حين تُكسر الإرادة، وإنما حين يُهجَّن الخطاب، ويُفرغ من نبرته الأصليَّة، وتُستبدل مفاهيمه القتالية بمفردات ناعمة أو حيادية أو تقنيَّة. عندها يفقد الخطاب وظيفته باعتباره أداة اشتباك، ويتحوَّل إلى غطاء للانكفاء.

هذه الاستراتيجية تُعرَف في العلوم السياسيَّة واللغويَّة بظاهرة «استعمار المفاهيم» (Conceptual Colonization)، وهي تحدث حين تنجح قوى الهيمنة في فرض قاموسها الخُلقي والسياسي على خصومها، إلى درجة أنَّهم يبدوون في استعماله دون وعي. تصبح مفردات، مثل «الاعتدال»، و«التوازن»، و«العقلانية»، و«الحياد»، و«الانفتاح»، أو «المصلحة الوطنيَّة» أدوات للتطويع لا للحوار. ويُعاد تأطير المقاومة بوصفها فعلاً يمكن إدراجه في معادلة سياسيَّة لا تُرجع المنظومة.

في الحالة الفلسطينيَّة، جرى تهجين الخطاب المقاوم تدريجيًّا، بدءًا من لحظة أو سلو. تحوَّلت مفردة «التحرير» إلى «حلِّ الدولتين»،

المحور الرَّابِعُ - الاستراتيجية السَّابعة والثلاثون ١٤٥

و"العدو" إلى "الطرف الآخر"، و"الشهيد" إلى "ضحية"، و"الحقّ التاريخي" إلى "واقعية سياسية". لم تُفرض هذه المفاهيم بالقوّة بل انسابت عبر اتفاقيّات، وتوصيات إعلامية، وممارسات دبلوماسية، حتى صار الصوت الذي يصرخ بالحقّ يبدو نشاراً في حفلة المصطلحات المستعارة.

وفي لبنان، واجه خطابُ المقاومة محاولات تهجين مكرّرة: يُطلب منه أن يكون "مدنيّاً"، وأن يستخدم لغة "الوطنية العامّة"، وأن يتجنّب "التحريض"، وأن يتبنّى توجّهًا "دستوريّاً" محايداً. لا اعتراض على هذه القيم في ذاتها، لكنّ حين تُطرح بديلاً عن روح المواجهة، يتحوّل الخطاب المقاوم إلى نشرة رسمية بلا حرارة، وبلا اندفاع، وبلا مفاجأة. كأنّ المطلوب من الرمز أن يعتذر عن صلابته، ويطلب الإذن لكي يتكلّم.

في إيران، بعد الاتفاق النووي، ضغطت الأطراف الغربيّة باتجاه إعادة تشكيل لغة الثورة، بحيث تُستخدم مصطلحات ناعمة في توصيف المشروع: من "الاستكبار العالمي" إلى "شركاء دوليين"، ومن "المواجهة الحضارية" إلى "التعاون الإقليمي". وقد رفض هذا الانزلاق كثيرون؛ لأنّهم أدركوا أن ما يُهدّد ليس السياسة فقط بل الروح التي تنطق بها السياسة.

وقد بالغت بعض القنوات والمؤسَّسات الإعلامية العربيَّة في فرض هذا التهجين على كلِّ منبر مقاوم: فاللغة يجب أن تكون "موضوعيَّة"، والتحليل يجب أن يكون "محايداً"، ولا يجوز استعمال توصيفات مثل "صهيوني" أو "إمبريالي" بل ينبغي الاكتفاء بـ"السلطات الإسرائيليَّة" أو "القوى الغربيَّة". هكذا يتحوَّل حتى الغضب إلى تمرين لغوي منضبط لا يחדش حساسيَّة أحد، لكنَّه أيضاً لا يهدد أحداً.

النتيجة النهائيَّة لهذا التهجين هي أنَّ الرمز المقاوم، حين يُضطرُّ للحديث بلسان لا يشبهه، يُصبح غريباً عن جمهوره، وضعيفاً أمام خصومه. يتراجع الخطاب من موقع الفعل إلى موقع التبرير، ويخسر فاعليَّته؛ لأنَّه لم يعد يملك زمام القاموس الذي يُفترض أن يُقاتل به. إنَّ مقاومة هذه الاستراتيجيَّة لا تتطلب الانغلاق، وإنَّما تستدعي وعياً بالمصطلح. فليس كلُّ ما يُقدَّم بوصفه مفردة حضاريَّة يصلح ليكون بديلاً عن لغة الحقِّ. ولا بدَّ من حماية الكلمات كما تُحمى الجبهات؛ لأنَّ الجبهة الأولى... كانت دوماً في الكلمة.

الاستراتيجيَّةُ الثَّامِنَةُ والثلاثون: إشغالُ النُّخبِ بالحروبِ الخُلُقِيَّةِ الجانبيَّةِ

حين يُستنزَفُ العقلُ في معاركٍ قيميةٍ مصطنعةٍ بعيداً عن
جوهرِ الصراعِ

في أزمنة المقاومة، يُفترض أن تكون النخبة الثقافية والفكرية خطأً الدفاع الأول في الحرب النفسية، وركيزة صوغ المعنى والموقف. لكنَّ العدو يدرك أنَّ هذه النخبة يمكن تحييدها دون قمع مباشر، وذلك عبر إغراقها في معاركٍ خُلُقِيَّةِ فرعيةٍ تُفتعل بعناية؛ لتتحوَّل إلى بديل عن الأسئلة الكبرى.

يُدعى المفكِّر إلى نقاش الحجاب بدل الحديث عن الاحتلال، ويُجرُّ الإعلامي إلى السجال عن الحرِّيات الشخصية بدلاً من فضح جرائم العدو. ويُستدرج الكاتب إلى معاركِ الهُوِيَّةِ، واللغة، والجندر، والعنف الأسري، والحقوق الفرديَّة، والحرِّيَّةِ الجنسيَّةِ، ومساواة الإرث، والانفتاح الثقافي... وكلُّها - رغم وجاهتها في ظروفها - تُستخدم هنا بوصفها حرباً بديلة تُشَتَّت المعنى، وتُضعف الاصطفاف.

الغاية من هذه الاستراتيجية لا تتمثَّل في خلق وعي تعدُّدي، وإنما في تضخيم الانقسامات داخل الجبهة الداخلية؛ حيث يُصبح المثقَّف

مشغولاً بتنفيذ الآخر داخل صفّه، في حين يُفترض به أن يُحاصر العدوَّ خارجَه. ويُعاد تعريف الصراع في ذهن الجمهور على أنّه صراع بين «الرجعية والتقدم»، أو «الانغلاق والانفتاح»، بدل أن يُفهم على أنّه معركة تحرُّر من نظام استعماري استعلائي.

ويُلاحظ في هذا السياق كيف تنشط مراكز تمويل مشبوهة لخلق منصّات فكرية ظاهرها النقاش القيمي، وباطنها تفتيت الاصطفاف. فينشأ تيار «تنويري» من داخل بيئة المقاومة يرفع راية «الإصلاح الديني» أو «نقد الموروث»، ليعيد رسم المشهد الفكري على أسس تُبعد الجمهور عن الالتزام السياسي المقاوم، وتنقله إلى ساحة جدل لا تنتهي.

يسمّي علم الاجتماع السياسي هذه الحالة بـ «تشتيت النخبة عبر النزاعات القيمية المصطنعة» (Elite Fragmentation by Manufactured Moral Conflicts)؛ حيث يجري توجيه رأس المشروع الفكري إلى هوامش الجدل، بدلاً من جذوره. ويصبح الدفاع عن فلسطين أقلّ جاذبية من الدفاع عن مفاهيم الحرّية كما تُصدِّرها المنظومة الغربية.

والنتيجة هي نخبة تبدو مشغولة، ومنتجة، وجريئة... لكنّها غير قادرة على بناء رواية جامعة. ومفكِّرون لا يلتقون، وكتّاب لا يُتّجون معنًى

مشتركا، وإعلام يلهث وراء كل دارج (Trend)، دون أن يرسخ بوصلة تحصن الوعي.

ومواجهة هذه الاستراتيجية لا تتطلب كبت النقاشات القيمة، وإنما تستدعي ربطها بجذورها الحضاري والسياسي. وأن تُناقش الحرية لا بوصفها سلعة غريبة، بل باعتبارها من صلب مشروع المقاومة. وأن يُعاد وصل النقاش الخُلقي بالعدالة، والهوية بالتحريم، والحدثة بالكرامة الوطنية. فالمثقف المقاوم لا يهرب من الأسئلة... لكنه لا يسمح لها أن تسرق منه ساحة الاشتباك.

الاستراتيجية التاسعة والثلاثون: تحويل النقد إلى خصومةٍ

حين يصبحُ الاعتراضُ المشروعُ مدخلاً لشيطنَةِ الموقفِ كلِّهِ في بيئات المقاومة الحيَّة، يُعدُّ النقدُ جزءاً من البنية السليمة، وعلامة على التفاعل الناضج. لكنَّ الحرب النفسية تتسلَّل إلى هذا الفضاء عبر أسلوب شديد الخبث: تضخيم النقد وتحريفه ليظهر كأنه موقف عدائي، وليس مجرد اعتراض موضعي. وهكذا، يُعاد تعريف النقد لا بوصفه حقاً، وإنما باعتباره خيانة محتملة.

تبدأ هذه الاستراتيجية عادةً بتمرير تساؤلات مشروعة على لسان شخصيات معروفة بصدقها، ثمَّ تُسحب تلك التساؤلات إلى فضاء التشكيك، وتُستعمل دليلاً على انقسام داخلي. يتلقَّف الإعلام المعادي هذه العبارات، ويعيد نشرها، ويضخمها، ويُعلِّق عليها بتحليلات توحى بأنَّ «البيت المقاوم يتصدَّع من الداخل».

في لبنان مثلاً، يُضخَّم كلُّ اعتراض داخل بيئة المقاومة كأنه انشقاق. وفي العراق، يُقدَّم كلُّ نقد على أداء سياسي ما بوصفه دليلاً على نهاية المشروع. وفي فلسطين، تُؤخذ الخلافات بين الفصائل أو داخل الحركة الواحدة، وتُبنى عليها سرديات انهيار وشيك. وفي كلِّ الحالات، لا

المحور الرابع - الاستراتيجية التاسعة والثلاثون (١٥)

يقرأ النقد بوصفه علامة وعي، بل يُوظف بوصفه أداة ضرب. لا يمنع العدو النقد بل يُرحّب به، بشرط أن يُستثمر ضدّ أصحابه. فيراد للناقد أن يشعر بالذنب، أو بالخيانة، أو أن يجري تصنيفه سريعاً في خانة «الخصوم». وهذا ما يخلق بيئة داخلية متوتّرة: لا أحد يجرؤ على قول ما يفكرّ به، خشية أن يُفسّر كلامه تمرّداً أو تخلياً، فتغيب المسألة... وتُغتال الشجاعة النقدية.

وفي علم النفس التنظيمي، تُعرف هذه الحالة بما يُسمّى «فخّ الاستقطاب المفرط» (Hyper-Polarization Trap)؛ حيث تُقسّم الجماعة إلى «موالين بالكامل» و«مشبوهين بالكامل» دون مساحة وسطى. وبهذا، تفقد البنية مناعتها؛ لأنّ المناعة تنشأ من القدرة على النقد الذاتي دون تهديد للتماسك.

إنّ الهدف النهائي لهذه الاستراتيجية هو ضرب التماسك من خلال زراعة الخوف من الاختلاف. فإذا أصبح كلُّ اعتراض يُفهم عداءً، فلن يتجرأ أحد على الاعتراض. وإذا صار النقد يُعرف بأنه باب لتفجير الصفِّ، فالأرجح أن يختار الناس الصمت... أو المبالغة في الولاء.

ومواجهة هذه الآلية تبدأ من التمييز الصارم بين النقد الواعي الذي يُبنى على حبّ المشروع، وبين الخطاب الموجّه الذي يُراد له

المحور الخامس:

استراتيجيات الانسحاب الرمزي والتأجيل

الاستراتيجيةُ الأربعةون: انحناءُ العارفِ

حين يتراجعُ العدوُّ قليلاً... كي تنحني له دون أن تراه واقفاً في تقنيّات المسرح القديمة، تُستخدم الانحناءة عند نهاية العرض إشارة على الاكتمال. لكنّها لا تُعبّر عن انكسار، وإنّما تُؤدّي بوصفها طقساً رمزياً يغري الجمهور بالتصفيق. وفي هذا السياق، لا تُعدُّ الانحناءة اعترافاً بالهزيمة، وإنّما تُمارَس بوصفها فنّاً في الإيحاء بالضعف من موقع قوّة. وهذا تماماً ما تفعله منظومة الهيمنة حين تُفعل استراتيجية «انحناء العارف»؛ حيث يُبدي العدو تواضعاً، أو يتراجع مرحلياً، أو يُظهر فتوراً في الخطاب، لا لأنّه خاسر، وإنّما ليعيد تموضعه في لا وعي خصمه.

هذه الاستراتيجية لا تعتمد على المواجهة المباشرة، وإنّما تركز على الإيحاء المضللّ. فبدلاً من الاستمرار في التصلّب والمجابهة، يُقدّم العدو نفسه كمن يفهم الأزمة، ويتعاطف مع آلام الآخر، وينفتح

على الحوار، ويُظهر استعداداً لسماع النقد بل ويُلمّح إلى أنّه كان ظالماً. لكنّه لا يفعل ذلك بدافع الاعتذار، وإنّما ليُعيد هندسة التوازن النفسي بينه وبين خصمه. ما يفعله لا يُعدُّ مراجعة حقيقية، وإنّما انحناءة محسوبة بدقّة، تهدف إلى نقل القناع من وجهه إلى وجه من يواجهه. في سياق الحروب النفسيّة، تتخذ هذه الانحناءة أشكالاً متعدّدة:

١. مسؤول سياسي غربي يعترف بأنّ بلاده ارتكبت «أخطاء» في الماضي، لكنّه يؤكّد أن الوقت الآن للتقدّم لا للمحاسبة.

٢. مفكّر أمريكي يكتب عن «الصدمة الحضاريّة» التي سبّبها الاستعمار، ثمّ يختم بأنّ العالم بحاجة إلى تجاوز روايات الضحية.

٣. مؤسّسة غربية تصدر تقريراً يعترف ب«عدم التوازن في التغطية الإعلامية» لفلسطين، لكنّها تدعو إلى «الحياد في المعالجة القادمة».

رئيس دولة احتلال يضع إكليلاً على نصب ضحايا بلد عربي، في مشهد مصمّم بعناية ليُحاكي مشاعر الضحيّة، لا من أجل مواساتها، وإنّما لإسكاتها بعد أن أبدى تعاطفه.

الانحناءة هنا تؤدّي وظيفتين متكاملتين:

١. تذويب الفارق بين الجالّد والضحية، من خلال خطاب

المحور الخامس - الاستراتيجية الأربعون ١٥٧

يُوحى بأنَّ الجميع مسؤول، وأنَّ لا أحد بريء بالكامل، وأنَّ الوقت قد حان «للمضي قدماً».

٢. تحييد صورة العدوِّ في الذاكرة الجمعيَّة، لا عبر إنكار جرائمه، وإنَّمَا من خلال دمجها في سردية تصالحيَّة تُفرغها من أثرها الصادم.

يُفسِّر علم النفس الاجتماعي هذا النمط بما يُعرف بـ«الإشباع العاطفي المسبق» (Preemptive Emotional Saturation)، أي أن يُقدِّم ردُّ فعل رمزي يُرضي الضحية قبل أن تطالب به، ما يُضعف قدرتها على الغضب أو الفعل. يشبه ذلك ما تفعله الإعلانات حين تُظهر «منتجاً يتفهَّم مشكلتك» قبل أن تشتكي، فيوهمك بأنَّ الأزمة قد حُلَّت لمجرّد أنها سُمِّيت.

ويظهر هذا التكتيك بوضوح في بعض وسائل الإعلام الغربيَّة: فحين تشتدُّ الإدانات، يُفتح المجال لتقرير نقدي، أو مقابلة مع ناشط فلسطيني، أو تحقيق مصوَّر عن طفل شهيد. لكن هذه المواد لا تُعرض باعتبارها اتِّهاماً مباشراً، وإنَّمَا جزء من تغطية «متوازنة» تعترف بتعقيدات المشهد.

وهكذا، تتحوَّل الجريمة إلى حالة إنسانيَّة، وتُعاد صياغة المسؤوليَّة، وتُفتح نوافذ صغيرة للتنفيس، لا للتغيير.

وهذه الانحناءة الناعمة تنتقل لاحقاً إلى وعي الضحية نفسه، فيبدأ بالتفكير في "فرص التواصل"، أو "إمكانيات الإصلاح"، أو "التفاهم مع العدو الناضج". فيدخل في دوامة تصالحية لا تنبع من قناعة، وإنما من خداع رمزي صُمِّم بدقة عبر اعترافات ظاهرها تواضع، وباطنها تحصين للهيمنة.

أمّا مقاومة هذه الاستراتيجية فتبدأ من رفض السرديات المجتزأة مهما بدت مهذّبة. فحين يُظهر العدو ندمًا دون تحمُّل تبعاته، يجب أن يُسأل: وماذا بعد؟ وحين يُبدي انفتاحًا، لا بدّ من التساؤل: إلى أين يريد أن يفتح الباب؟ فالانحناءة، في قاموس الهيمنة، لا تُفهم باعتبارها علامة ضعف، وإنما تُمارَس باعتبارها خطوة محسوبة للعودة من زاوية غير متوقّعة. ومن لا يميّز بين التواضع الحقيقي والتلاعب الرمزي، قد يصفّق للعدو وهو يلقي سلاحه دون أن يدري.

الاستراتيجية الحادية والأربعون: انسحابٌ في الضوء

حين يُصمَّمُ العدوُّ تراجعَهُ لِيُفْرَغَ انتصارَكَ من مضمونه يُعدُّ الانسحاب، في المتخيل المقاوم، مكسبًا وعلامة على اهتزاز العدو، ودلالة على ضغط مؤثّر أو خسارة ميدانية. فهو لحظة تُقرأ عادةً بوصفها ثمرة لصمود طويل أو نتيجة مباشرة لفعل ميداني ناجح. لكنَّ الحرب النفسِيَّة لا تتعامل مع الوقائع كما تظهر، وإنما مع ما يُزرَع في الوعي عند تأملها. وفي هذا السياق، تطوّر منظومة الهيمنة نوعًا خاصًّا من الانسحاب: لا يجري في الظلّ، ولا يُقدّم باعتباره استجابة قسرية، لكنه يُخرَج بإخراج مدروس، ويُعلن عنه في وضوح النهار، ضمن طقوس رمزيَّة مبهرة، بوصفه تراجعًا خُلُقِيًّا، أو قرارًا عقلائيًّا، أو استجابة مسؤولة. وهكذا يتحوّل الانسحاب إلى أداة لإعادة رسم موقع العدو في الذهنية الجمعية، فيُقدّم بوصفه متحكّم في إيقاع الحدث حتى في لحظة تراجعهِ. الفارق الجوهرى بين هذه الاستراتيجية وما سبقها، من أمثال «بزوغ من الفراغ» أو «انحناء العارف»، أنّ العدو هنا لا يتوارى، ولا يتظاهر بالضعف أو التواضع، عوضًا عن ذلك ينسحب بطريقة صاخبة، واحتفالية، ومحسوبة، تُقابلها حالة من التوهّم السريع لدى الطرف الآخر الذي يعتقد أنّهُ فرض الانسحاب بقوّته، فيما تكون هذه النتيجة

هي بالضبط ما أراد العدو الوصول إليه. الانسحاب هنا بداية مرحلة جديدة من إعادة التوضع وليس نهاية معركة.

في «بزوغ من الفراغ»، يُخَلَّى المجال لتأتيك من الخلف قوَّة ناعمة تملأ الحيز بدلاً من أن تواجهك. في «انحناءة العارف»، يُقدِّم التراجع بوصفه تحولاً ذاتياً ناضجاً يمهد لتسوية أو مصالحة. أما في «انسحاب في الضوء»، فالعدو يرسم مشهد انسحابه بطريقة تُشغلك عن قراءته سياسياً. يُوجِّه انتباهك إلى لحظة الانسحاب، في حين يكون قد أنهى ما يريد إنهاءه، وانتقل إلى مستوى جديد من الهمينة. وهنا لا يُترك لك وقت للتأمل أو لإعادة بناء السردية، وإنما تُغمر اللحظة بالضجيج، وتُغلق أمامك نوافذ التأويل.

لا تكمن خطورة هذه الاستراتيجية في مجرد الانسحاب بل في الطريقة التي يُنفَّذ بها، وفي التوقيت الذي يُختار، وفي الرواية التي تُقدِّم عنه. كما تتجلى في ما إذا كانت المقاومة أو المجتمع سيتمكَّنان من صياغة سردية مستقلة، أو سيجري تبني رواية العدو لأنها سبقت إلى الفضاء الإعلامي، وتكررت في الخطاب الدولي، واحتفى بها جمهور يبحث عن نصر رمزي بأيِّ ثمن. فالمعركة هنا لا تُحسم في الميدان فقط بل في الوعي، وفي من يملك الكلمة الأولى.

أمثلة هذه الاستراتيجية متعددة، من أبرزها الانسحاب الأميركي

المحور الخامس - الاستراتيجية الحادية والأربعون ١٦

من العراق عام ٢٠١١؛ حيث جرى تقديم الخروج العسكري على أنه إنجاز ديمقراطي. خرجت القوات المحتلة نهائياً، في وضوح الضوء، مع وعود بدعم العراق المستقل، فيما بقيت السيطرة عبر المرتزقة، والعقود، وأجهزة الرصد، والطبقة السياسية المبرمجة. انسحاب تحت الشمس أعاد رسم الخريطة دون طلقة واحدة، وترك خلفه بنية سياسية وأمنية تابعة، تُدار من بعيد.

وفي فلسطين، تكرر هذه التقنية مع كل إعلان عن «وقف إطلاق نار أحادي الجانب»، أو «إعادة تموضع»، أو «انسحاب مرحلي». تُقدّم هذه الخطوات بوصفها قرارات إنسانية مدروسة، وتُفتح لها نوافذ في الإعلام العالمي، فيُنظر إلى العدو بوصفه مبادراً، في حين يُصوّر المقاوم من يواصل القتال عناداً أو رفضاً للحلول. وهكذا يُعاد تموضع العدو في الأرض وفي وعي الجمهور العالمي والمحلي معاً، ويُعاد تعريف الفعل المقاوم بوصفه عبئاً على لحظة الانفراج.

ما تفعله هذه الاستراتيجية هو تفرغ النصر من شرطه التراكمي. تُحاصر اللحظة، وتُعاد صياغتها، وتُغرق بالأضواء، فتبدو كأنّها نهاية فصل لا بداية مرحلة. تنقطع السلسلة السردية، ويتحوّل التراجع إلى تسوية، والمواجهة إلى توازن، والفعل المقاوم إلى عنصر إزعاج في مشهد الانفراج العام.

لذلك، لا تكفي مراقبة حركة العدو على الأرض. من الضروري تتبُّع ما يُقال عن هذه الحركة، ومن الذي صاغ الرواية الأولى، ومن يملك الإضاءة التي سُلِّطت على المشهد. حين يختار العدو أن ينسحب في الضوء، فهو لا يفعل ذلك بدافع الشفافية، بل لتوجيه زاوية الرؤية إلى حيث يريد هو لا إلى حيث يجب أن تُوجَّه.

والفرق بين أن ترى انسحابه فعل اضطرار، أو أن تراه كما أراده هو؛ إنجازاً في ضبط الإيقاع، وهو الفارق بين من يقرأ الحدث، ومن يُعاد تكوينه عبر قراءة العدو.

الاستراتيجية الثانية والأربعون: خفة التوقيت

حين يختارُ العدوُّ اللَّحظةَ المناسبةَ كي لا يشعرَ أحدٌ بثقله يُقاس وقع الفعل من خلال شدته، ورمزيته، وتوقيته معاً. وفي الحروب النفسية، يُعامل التوقيت بوصفه عنصراً حاسماً في إنشاء المعنى أو محوه، ويتجاوز كونه تفصيلاً عابراً. فالفعل الكبير قد يُمحي إذا وُضع في لحظة خطأ، والحدث الصغير قد يتضخم إذا أُدخل في ظرف معين. وهنا تشتغل استراتيجية «خفة التوقيت» بوصفها شكلاً من أشكال الإخفاء الرمزي، حين يتعمد العدوُّ اختيار لحظة بعينها لفعل ما - انسحاب، وتصعيد، وتصريح، واعتراف، حتى جريمة - بحيث لا يُحدث أثراً يُذكر. يفقد الحدث أثره رغم أهميته؛ لأنَّ التوقيت صُمم عمداً ليُبقيه خارج مجال الرؤية.

تقوم هذه الاستراتيجية على تبخير الفعل من الذاكرة العامة، لا على إخفائه المباشر. وقد يُنفذ الحدث في يوم عالمي مزدحم (كيوم الانتخابات، أو عيد رسمي، أو ذكرى شهيرة)، أو خلال كارثة أكبر (كزلزال، أو انهيار سياسي في منطقة أخرى)، أو أثناء ضجة مفتعلة (قضية فنية أو فضيحة خلّقية أو شائعة مدروسة). الهدف من كل ذلك هو منع الفعل من أن يجد حيزاً رمزياً يسمح له بأن يتحوّل إلى وعي، أو يُشكّل صدمة تغيّر المشهد.

يفسّر علم النفس المعرفي هذه الظاهرة ضمن ما يُعرف بـ «تأثير التراكب الإدراكي» (Perceptual Overload)، وهي حالة يُصاب فيها الذهن بالعجز عن المعالجة أو التفاعل الفعّال مع حدث جديد؛ بسبب وجود فائض من المحفّزات أو المثيرات المتزامنة. في مثل هذه الحالة، يدرك الإنسان الحدث، لكنّه يعجز عن إدماجه في وعيه بفعاليّة، لانشغاله بمعالجة ما قبله أو ما يليه. وهكذا، لا يُنكر الحدث، لكنّه لا يترسّخ في الذاكرة، ولا يتحوّل إلى موقف.

لهذا السبب، يختار العدوُّ توقيتاتٍ بالغة الحرفيّة:

١. يُعلن عن تطبيع ما في ذروة أزمة اقتصاديةٍ محلّية.
٢. يُنفذ عملية اغتيال في ذيل نشرة مليئة بكوارت دولية.
٣. يقرّ قانوناً استيطانيّاً في اليوم التالي لانفجار سياسي في بلد آخر.

٤. يصدر اعترافاً بارتكاب مجزرة أثناء تغطية حدث رياضي عالمي.

بهذه الطريقة، يُبقي العدوُّ فعله ظاهراً، لكنّه يُفرغه من أثره الواضح عبر التحكّم في لحظة ظهوره. يبدو المشهد كأنّ الجمهور غير مكترث، في حين أنّ لحظة الإدراك قد سُلبت منه عمداً. يجري التحكّم ليس فقط في مضمون ما يُقال، بل أيضاً في توقيته؛ لأنّ المعنى يتشكّل من

السياق الزمني بقدر ما ينبنى على المحتوى.

في الحالة الفلسطينية، كم من المجازر والإجراءات التهويدية الكبرى مرّت مرور العابرين، فقط لأنّ الإعلام العالمي كان مشغولاً بشيء آخر. في كل مرة يُرتكب فيها فعل خطير، يظهر خبر صغير: "أعلنت سلطات الاحتلال عن بناء ٣٠٠ وحدة استيطانية جديدة"، لكنّه يُدرج في اليوم ذاته الذي تعصف فيه أزمة بحكومة غربية، أو ينشغل العالم بزلزال، أو تُهيمن قضية خلافيّة في الداخل الفلسطيني. والنتيجة، يمرّ الخبر بلا موجة، ويُسحب من التداول قبل أن يُنتج أثراً.

وفي لبنان، اعتمد العدو مراراً على هذه التقنية خلال الاعتداءات المتقطّعة على الجنوب؛ حيث يجري تنفيذ غارات محدودة أو خروقات جويّة تزامناً مع اشتعال ساحات إقليميّة أخرى. وبهذا يُسلب الحدث من أي معنى تصعيدي، ويُدرج في خانة "الروتين الأمني"، رغم أنّه يمثّل جزءاً من معركة تراكميّة أشدّ خطورة. فحين يُنقذ العدوان في لحظة مزدحمة، لا يُقرأ بوصفه تصعيداً بل يُعامل بوصفه حدثاً عابراً.

يصف علم الاجتماع الإعلامي هذه الديناميّة ضمن ما يُسمّى بـ "تأطير الانتباه" (Framing of Attention)، وهو ما يجعل من توقيت النشر أو التغطية جزءاً من السيطرة على الرأي العام. فالخبر السيئ، إذا نُشر في ساعة مزدحمة، يموت دون مقاومة. والحدث الحاسم، إذا

وُضِعَ فِي تَوْقِيْتِ يُشْتَتُّ الْاِتْنَبَاهُ، يُدْفَنُ حَيًّا فِي أَرْشِيفِ الْيَوْمِيَّاتِ.
 مِنْ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَتَجَاوَزَ وَعَيْنًا حُدُودَ الْأَفْعَالِ إِلَى إِدْرَاكِ التَّوْقِيْتِ
 الَّذِي يُحِيطُ بِهَا. عَلَيْنَا أَنْ نُعِيدَ تَرْتِيبَ أَوْلَوِيَّاتِ الْمَتَابَعَةِ وَالْاِحْتِجَاجِ
 وَالتَّحْلِيلِ وَفَقَ مَا يَسْتَحِقُّ التَّرْكِيزَ وَالتَّحْلِيلَ، لَا وَفَقَ مَا يُقَدِّمُ لَنَا فِي
 جَدُولِ الْأَحْدَاثِ؛ لِأَنَّ الْحَدَثَ الَّذِي يَفْقَدُ تَوْقِيْتَهُ الْمُنَاسِبَ غَالِبًا مَا
 يُهَمِّشُ لِاحْتِقَاقًا. رَغْمَ أَهْمِيَّةِ الْحَدَثِ، فَإِنَّ لِحِظَةَ التَّفَاعُلِ مَعَهُ قَدْ سُرِقَتْ
 عَمْدًا.

يُمَارَسُ التَّوْقِيْتِ بِصِفْتِهِ أَحَدُ وَجُوهِ الْفِعْلِ لَا خَلْفِيَّةَ زَمْنِيَّةَ مَحَايِدَةٍ.
 وَمَنْ يَتَحَكَّمُ بِالسَّاعَةِ، قَدْ يَتَحَكَّمُ بِكُلِّ مَا نَظَنُّهُ وَعَيْنًا

الاستراتيجية الثالثة والأربعون: استراحة المفاجأة

حين يُخَفِّفُ العدوُّ الصَّدْمَةَ... لِيَمْنَحَكَ وَهَمًّا أَنْكَ تَجَاوَزْتَهَا فِي الْعَمَلِيَّاتِ النَّفْسِيَّةِ الْكَبْرَى، تَتَكَوَّنُ الصَّدْمَةُ مِنْ عُنَاصِرٍ مَتْرَاكِبَةٍ، تَبْدَأُ بِشِدَّةِ الْفِعْلِ، وَتَمْتَدُّ إِلَى تَتَابُعِهِ، وَسُرْعَتِهِ، وَاسْتِمْرَارِهِ فِي الْوَعْيِ، مَا يَجْعَلُ الضَّرْبَةَ الْأُولَى خَطِيرَةً هُوَ اسْتِمْرَارُهَا فِي الذَّهْنِ، لَا لِحَظَّتِهَا الْعَابِرَةَ. فَالْمَفْجَأَةُ لَا تُقَاسُ بِحَدَّتِهَا فَقَطْ، بَلْ بِقَدْرَتِهَا عَلَى الْبَقَاءِ مَفْتُوحَةٍ، غَيْرِ مَكْتَمَلَةٍ، تَمْنَعُ الْخَصْمَ مِنَ التَّقَاطُفِ أَنْفَاسِهِ أَوْ ابْتِكَارِ اسْتِجَابَةٍ مُسْتَقَلَّةً. وَعِنْدَمَا يُرَادُ لِلصَّدْمَةِ أَنْ تَفْقِدَ أَثْرَهَا، وَيُرَادَ لِلْوَعْيِ أَنْ يُعَادَ تَشْكِيلَهُ بِطَرِيقَةٍ مَحْكُومَةٍ، تَبْدَأُ مَنظُومَةُ الْهَيْمَنَةِ بِتَفْعِيلِ اسْتِرَاطِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ: مُوَاجَهَةٌ غَيْرَ مُبَاشِرَةٍ، وَتَبْرِيرٌ غَيْرُ صَرِيحٍ، وَاسْتِرَاحَةٌ مَحْسُوبَةٌ مِنَ الْمَفْجَأَةِ تَمْنَحُ الطَّرْفَ الْآخَرَ شَعُورًا زَائِقًا بِأَنَّهُ اسْتَعَادَ السَّيْطِرَةَ، فِيمَا يَكُونُ قَدْ دَخَلَ فِي طُورٍ جَدِيدٍ مِنَ التَّكْيِيفِ الْقَسْرِيِّ.

فِي هَذِهِ الْاسْتِرَاطِيَّةِ، يُبْقِي الْعَدُوُّ الْحَدِثَ الصَّادِمَ قَائِمًا، ثُمَّ يُتَّبِعُهُ بِلَحْظَةٍ تَهْدِئَةٍ: تَصْرِيحٌ «تَطْمِينِي»، وَخُطْوَةٌ جَزِئِيَّةٌ لِلخَلْفِ، وَلَفْتَةٌ إِنْسَانِيَّةٌ رَمْزِيَّةٌ، أَوْ حَتَّى اعْتِذَارٌ مَحْدُودٌ. الْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْخُطُواتِ لَيْسَتْ الْاعْتِرَافُ، بَلْ خَلْقُ اسْتِرَاحَةٍ وَجَدَانِيَّةٍ تُعِيدُ ضَبْطَ الْمَشْهَدِ، فِي لَحْظَةٍ كَهَذِهِ، يَتَرَاوَعُ الْغَضَبُ إِلَى خَلْفِيَّةِ الْوَعْيِ، وَيُظَنَّ الْمَتَلَقِّي أَنَّهُ تَجَاوَزَ

الصدمة، لكنَّ ما تجاوزه فعلياً هو حالة الإنكار المؤقت لها، فيما بقيت الصدمة نفسها كامنةً في العمق.

هذه التقنية تركز على ما يُعرف في علم النفس بالية «الانكماش العاطفي المشروط» (Conditioned Emotional Constriction)؛ حيث يُدرَّب الوعي على تقبُّل الصدمة من خلال مساحات مصغَّرة للراحة، تُهدئ الجهاز النفسي دون معالجة جذرية للمشكلة. في هذا السياق، لا يواجه الإنسان الصدمة، بل يُقنع نفسه بأنَّه لم يعد مضطراً لمواجهتها؛ إمَّا لأنَّ الطرف المسبَّب لها تغيَّر، أو لأنَّ الظروف المحيطة بها لم تعد كما كانت. وهنا يكمن الخطر الحقيقي: حين يتحوَّل التكيُّف إلى بديل عن الفهم، والتهدئة إلى بديل عن المواجهة.

تُستخدم هذه الاستراتيجية بكثافة في السياقات السياسيَّة بعد الجرائم الفادحة أو الكوارث الكبرى. يُقتل أبرياء في غارة، ثمَّ يظهر متحدِّث باسم العدو، ليقول إنَّ «ما حدث خطأ غير مقصود»، أو «سيجري التحقيق»، أو «نأسف لسقوط ضحايا». بهذه الطريقة، يُعاد تقديم الحدث بوصفها واقعة مؤسفة مع طمس طابعه المنهجي الذي يكشف عن بنيتِه الجرميَّة، وتمنَح الجماهير فرصة للهدوء واستعادة التوازن، ضمن ضغط خُلقي ناعم يقول: لقد عبروا عن أسفهم، فلماذا لا تتابع حياتك؟

ما يميّز هذه الاستراتيجية عن غيرها، مثل انحناء العارف أو ابتسامة الصدمة، هو أنّ استراحة المفاجأة- هذه الاستراتيجية- تُبقي الحدث في صورته الأصلية دون إعادة تأويل، وتمتنع عن تبني موقع الضحية. وبدلاً من ذلك، تفصل بين الصدمة والاستجابة لها بفواصل زمني يُخفّف الأثر دون أن يُنتج وعياً فعّالاً، ريثما تستأنف المنظومة هيمنتها من موقع أكثر هدوءاً. إنّها لحظة مصمّمة لتقليل التوتر، لا لتفكيك أسبابه.

وفي التجربة الفلسطينية، تُستخدم هذه التقنية في لحظات التهذئة التي تلي حملات القصف الكبرى. بعد كلّ جريمة صهيونية مدوية، لا تُترك الساحة لانفجار دائم، إنما يُفتح المجال لتدخلات ”الوسطاء“، و”الضمانات الإنسانية“، و”الإغاثات“، و”المفاوضات العاجلة“.

يُستدرج الوعي الشعبي من لحظة الغضب إلى لحظة الانتظار، ثمّ إلى لحظة قبول التسويات باعتبارها ضمانات لعدم العودة إلى المجازر. وبهذا، تتحوّل الاستجابة من مسار تغييري إلى انفعال قصير المدى، يتلاشى سريعاً دون أثر بنوي.

ومن المهمّ هنا أن نلاحظ أنّ هذه الاستراحة ليست محايدة، بل مصمّمة لإحداث قطيعة وجدانية مع أثر الصدمة. إنّ الغاية منها لا تتعلّق بمصلحة الضحية، بل بوقف اندفاعها قبل أن تتحوّل إلى نقد للنظام أو تفكيك للبنية التي أنتجت الجريمة. إنّها لحظة تحييد، وليست لحظة

فهم. ولذلك، ينبغي التعامل معها بوصفها جزءاً من المخطَّط العام لطمس التحوُّل المحتمل، لا فرصة حقيقية للهدوء. في الحروب النفسيَّة، لا تقتصر السيطرة على الفعل نفسه، لكنَّها تشمل أيضاً اختيار اللحظة التي يتوقَّف فيها الفعل مؤقتاً. هذا التوقف يهدف إلى إعادة تشكيل الوعي لا الانسحاب، وهو يظنُّ أنَّه تعافى. وهنا، يصبح الصمت أداة، والتهدئة سلاحاً، والراحة المؤقَّتة وسيلة لإعادة إنتاج الهيمنة في صورة أكثر نعومة.

الاستراتيجية الرابعة والأربعون: تضخيم الهوامش

حين تُرْفَعُ الفروقاتُ الصَّغِيرَةُ لتفتتِ الكتلةِ الكبرى لم يكن طريق التدمير دائماً يمرُّ عبر جبهات النار. أحياناً، يكون أقصر مسار نحو الانهيار هو عدسة مكبِّرة تُسَلِّطُ على تفصيلا صغيرة، فتكبر في الوعي حتى تبتلع الفكرة الأصليَّة. هكذا تعمل الحرب النفسيَّة حين تختار إنهاك الجبهة من الداخل: لا عبر القصف بل عبر التضخيم، ولا من خلال الهجوم بل من خلال تعظيم التباين حتى يبدو تناقضاً لا يُحتمل.

في علم النفس السياسي، يُصنَّفُ هذا النوع من الممارسات تحت مفهوم «الاستقطاب المتصاعد» (Escalating Polarization)، وهي آلية إدراكية واجتماعية يُعاد فيها إنتاج الخلافات الثانوية بين الأفراد أو الجماعات بطريقة تجعلها تبدو أكثر أهمية وتهديداً مما هي عليه في الواقع. وتُسهم هذه الآلية في تفتت أي تكتل جماعي قائم على هدف مشترك؛ إذ تدفع الأفراد إلى التمرس حول فروق الهوية، وتُبعدهم عن التركيز على وحدة المصير.

في بيئة المقاومة، تظهر الفروقات الطبيعية بين القوى، أو التيارات، أو الخطابات جزءاً من حيوية المشروع وتعدُّديته. لكن تأطير هذه

التباينات بلغة الصراع، وتقديمتها في الإعلام أو في النقاش العام باعتبارها علامات على تفكُّك وشيك، يحوّل الخلاف إلى تهديد. فتصريح صغير يُجتزأ من سياقه، يُعاد تدويره، ويحلّل بتفاصيل لا نهائية، ونُهْمَس القضية الأصلية. بهذه الطريقة، يُنتزع المشروع من مركزه، ويُسحب الخطاب إلى الهامش.

في إحدى المواجهات الحادّة مع العدو، اختار الإعلام المعادي تجاهل الخسائر والردود، وركّز بدلاً من ذلك على "تناقض التصريحات" بين جناحين من جبهة المقاومة. وفي موضع آخر، لم تُوجّه الانتقادات إلى أفعال القائد الميداني، بل أُثيرت تساؤلات عن خلفيته الفكرية ولهجته ولون خطابه. تتحوّل التفاصيل إلى مركز النقاش، ويُستدرج الجمهور إلى جدل عمّا كان ينبغي تجاوزه.

الأمثلة عديدة ومتكرّرة: تُفتَح معركة جانبية على اختيار كلمة في خطاب، أو لون شعار، أو توقيت إعلان. تُطرح خلافات ظرفية — على آلية تنسيق، أو أسلوب تعبير — كأنّها مؤشّرات على انقسام جذري. بل أُدير بعض الحملات كأنّ المطلوب من كل طرف في المقاومة أن يُثبت "أصالته" عبر تمييز نفسه عن الآخرين. وبدلاً من تعزيز التماسك، جرى توجيه الانتباه نحو خطر الانقسام، حتى أصبح شبّحه أكثر حضوراً من العدو نفسه. وعندما يتحوّل الخوف من الانقسام إلى

المحور الخامس - الاستراتيجية الرابعة والأربعون ١٧٣

هاجس، ينشغل المشروع بمراقبة شظاياها، ويغفل عن صورته الكاملة. تكمن الخطورة هنا في الانشغال بالشرح ذاته؛ إذ تتحوّل النقاشات الداخلية إلى شغل الجمهور، فيفقد تركيزه على الخصم الحقيقي، وتُستنزف طاقة المجتمع المقاوم في تفنيد القريب، في حين يتراجع حضور العدو في الوعي. هذه الدينامية تُستثمر بإتقان في الإعلام ووسائل التواصل؛ حيث تُرفع النقطة الجانبية إلى عنوان المعركة، وتضع الرؤية.

في علم الاجتماع، تُعرف هذه الحالة باسم "نقل مركز الثقل الإدراكي" (Cognitive Focus Shift)؛ حيث يُدفع الأفراد إلى التركيز على تفاصيل مشتتة، فيغيب عنهم إدراك الكل. وهذا هو جوهر الاستراتيجية؛ تحويل الجمهور من حامٍ للمشروع إلى ناقد تفصيلي لكل ما فيه حتى يُستنزف.

من هنا، فإنّ مقاومة هذا النوع من الحرب النفسية تتطلب وعياً بحدود التباين، وضبط حجمه، وتأطيره ضمن سياق جامع. فحين يُدار التنوع بوعي، يتحوّل إلى مصدر قوّة، ويسهم في ترسيخ المشروع بدلاً من تفكيكه. والمشروع الذي يحافظ على توازنه بين أطرافه وقلبه، يظلّ صامداً حتى في غياب الهجوم المباشر.

الاستراتيجية الخامسة والأربعون: الإغراق الرمزيُّ

حين تتحوَّلُ الشُّعاراتُ إلى أقفاصٍ لغويَّةٍ

في كتابها «من الذي دفع للزمار؟»، تسردُّ الباحثة تفاصيل أحد مشاريع الاستخبارات المركزيَّة الأميركيَّة لمواجهة تصاعد المدِّ الإسلامي في مصر؛ حيث ارتكز المشروع على إنشاء تيارٍ موجِّه، ومُدار استخباريًّا، يتماهى مع المشهد العام ويبدو مألوفًا، فيما يُعاد تشكيله من الداخل. وعند التفكير في الشعار الأنسب لاستقطاب الشباب، وقع الاختيار على شعار «معاداة إسرائيل»؛ لما يحمله من إجماع وجداني، وما يمنحه من شرعيَّة تلقائيَّة، وما يوفِّره من حصانة ضدَّ التشكيك. فالجماعة التي ترفع هذا الشعار تُمنح تلقائيًّا موقعًا داخل الصف الوطني، ويُنظر إليها بوصفها امتدادًا طبيعيًّا للوجدان الجمعي.

تتجاوز أهميَّة الشعار مجرد رفعه؛ إذ تتعلَّق بالجهة التي تتبنَّاه، والغاية التي تخدمها، والمسار الذي تسلكه. فقد استُخدم الشعار غطاءً، واستُثمرت رمزيَّته لحماية اختراق ناعم. ومع تكرار الخطاب المألوف، ساد شعور بالاطمئنان؛ لأنَّ اللغة مألوفة، والنبرة مألوفة، واللافتة مألوفة. وهنا تتجلَّى الإغراق الرمزي؛ حيث تُغرَق الساحة بالشعارات الحقَّة، لا بهدف ترسيخها بل لتفريغها من معناها عبر التكرار المبتذل

والتوظيف المغشوش.

يدرك العدو أنّ الشعار المقاوم يكتسب فعاليته حين يُربط بالفعل، ويتراجع أثره حين يُستخدم صدى صوتي بلا مضمون. فحين يُرفع بكثافة دون خطّة أو سياق، يتحوّل إلى قشرة لغويّة تفتقر إلى الفاعلية، ويغدو قابلاً للتوظيف في مشاريع متباينة: حزب مولّد، ومنصّة ممولة، وحركة مشبوهة، أو حتى نجم إعلامي يرفع لافتة فلسطين فيما يتبنّى خطاباً يُشرعن التطبيع.

لقد فهمت أجهزة الحرب النفسيّة الغربيّة أنّ الشعار يحتفظ بقوّته حين يُفعل ضمن مشروع، ويُفرغ من مضمونه حين يُستخدم بوصفه أداة استقطاب صوتي. فعند فصله عن الفعل، يتحوّل إلى مفتاح لجذب الانتباه، ثم يُحبس في فقاعة لغويّة، ويتحوّل «التحرير» من خطّة إلى لافتة، و«العدالة» من مشروع إلى نشيد.

في هذا السياق، تتحوّل اللغة من أداة للتعبير إلى واجهة تُستخدم لتجميل التناقضات. وتدلُّ كثافة الشعار، في بعض السياقات، على تكرار مفرغ من المعنى، ما يتيح توظيفها غطاءً لعمليات اختراق ناعمة. يُقال للناس: «اسمعوا، أليس هذا صوتكم؟»، فيطمئنون، فيما يكون العدو قد بدأ يتحدث بلسانهم.

يشير علم النفس السياسي إلى هذه الظاهرة بوصفها «التطبيع الرمزي

المموه؛ حيث تُعاد صياغة الرموز المقاومة ضمن بيئات هجينة تُديرها أدوات ناعمة، فيفقد الرمز موقعه الصراعي، ويتحوّل إلى عنصر تجميلي يُستخدم في اتجاهات متناقضة.

وتتطلب مواجهة هذا النمط وعياً نقدياً يفرّق بين من يرفع الشعارات، والسياق الذي تُستخدم فيه، والوظيفة التي تؤدّيها. فالشعار الحقُّ يستمدُّ صدقيته من اليد التي ترفعه، ومن المشروع الذي يخدمه. واللغة التي تعبر عن التزام أصيل تُصاغ من قلب المعركة، وتظلُّ متّصلة بالفعل، ومحمّلة بالمعنى.

الاستراتيجية السادسة والأربعون: المرأة التي تُظهر ظَهْرَها

إعادة خلق وعي الجبهة بذاتها وفق معايير العدو: تشوّه
داخليٌّ بمرايا مصطنعة

في العادة، تُستخدم المرأة لبيصر الإنسان وجهه. أمّا في هذه الاستراتيجية، فتُصمّم المرأة لتعكس ظهره، فتقدّم صورة لا تعبر عن حقيقته، بل تجسّد ما يرغب العدو في ترسيخه. وبهذا، تتحوّل المقاومة من كيان يراجع ذاته بمعاييره، إلى مشروع يُقاس بمنظور الخصم، ويُصاغ وفق سلّمه القيمي. وهنا تتجلّى خطورة المرأة التي تُظهر ما يُراد لها أن تُظهر، لا ما يعكس جوهر الذات.

يعتمد العدو على إعادة تشكيل المعايير التي تُقاس بها الجبهة، متجاوزاً أساليب الإكراه التقليدية، فيُصبح «النجاح» مرادفاً للاعتراف الدولي، و«الشرعية» مرتبطة بالقبول الإعلامي، و«الواقعية» محدّدة بما يراه الآخر معقولاً، و«المسؤولية» مساوية للتنازل عن الثوابت تحت شعار النضج السياسي. وبهذا، تُعاد صياغة المفاهيم من الداخل، لتتماهى مع منطق الخصم لا مع منطق المشروع المقاوم.

تتّجه المقاومة، في ظلّ هذا الضغط، إلى النظر إلى ذاتها بعيون

الآخرين، فتبدأ عملية انسحاب تدريجي من جوهرها: من الثقة، ومن المبادرة، ومن رمزية الصدام مع المشروع المضاد. ويتحوّل التقويم الذاتي إلى انعكاس خارجي، تُعاد فيه صياغة الخطاب والتحالفات والبنية التنظيمية لتتلاءم مع الصورة المطلوبة دولياً. وتتحوّل مفردات الخطاب من تعبير عن الذات إلى محاولة لإرضاء الآخر، فتفقد اللغة وظيفتها التعبويّة، وتتحوّل إلى أداة تكيّف.

وتُظهر تجارب معاصرة أنّ الضغوط تنبع من التباين مع النموذج المقبول عالمياً لا من خلل داخلي. فتواجه المقاومة عبارات مثل: «أنتم صادقون، لكنكم متطرفون»، أو «أنتم ناجحون، لكن خطابكم صدامي»، أو «أنتم أصحاب قضية، لكن لغتكم دينية». وبهذه العبارات، تُدفع إلى اعتماد عملية تجميل رمزي تُخفي جوهرها، وتُقدّم في قالب قابل للتداول في أروقة المؤسّسات الغربيّة؛ حيث تُمنح القبول لا بناءً على مشروعها، بل بناءً على قدرتها على التكيّف مع معايير الآخرين.

تشكّل صورة مصقولة خارجياً، وتتراكم مشاعر خجل داخلي من اللغة الحادة، ومن التضحيات، ومن الروح العقديّة، ومن التراث الجهادي، ومن الرمز القتالي. وتُختزل المقاومة في صوت هادي، في ممثّل ناعم، أو في بيان متوازن، أو في خطاب مصقول إعلامياً، أو منزوع اللهب. وتتحوّل الرموز من أدوات تعبئة إلى عناصر تجميل،

وتُستخدم لتزيين المشهد لا لتحريكه.

ومع الوقت، يتكوّن جمهور يفصّل الصورة المقبولة على الفعل الجذري. فتحوّل القضية إلى مهرجان، والكرامة إلى شعار، والمواقف إلى مشهديّة محسوبة وفق «ردّ الفعل الدولي» أو «تأثيرها في الرأي العام العالمي» أو «مكائنها في خارطة الاعتراف المؤسّسي». ويبدأ المزاج العام في التكيّف مع هذه المعايير، فتُعاد صياغة الأولويات لتناسب مع منطق التلقّي الخارجي.

ويمتدُّ هذا التحوّل إلى الداخل؛ حيث تنسحب الذات الجماعيّة من روحها المؤسّسة، وتبدأ بروؤية نفسها من الخارج، متردّدة في ماضيها الجذري، أو ساعية إلى إعادة إنتاجه بلغة متصالحة مع المنظومة.

وتتحوّل المراجعة الذاتية من أداة تطوير إلى آليّة تكيّف، تُعيد إنتاج الخطاب بما يتلاءم مع الذوق الدّولي، لا مع مقتضيات الصراع.

وفي حالات كثيرة، تُستدرج المقاومة إلى مقارنات زائفة مع نماذج سلميّة أو انتقالات ديمقراطية، وتُقدّم هذه النماذج بدائل ناضجة مع تجاهل طبيعة المشروع الاستيطاني الذي تواجهه، والذي يرفض أصلاً الاعتراف بوجودها ندّاً. وتُستخدم هذه المقارنات لتقليص مساحة الفعل، وتوجيه الخطاب نحو التهذئة بدل المواجهة.

ومع تراكم هذه الضغوط، تتكوّن عقدة داخلية: يصبح القيادي حذرًا

في تصريحاته، والمجاهد متردداً في ظهوره، والمفكر قلقاً من لغته، والمؤسسة الإعلامية متوترة أمام «الانطباع الدولي». ويتحوّل كلُّ طرف إلى مراقب لذاته من خلال مرآة الآخر، فيبتعد عن يقينه الذاتي، ويعيد تشكيل صورته وفق ما يُتَظَر منه، لا وفق ما يؤمن به.

وتتجلّى المواجهة الحقيقيّة لهذه الاستراتيجية في استعادة المرأة الأصليّة: أن ترى الجبهة نفسها كما هي في ضوء مشروعها لا في ضوء أعين الآخرين، وأن تستعيد مقاييسها الداخلية للنجاح والفشل، وأن تواصل صياغة ذاتها من داخلها وفق منطقها لا وفق قوالب مفروضة عليها.

ويتيح هذا المسار حضوراً إعلامياً وخطابياً أكثر صدقاً لا يعتمد على التصنُّع بل على عمق الإيمان الذي يقف خلفه. فحين تعبر المقاومة عن ذاتها بصدق، وتفرض حضورها، تستعيد وجهها مهما حاول الآخرون تشويهه.

المحور السادس:

استراتيجيات السيطرة الناعمة من الداخل

الاستراتيجيَّة السَّابعة والأربعون: تنامي الظلِّ

حين يظهرُ العدوُّ في الهامشِ الذي يتمدَّدُ بصمتٍ في الحروبِ النفسيَّة المتقدِّمة، يتقدَّم الخضم من الهامش، ويُفعلُ حضوره عبر التسلُّل الهادئ. لا يعتمد على الظهور المباشر، ولا يلجأ إلى الأقنعة التقليديَّة بل يختار التمدُّد في الأطراف، مثل ظلِّ يتسرَّب بهدوء. هذا الظلُّ لا يُحدث ضجيجًا، ولا يلفت الانتباه، لكنَّه يعيد تشكيل البنية من الحواف، عبر حركة زاحفة، وذكيَّة، ومثابرة. تتجلى هذه الديناميَّة في نمط من السيطرة يستثمر المساحات غير المحروسة، ويعيد ترتيب المشهد دون اقتراب من مركزه. وكلِّما اتَّسعت هذه المساحات، ازدادت قدرة الظلِّ على التمدُّد، وارتفعت فاعليَّته في إعادة تكوين الوعي الجمعي دون إثارة مقاومة مباشرة.

تعتمد هذه الاستراتيجيَّة على فرضيَّة أنَّ المركز محصَّن، فيما الأطراف أكثر قابلية للاختراق. يُظهر الوعي الجمعي حساسيَّة عالية تجاه التهديدات المباشرة، ويُدافع بشراسة عن الشعارات الكبرى والمواقع الأمامية، فيما يترك الهامش مفتوحًا أمام التسلُّل. إنَّ المؤسَّسات الصغيرة التي لا ترفع شعارات صدامية، وبرامج التوعية التي تتحدَّث عن «قيم المواطنة»، والورش الثقافيَّة التي تدعو إلى «تبادل الخبرات»،

والأعمال الفنيَّة الشبائبة التي تبدو متناغمة مع الخطاب العام، جميعها تشكّل مداخلَ رمزيَّةٍ لإعادة تفسير المفاهيم، وتُحدث أثرًا تراكميًّا في بنية الوعي. ومع تكرار هذه الأنماط، تتكوّن بيئة رمزيَّة جديدة، تُعيد تعريف ما يُعتبر مألوفًا، وما يُستقبل بوصفه طبيعيًّا.

في هذا الشكل من السيطرة، يشتغل العدوُّ على محيط الرموز. يتحقّق تفريغ المقاومة من بعدها التعبوي من خلال خطاب ناعم يتحدّث بلغتها، ويستخدم مفرداتها، ويعيد ترتيب معانيها. ويتحقّق إسقاط البطل الشعبي عبر إنتاج نماذج بديلة تشبهه ظاهريًّا، وتُعيد تشكيل التطلُّعات الجمعيّة حول رموز أقلّ كلفة، وأقلّ التزامًا، وأقلّ صدامًا. وتقدّم هذه النماذج بوصفها أكثر واقعيّة، وأكثر انسجامًا مع المزاج العام، ما يمنحها شرعيّة زائفة تُنافس الرموز الأصليّة في الفضاء العام.

يرتبط هذا النمط في علم الاجتماع السياسي بمفهوم «التحكّم الهامشي» (Peripheral Control)؛ حيث تُعاد صياغة السلوك الجمعي من خلال احتلال الفضاءات الرمزيّة غير المحروسة، كالهامش الثقافي، والإعلامي، والأكاديمي، والفنيّ. ومع مرور الوقت، تتغيّر معايير التلقّي، وتتبدّل تصوّرات الناس عن ما هو طبيعي، وما هو ممكن، وما هو مستساغ. هذا التحوُّل لا يُحدث صدمة؛ لأنّ التغيّر يتسلّل عبر

الأطراف، ويعيد تشكيل البنية دون إثارة مقاومة مباشرة. وتُصبح اللغة اليومية أكثر حيادية، والمفاهيم الكبرى أكثر تمييزاً، والرموز التاريخية أكثر قابلية للتأويل.

تُنتج في هذا السياق محتويات إعلامية شبابية في بيئات مقاومة، تُعيد ترتيب أولويات القضية المركزية. فيُدرج الحديث عن فلسطين ضمن قضايا عامّة مثل البيئة، والغلاء، أو الحفلات، ويُعاد تأطير الهمّ الجمعي ضمن لغة وجدانية، وفردية، وخالية من البُعد الصراعي. تُشجّع الرسائل التي تُقدّم للجُمهور على الانشغال بالحياة اليومية، وتُروّج لعبارات، مثل: "عيشوا حياتكم"، و"سلامكم الداخلي أولى". هذا النوع من الخطاب يُفرغ المقاومة من معناها الكفاحي، ويُعيد توجيه الوعي نحو فضاءات لا تتقاطع مع الصراع. وتحوّل القضية من مشروع تحرُّر إلى حالة وجدانية، ومن معركة إلى سردية شخصية.

تتزايد خطورة هذا الظلّ حين يتقدّم دون أن يُستشعر. كثير من المؤسّسات أو الأفراد الذين يتحرّكون ضمنه يتحوّلون إلى امتدادات وظيفية للخصم دون وعي؛ لا يتلقّون أوامر، ولا يرفعون أعلاماً معادية، بل يعملون ضمن مشاريع تنموية أو فنية أو تدريبية، تبدو غير مؤذية، لكنّها تتموضع في هامش المعركة، وتُحدث أثراً تفكيكياً يتجاوز أثر المواجهة المباشرة. وتُصبح هذه المشاريع أدوات لإعادة تشكيل

الذوق العام، وإعادة تعريف ما يُعتبر مقبولاً، وما يُستبعد من التداول. يتطلّب التصدي لهذا النمط من التسلّل توسيع زاوية الرؤية، والانتباه إلى ما يتحرك في الأطراف. تبدأ مقاومة الظلّ من إدراك آليّاته، ومن مراقبة تمدّده قبل أن يتحوّل إلى طوق خانق حول مركز المعركة. يتشكّل الانهيار من محيط يخنق تدريجياً، حتى يُفرغ القلب من إمداده الرمزي، ويبدو صامداً في الظاهر، فيما هو معزول، ومحاصر، ومقطوع عن شبكة وعيه الاجتماعي.

إذن، تتطلّب المواجهة يقظةً شاملة، تمتدُّ إلى الهامش، حيث تتشكّل التحوّلات الأكثر تأثيراً. ما يبدو صغيراً في الأطراف قد يتحوّل إلى ظلّ يتضاعف، ويتقدّم نحو المركز، لا ليُرى... بل ليبتلع.

الاستراتيجية الثامنة والأربعون: الموجة الخلفية

حين تدفعك الريح من الخلف إلى حيث لا تنوي الذهاب في أنماط المواجهة التقليدية، يتجه الانتباه إلى الجهة الأمامية؛ حيث يتوقع التهديد، وتُبنى خطوط الدفاع. تُحصن الجبهات التي تواجه العدو الظاهر، وتُشدّد الحراسة على المواقع المكشوفة. في المقابل، تعتمد الحروب النفسية الحديثة على إعادة توجيه الحركة من الخلف، وتعيد تعريف معنى التقدم. تُركّز على الدفع الهادئ، وتُفعل أدواتها لتوجيه المسار دون مقاومة، فتتحرك الجبهة في الاتجاه المطلوب دون أن تشعر بأنها انحرفت عن مسارها الأصلي.

تُبنى هذه الاستراتيجية على مبدأ الدفع غير المرئي. فالرياح التي تدفع من الخلف تُوهم بالإنجاز؛ لأنها تُسهّل الحركة وتُسرع الخطى. والعجلة التي تُحرك المشروع تُعطي انطباعاً بالتقدم؛ لأنها تنتج حركة وتثير الانتباه. ومع استمرار هذا الدفع، يتقدم المشروع في مسار محدد مسبقاً، ويسرع خطواته نحو موقع لم يختره، ويظن أنه يحقق اختراقاً، فيما هو يُستدرج إلى موقع تم ترتيبه بعناية.

في علم النفس الإستراتيجي، تُعرف هذه التقنية باسم «استراتيجية التسريع الموجّه» (Directed Acceleration). تقوم على تحفيز

الحركات الاجتماعية أو التعبيرات الجماعية نحو الإفراط في الاندفاع، دون بناء واقعي أو تهيئة داخلية. يُطلق الفاعل المهيمن الموجة، ويُراقب كيف تنهك الحركة نفسها، أو تُنتج ردود أفعال تمنحه شرعية التدخّل. وتتحوّل موجة التعبير إلى مبرّر لإعادة الضبط، تحت عناوين، مثل "الحفاظ على الاستقرار" أو "منع الفوضى".

تتجلّى هذه الموجة في حملات إعلامية تُشجّع على التعبير، وتفتح المنصّات أمام الأصوات الغاضبة، وتروّج لشعارات كاسرة للمألوف. هذه المساحة لا تُبنى على قيادة واعية أو هدف واضح بل تُترك لتغلي وحدها، حتى تنفجر أو تتشظى. وفي لحظة الانفجار، يُعاد ترتيب المشهد، وتُستعاد السيطرة، ويُقدّم التدخّل بوصفه ضرورة تنظيمية.

في سياقات المقاومة، تُستخدم هذه الاستراتيجية لدفع الخطاب نحو التوتّر والانفعال. تُطلق استفزازات رمزية، أو تسريبات محسوبة، أو ضربات محدودة، بهدف تحفيز ردّ فعل يُصوّر لاحقًا بوصفه عدوانًا غير مبرّر. وتُدار المعركة النفسية من الخلف عبر توقيت الخصم، وتحوّل المقاومة إلى طرف يتفاعل مع الحدث بدل أن يصنعه.

تتميّز هذه الاستراتيجية بأنّها تُسرّع الفعل وتُضخّم الحركة وتُعجّل بالتصعيد. يتحوّل الفعل إلى عبء، ويتحوّل الصوت العالي إلى صدى فارغ، ويتحوّل التقدّم إلى انكشاف. هذه موجة استباق، تُحرّك الفاعل

في لحظة غير مناسبة، وتُظهِره في مشهد لم يُجهِّز له. وهكذا، يُستنزف المشروع من داخله، وتُستهلك طاقته الرمزية قبل أن تكتمل بنيته الواقعية.

في هذا السياق، تتسارع وتيرة الشعارات، وتزداد حدة الخطابات، وتتسابق المبادرات نحو الواجهة. لكنَّ هذا التسارع لا يُنتج بالضرورة أثراً نوعياً بل يُربك الإيقاع، ويُضعف التماسك، ويُسوِّش على الأولويات. وتتحوَّل بعض المبادرات إلى استعراضات رمزيَّة، وتفقد قدرتها على التأثير العميق؛ لأنَّها خرجت من سياقها الزمني، أو تجاوزت قدرتها التنظيمية.

لا يُقاس النجاح بسرعة الحركة، ولا تُقاس الفاعلية بعلو الصوت. بعض التقدُّم يُنهك المشروع، وبعض التسارع يُربك البيئَة، وبعض الشعارات تُفقد التعاطف. إنَّ الأسئلة التي تُعيد التوازن هي: ما الذي يدفعنا؟ ومن الذي سهَّل الطريق؟ وفي أيِّ توقيت نتحرَّك؟ لأنَّ الموجة التي تحملنا، حين لا تكون من صنعنا، تُعيد توجيهنا نحو شاطئ لم نقصده.

يتشكَّل الانهيار حين تُدفع الحركة قبل أن تنتهيَّ. والمشروع الذي يتحرَّك بلا وعي بالاتجاه يُستنزف من داخله، ويصل إلى نهايات لم يخطِّط لها. أمَّا المشروع الذي يَضبط إيقاعه، ويحدِّد توقيته، ويُرَاجع دافعيَّته، فيمتلك القدرة على التقدُّم بثبات، وعلى تفادي السقوط في فخاخ التسريع المصنوع.

الاستراتيجية التاسعة والأربعون: تعقيد الارتباط

حين يختلطُ على الوعي مَنْ يصنعُ له الخيرَ وَمَنْ يجرُّهُ إلى الهزيمة.

في المراحل المتقدِّمة من الحروب النفسية، تتَّجه أدوات السيطرة إلى تفكيك البنية العاطفية والمعرفية التي تمنح المعسكر المقاوم تماسكَه الداخلي. هذه البنية تميِّز الصديق من الخصم، وتربط الفكرة برمزاها، والموقف بمرجعيته. ومع هذا التحول، تُعاد صياغة العلاقات التي تمنح المواقف معناها، ويُعاد ترتيب البنية التي تربط الرموز بمواقعها، فتبدلُ أنساق الثقة والانتماء.

تُبنى هذه الاستراتيجية على تعقيد الارتباطات وتكثيف الإشارات المتضاربة. يتحرَّك الوعي داخل حالة من التشويش الرمزي؛ حيث تتداخل الهويَّات، وتفقد المواقف وضوحها الخُلقي. يُقدِّم العدوُّ بوصفه طرفاً واقعياً، والحليف يُصوَّر بوصفه شخصاً متهوراً، والمنظمة المقاومة تُعرَّف باعتبارها عبئاً سياسياً، والعالم المتواطئ يُمنح صفة الوسيط النزيه. تبدلُ الأدوار، وتُعاد صياغة المشهد العام دون لافتات ثابتة، فتتداخل المسافات بين الداخل والخارج، والفاعل والمتلقِّي، والمقاوم والمخترق.

المفتاح المفهومي في هذا النمط هو إعادة ترتيب الخريطة الإدراكية للثقة والانتماء. في علم النفس الاجتماعي، يُعرف هذا التفكيك باسم «انكسار الشبكة الإدراكية» (Cognitive Network Disruption).

هذا النمط لا يستهدف محو القناعات، بل يعمل على تشتيت البوصلة الداخلية، فتضعف القدرة على التمييز بين ما يخدم القضية، وما يُستثمر لصالح منظومة الهيمنة. وتحوّل المفاهيم من أدوات للفهم إلى عناصر مربكة، تُنتج تردّدًا بدل الحسم.

تُنفذ هذه الاستراتيجية عبر أدوات ناعمة تتسلّل إلى البنية الثقافية والاجتماعية. تُموّل مؤسّسات ثقافيّة تحمل مظهر الاستقلال، وتُنتج محتوى يتقاطع مع القيم الجمعية، وتُدار من خلال شبكات دولية ذات أهداف مضمرة. تظهر شخصيّات فكريّة أو إعلاميّة تتحدّث بلغة مألوفة، وتُعبّر عن قضايا عادلة، وتُدخل باستمرار شبهة جديدة على مسلّمة قديمة. تنشأ مبادرات شبابية تعبّر عن الهمّ الجمعي، وتتحرك بإيقاع لا يتناغم مع نبض الشارع. وتُستخدم شخصيّات وطنية واجهات لمشاريع لا تملك السيطرة عليها، فتُستثمر رمزيّتها في اتجاهات لا تعبّر عن جوهرها.

تترايد الأسئلة عن النوايا والانتماءات والولاءات. فيتساءل الناس عن صدقيّة الحلفاء، واستقلالية المؤسّسات، ونقاء المبادرات. يتكتّف

التردد، ويتسع الشكُّ، ويتراجع الحسْم. ومع هذا التردد، يدخل المجتمع في حالة من الشلل الرمزي، فتتباطأ الحركة، وتُعلّق المبادرة، ويُستبدل الفعل بالتأمل الحائر. وتحوّل العلاقة مع الرموز إلى علاقة مراقبة، وتُستبدل الثقة بالتحفُّظ، ويُعاد تعريف الالتزام بوصفه احتمالاً لا يقيناً.

تُنتج هذه الحالة نمطاً من الإنهاك المعرفي. يُرهق الوعي من كثرة الاحتمالات، ويُحبط من غياب اليقين، ويتراجع عن التفاعل نتيجة غموض الاتجاه. يبقى الإيمان حاضراً في العمق، وتحوّل النوايا الصادقة إلى طاقة معطّلة تدور حول ذاتها دون أن تجد مساراً واضحاً. وتفقد المبادرات زخمها؛ لأنّ الحاضنة الاجتماعية تتعامل معها بحذر، وتُعيد تقويمها في كلِّ مرّة، دون أن تمنحها احتضاناً كاملاً.

تُركّز هذه الاستراتيجية على سحب اليقين من العلاقات، وتوسيع المساحات الرماديّة، وتفكيك البنية الشعورية التي تمنح الفعل معناه. تفقد العلاقات وضوحها، وتحوّل إلى احتمالات متداخلة، ويُعاد تشكيل الواقع بوصفه منطقة رمادية. يستمرُّ المشروع في شكله، ويضعف في جذوره، ويتراجع عن قدرته على الصمود في لحظة الأزمة. وتحوّل المقاومة إلى حالة وجدانية غير قابلة للتفعيل، وتُستبدل المبادرة بالانتظار، ويُعاد تعريف الفعل بوصفه مخاطرة لا ضرورة.

المحور السادس - الاستراتيجية التاسعة والأربعون ١٩٣

يتراكم الأثر في الوعي الجمعي مثل صدأ على البوصلة. هذا التراكم يُنتج دوراناً مستمراً حول الذات. تبقى النيّة صادقة، ويفقد الاتجاه وضوحه. ومع هذا الدوران، تتآكل القدرة على الفعل، ويتراجع الحسم، وتُستبدل المبادرة بالتردد. تتحقّق السيطرة من خلال إنهاك الوعي، وتُعاد صياغة الهزيمة بوصفها حالةً من التآكل البطيء، لا من الانكسار المفاجئ.

الاستراتيجية الخمسون: أن يتحدثَ خصمُك بلسانك

حين يتسلَّلُ العدوُّ إلى خطابك ليعيدَ توجيهه من الدَّاخِلِ .
 في المراحل المتقدِّمة من الحرب النفسية، تتقدَّم أدوات السيطرة إلى قلب الجهاز الرمزي للمقاومة. تُعاد صياغة اللغة من داخلها، وتُستدرج المفردات إلى سياقات جديدة دون أن يتغيَّر شكلها الظاهري. تُقدَّم هذه الصياغات بوصفها تطويراً ضرورياً، وتُطرح بوصفها استجابة عقلانيَّة لمتطلِّبات العصر. وهكذا، يُعاد تشكيل المنظومة التعبيرية للمقاومة بأدوات صُمِّمت لضبطها، وتُعاد هندسة الوعي من داخل بنيته اللغوية.

في هذا النمط من الاختراق، يتقدَّم الخصم في هيئة القريب المتفهِّم الذي يُعلن حرصه على الخطاب، ويقترح تهذيبه وتكييفه مع العالم. تُقدَّم هذه المقترحات بوصفها خطوات نحو النضج، وتُصاغ بلغة توافقية تُظهر الانفتاح. تبدأ العملية بإعادة تعريف المفردات الأساس:

- «التحرير» يُعاد تقديمه باعتباره حلاً سياسياً شاملاً.
- «المقاومة» تُعرَّف بوصفها دفاعاً مشروعاً عن النفس.
- «العدوُّ» يتحوَّل إلى الطرف الآخر.
- «الحقُّ التاريخي» يُصاغ باعتباره أملاً في الاعتراف.

وُستبدل اللغة الصراعية بلغة مرنة تُجَنَّبُ الخُطابُ أيَّ اشتباكٍ مباشرٍ مع بنية الهيمنة.

تُبنى هذه الاستراتيجية على مبدأ إزاحة الحقول الدلالية (Semantic Field Shifting). تحتفظ الكلمات بشكلها الخارجي، وتُعاد تعبئتها بدلالات جديدة. يتحدَّث المتكلِّم بلغة مألوفة، ويظنُّ أنَّه يواصل المسار ذاته، فيما يتحرَّك ضمن حقل دلالي مختلف. وتتحوَّل المفردات إلى أدوات لإعادة التوجيه، وتفقد اللغة وظيفتها التعبوية، وتُستخدم وسيطاً لترويض المعنى.

يتعزَّز هذا التحوُّل حين يُسند إلى شخصيات من داخل المشروع ذاته. يظهر مثقَّف مقاوم يُكثر الحديث عن فرص السلام، ويظهر قيادي ميداني يُجاري لغة المؤسسات المانحة. تُقدِّم هذه الأصوات بوصفها أكثر واقعية، وأكثر قدرة على التواصل مع العالم. وتُستثمر شرعيَّتها الرمزية لإعادة تشكيل الخطاب، وتُستخدم جسراً لإدخال مفاهيم جديدة دون إثارة مقاومة.

تُنتج هذه الاستراتيجية نموذجاً من النخب المؤمنة بالقضية، والمقتنعة بأنَّ الصياغة القديمة للخطاب تُعيق التقدُّم. تُعاد كتابة النشيد، والبيان، والصورة، والمقال، والشعارات. تُصاغ هذه العناصر بلغة هجينة، ومراوغة، وقابلة للتأويل، وصالحة لكلِّ السياقات. وتفقد

اللغة قدرتها على التعبئة، وتحوّل إلى واجهة رمزية تُستخدم لتجميل التناقضات.

تُركّز هذه الاستراتيجية على الجهاز اللغوي ذاته؛ حيث تُعاد صياغة المفردات من داخلها، وتُقال كلُّ الكلمات، وتُكرّر كلُّ العبارات، ويُحافظ على الشكل، ويُعاد توجيه المضمون. لا تُربك فقط شبكات الانتماء، ولا تشتغل فقط على الحواف، بل تدخل إلى صلب البنية التي تُنتج الشرعية والمعنى.

وحين يستيقظ المجتمع على هذا التحوّل، يكتشف أنّه يمتلك خطاباً مكتملاً، ومصقولاً، ومتماسكاً، لكنّه غير قادر على القتال به. تُصبح اللغة أداة للتسوية، وتُعاد صياغة المواقف بلغة لا تُوجع أحداً.

ويصعب تحديد لحظة الاختراق؛ لأنّ التحوّل يتسلّل عبر الزمن، في شكل قطرات لغوية متتالية، حتى تُصبح الصوت الوحيد المتاح للنطق.

الاستراتيجية الحادية والخمسون: ثقافة الإلغاء والتصنيف الرمزية

حين يُدفعُ المجتمعُ إلى تمزيق ذاته خُلُقِيًّا

من غير الضروري أن يطلق العَدُوُّ رصاصه كي يُدمّر صفوف المقاومة؛ فقد يحقّق ما هو أشد فتكًا: أن يدفع جماعة المقاومة نفسها إلى إطلاق النار على بعضها بعضًا، وهذه المرّة تحت شعارات الطهارة الثورية أو باسم «المبادئ». إنّها استراتيجية التصنيف الخُلُقِيَّة الناعمة التي تُنشئ في الداخل آليّة تطهير ذاتي لا تنتهي، حتى تُفرِّغ البيئة من رموزها، وعقولها، وتنوعها.

تعتمد هذه الاستراتيجية على خلق مناخ انفعالي تهيمن عليه خُلُقِيَّات زائفة تُستخدم أداة للإقصاء. لا يُطلب من الجمهور مهاجمة المقاومة بشكل مباشر، وإنّما يُغذّى بخطاب يُحوّل كلّ انحراف طفيف أو تعبير مختلف إلى خيانة كبرى. وهكذا يبدأ الداخل بإنتاج سلوكيات إلغاء ذاتي، تُقصي كلّ من لا ينسجم تمامًا مع الصوت السائد، فيتحوّل النقد إلى تخوين، والاجتهاد إلى شبهة، والتنوع إلى تهمة.

في علم الاجتماع السياسي، تُدرج هذه الظاهرة ضمن ما يُعرف بـ«دوامة الطهرانية» (Purity Spiral)؛ حيث تتصاعد معايير النقاء إلى

درجة يصبح معها الجميع موضع شكٍّ. يُطالب كلُّ صوت بأن يكون أكثر حدَّةً وتطرُّفاً في الموقف، وأيُّ مهادنة أو تعبير متزن يُفسَّر على أنَّه تراجع أو خيانة.

لا يتدخل العدوُّ في هذه الدوامة بشكل مباشر، وإنما يُتقن تغذيتها. يضحُّ موادَّ إعلامية تُبرز تناقضات، أو ينشر مقاطع مجتزأة لرموز مقاومة، أو يزرع حسابات وهمية في النقاشات العامَّة تدفع نحو الإقصاء والتشكيك. في بعض الأحيان؛ بدل أن يهاجم القائد أو المفكِّر صراحة، يثير تساؤلات استنكارية من قبيل: "لماذا لم يتحدَّث؟"، أو "لماذا لم يُعلِّق؟"، أو "كيف نثق بمن لم يُدِن؟". وهكذا تبدأ المطاردة المعنوية.

في فلسطين ولبنان وسورية وإيران، استُخدمت هذه التقنية مراراً. فبعد كلِّ خطاب أو تصريح أو موقف رمزي، يُفتح باب التأويل، ثمَّ يتسلَّل التضخيم، لتتشكَّل موجة اتِّهامية ظاهرها الحميَّة، وجوهرها الشكُّ. ويكتفي العدوُّ بالمراقبة عن بُعد، تاركاً أدواته المجهولة تُطلق النار نيابة عنه.

أصبحت منصَّات التواصل الاجتماعي الأداة المثلى لهذه الاستراتيجية؛ إذ توفِّر بيئة مشحونة بالانفعال، تفتقر إلى المعايير العلمية، وسريعة في إصدار الأحكام. بضغطة زر، يمكن أن تتحوَّل

شبهة إلى يقين، والمساءلة إلى فضيحة، والسكوت إلى دليل إدانة. كلُّ ذلك يُدار من الخارج، لكنَّ التنفيذ يجري بأيِّ داخلية لا تدرك أنَّها تنفَّذ خطة مُحكَّمة.

هذا النوع من الحروب النفسية لا يهاجم الجبهة من الخارج، وإنَّما يُعيد تشكيل الداخل ليغدو أداة تفتيش خُلقي دائم، تَهْدُرُ الطاقات وتزْرَعُ الخوف من الانتماء. وتُحوَّل رموز المشروع إلى أهداف مشروعة تحت عناوين مثل "المحاسبة" أو "الصدق مع الذات"، في حين أنَّ الهدف الحقيقي هو تقويض المشروع بأكمله.

مواجهة هذا النوع من التفكيك لا تتحقَّق عبر كَبْتِ النقد أو إسكات الأسئلة، وإنَّما من خلال ترشيد الغضب الخُلقي ومنع استغلاله لصالح العدو. المطلوب هو بناء ثقافة مراجعة واعية، يكون معيارها هو المشروع نفسه، لا تقلُّبات المزاج اللحظي. فالثورات تُصان بالبصيرة، وليس بالانفعال. وعندما يرى العدو جمهوراً يُصنِّي ذاته باسم الطهارة، يدرك أنَّه حقَّق انتصاره دون الحاجة إلى إطلاق رصاصة واحدة.

الاستراتيجية الثانية والخمسون: الفوضى المعرفية

حين تختلط الأصوات فلا يعود أحدٌ يعرفُ أين يقفُ

من أعتى أسلحة الحروب النفسية الحديثة ألاَّ تُوجَّه ضربة واحدة إلى مركز الفكرة، وإنما أن تُغمر البيئة كُلُّها بضجيج معرفي لا يتيح تمييز العدوِّ من الصديق، ولا الصحيح من الملقِّق، ولا الحقيقة من التضليل. إنَّها لا تقوم على استراتيجية تشويه مباشر، لكنَّها تعتمد على خلق بيئة من التشويش الكامل، تجعل كلَّ من يعيش داخلها يشعر بالتردُّد، وعدم اليقين، والإنهاك المعرفي.

في علم النفس الإدراكي، يُطلق على هذه الظاهرة اسم «الحمولة المعرفية الزائدة» (Cognitive Overload)، وهي حالة يصل فيها المتلقِّي إلى درجة من التشبُّع بالمعلومات المتناقضة والمكثِّفة تجعله غير قادر على اتِّخاذ موقف واضح أو صياغة رأي متماسك. وعندما تهيمن هذه الحالة على بيئة المقاومة، تفقد الجماعة قدرتها على الإجماع أو المبادرة، وتصبح ردود الأفعال أقرب إلى الارتجال.

تعتمد القوى المعادية في تطبيق هذه الاستراتيجية على تكثير مصادر الخطاب داخل بيئة الخصم، دون الدخول في مواجهة مباشرة. فهي لا تسعى إلى إخماد صوت المقاومة، وإنما تحيطه بألف صوت آخر،

المحور السادس - الاستراتيجية الثانية والخمسون (٢٠) ◆

بعضها يحاكيه، وبعضها يشكك فيه، وبعضها يناقضه كلياً. لا يتمثل الهدف في إسقاط الفكرة، يكتفي بإغراقها وسط بحر من الأصوات المتزامنة، والمتعارضة، والمتشابهة شكلاً، والمتنافرة مضموناً. في لبنان وفلسطين، تُستخدم هذه التقنية بكثافة خلال المعارك أو بعدها. عشرات المحللين، والتسريبات، والتقارير الميدانية، و"الخبراء"، و"المعارضين"، يظهرون دفعة واحدة لشرحوا، ويحللوا، ويُقنعوا كلَّ جمهور برواية مختلفة. فلا يعرف المتلقي إن كانت العملية ناجحة أم فاشلة، وإن كان القائد حكيماً أم متهوراً، وإن كان النصر واقعياً أم مجرد استعراض.

وفي إيران وسورية واليمن، تُمارس التقنية نفسها بأساليب محلية أكثر دهاءً: صفحات محلية، أو منصّات محسوبة على الداخل، تطرح أخباراً مضادة للخط الرسمي، ثم تُناقش وتُحلل، ثم تُسحب، وتُعاد. هكذا تتأسس ثقافة الشك؛ لا بسبب معلومة واحدة مغلوبة، وإنما نتيجة فرط المعلومات الذي يجعل حتى الصواب يبدو موضع ريب. وقد أظهرت دراسات الحرب النفسية الغربية الحديثة أنّ نشر الأخبار المتناقضة، حتى دون تأكيد، يؤدّي إلى ما يُعرف بظاهرة "اللامبالاة المعرفية" (Information Apathy)، وهي حالة انسحاب نفسي من المتابعة؛ حيث يشعر الجمهور أنّ أيّ محاولة للفهم ستقوده إلى

الضياع، فيُفضَّل أن ينكفي عن اتِّخاذ موقف أو الدفاع عن قضيته. وهنا يتَّضح الهدف الأعمق: كسر وضوح الاصطفاف. فعندما يشعر الشاب المقاوم، أو المواطن العادي، أن كلَّ شيء قابل للشكِّ، وكلَّ موقف قابل للتأويل، يُصاب بحالة من الانفصال عن المعركة. لا يتحوَّل إلى خصم للمقاومة، لكنَّه يفقد القدرة على التفاعل معها، وينسحب إلى موقع المتفرِّج الصامت، وهذا هو الانتصار الصامت للعدوِّ. ولذلك، فإنَّ مواجهة هذه الاستراتيجية لا تتحقَّق بالصراخ أو بتكثيف الخطاب فحسب، وإنَّما من خلال بناء بُنى معرفية متماسكة قادرة على غرابة الضجيج، وترسيخ الرواية الأصلية عبر منافذ موثوقة. فالحرب اليوم لا تقتصر على الجبهة بل تمتدُّ إلى عقل كلِّ فرد... وإذا تمكَّن العدوُّ من السيطرة على الضجيج، فسُيُخفي الحقيقة حتى وهي أمام أعيننا.

الاستراتيجية الثالثة والخمسون: تضخيم الفروقات الثانوية

حين تصبح التفاصيل الصغيرة وقوداً للفرقة الكبرى

يبدأ التفكيك من التفاصيل. لا يهاجم العدو المشروع من عنوانه العريض، وإنما يفتته من أطرافه. يُضخّم الخلافات المذهبية داخل الطائفة الواحدة، ويشير النزاعات بين قراءتين لنصّ ديني، أو بين مدرستين ثقافيتين في فكر المقاومة. وهكذا يُعاد تعريف الهوية المقاومة باعتبارها جُزراً منفصلة، لا جبهة موحّدة.

يُقال: هذا الحزب لا يشبه ذلك. وهذه المنطقة أقلّ التزاماً. وهذه المرجعية أقرب إلينا. وهذه اللهجة أنسب. وتبدأ آلة التصنيف، ثمّ تظهر تسميات جديدة: «المحافظون»، و«التنويريون»، و«المنفتحون»، و«القدامى»، و«الشباب الجدد»، وتُحمّل كلُّ فئة خطاباً يعزلها عن غيرها. لا تُرفع الأسئلة الكبرى، وإنما تُستنزف الطاقات في صراع الهويّات الجزئية.

وقد شهدنا هذا النمط في أكثر من ساحة: في العراق، يُعاد دائماً تضخيم الفروقات بين القوى الإسلامية رغم وحدة المبدأ. وفي لبنان، يُقدّم حزب المقاومة كأنه استثناء عن محيطه، لا تعبير عن بيئته. وفي

فلسطين، تُضخَّم الفجوة بين فصائل المقاومة رغم وحدة المعركة. كلُّ هذا يجري تحت لافتة «الاختلاف البنَّاء» أو «التعدُّدية الصحيَّة»، في حين أنَّ الهدف الحقيقي هو إنتاج جماعة بلا عمود فقري.

في علم النفس الجمعي، يُعرَف هذا التكتيك بـ «تأجيج التمايزات الداخلية» (Internal Differentiation Amplification)؛ حيث يُغذَّى كلُّ طرف بموادٍّ توكِّد خصوصيَّته، وتُشجِّعه على نقد الآخر، ليشعر أنَّه أكثر نقاء، أو أكثر وعياً، أو أكثر أصالة.

وما يفعله العدوُّ هنا؛ أنَّه لا يزرع الفرقة بشكل مباشر، إنَّه يُعيد ترتيب الحساسيات داخل الجماعة لتنفجر تلقائيًّا. لا يُطلق رصاصة، وإنَّمَا يهمس في أذن كلِّ طرف: «أنتم مختلفون عنهم»، و«لستم سواء»، «هُويَّتكم مهدَّدة». وهكذا، يُعاد تشكيل الحسِّ الجمعي على قاعدة الشكِّ، ويُستبدل الانتماء الواحد بشبكة من الانتماءات المتصادمة.

مواجهة هذه الاستراتيجية تبدأ من إعادة التمييز بين الفرع والأصل، وبين الهويَّة الجامعة والانتماءات الجزئية. وأن يفهم أنَّ التنوُّع لا يعني التصادم، وأنَّ وحدة الهدف لا تذيب الخصوصية، لكنَّها تنظِّمها في سياق الصراع. فالعدوُّ لا يخاف من اختلاف الآراء... إنَّمَا يخشى اجتماع أصحابها على ميدان واحد.

الاستراتيجية الرَّابِعةُ والخمسون: النَّبْشُ الانتقائيُّ في الذَّاكِرَة

حين يُستحضرُ الماضي لتفجيرِ الحاضر

للذاكرة وظيفة مزدوجة: إمَّا أن تكون خزَّانًا للقوة؛ تُستعاد منها البطولات والدروس، أو تتحوَّل إلى عبء؛ يُستخدم لإثارة الجراح القديمة وتأجيج الكراهية. في ساحة الحرب النفسية، يُعاد تفعيل الذاكرة الجماعية بطريقة انتقائية؛ لا بهدف تقوية النسيج الداخلي، وإنَّمَا بغرض زرع القلق والشكِّ والانقسام.

تعتمد هذه الاستراتيجية على فتح ملفات تاريخية قديمة: تحالفات مشبوهة في زمن معين، أو مواقف مثيرة للجدل من قادة راحلين، أو أخطاء سابقة ارتكبت في بيئة المقاومة، أو انتقادات داخلية قيلت في لحظة حرجة... ويجري تقديم هذه الوقائع خارج سياقها، معزولة عن ظروفها، لتُعرض كما لو كانت الحقيقة الوحيدة القادرة على تفسير كلِّ ما جرى وما يجري.

في لبنان -مثلاً- يُعاد بين الحين والآخر النَّبْش في مواقف الحرب الأهلية، أو في طبيعة العلاقة بين أطراف المقاومة في التسعينات. في العراق، تُستحضر وقائع ما بعد الغزو الأمريكي بطريقة تُغذي

الانقسام الطائفي والسياسي. وفي فلسطين، يُعاد بثُّ مشاهد الصراع بين الفصائل، في حين يُهمَّس تاريخ مشترك من المواجهة مع العدوِّ. وتُمارَس هذه الحرب النفسية عبر منصَّات إعلامية تتَّخذ طابعاً توثيقياً، أو من خلال دراسات تبدو أكاديمية، أو عبر حسابات شخصية تنشر تحت عنوان «حق الجمهور في أن يعرف». لكنَّ الهدف الحقيقي لا يتمثَّل في الفهم، إنَّه يتمثَّل في الإرباك. ولا تُقدِّم هذه الموادُّ بوصفها مسؤوليَّة تجاه الذاكرة، وإنَّما تُوظَّف بوصفها قنابل موقوتة تُفجَّر عند الحاجة.

في علم الاجتماع السياسي، تُصنَّف هذه التقنية ضمن ما يُعرف بـ «الذاكرة المُدارة» (Managed Memory)، أي استخدام الذاكرة الجماعية باعتبارها أداة سياسية، لا أرشيفاً معرفياً. ويُستثمر هذا النمط في التشكيك بشرعية الخيارات الحالية من خلال زعزعة الثقة بالجدور التاريخية للمسار المقاوم.

الأخطر في هذا النوع من الحرب أنَّه يُقنَع الجمهور بأنَّ الثقة لا تُمنح لأحد. فلكلِّ طرفٍ ماضٍ مشوَّش، ولكلِّ تجربة زلَّاتها، ولكلِّ رمزٍ موقفٍ مُلتبسٍ. وهكذا تُعاد صياغة العلاقة مع المقاومة على أساس الارتباب الدائم، لا على قاعدة الانتماء النقدي البناء.

ومواجهة هذا النمط لا تتحقَّق عبر الصمت عن الأخطاء، وإنَّما

المحورُ السَّادسُ - الاستراتيجية الرَّابِعةُ والخمسون ٢٠٧ ◆

من خلال إعادة تأطير الذاكرة ضمن منهجية وعي، بعيداً عن آليات التشكيك. فالاعتراف بالماضي لا يعني تحويله إلى أداة للطعن، والأجدي من ذلك تحويله إلى مصدر للفهم والنضج. ومن لا يملك شجاعة فهم تاريخه... لن يُحسِنَ الدفاع عن حاضره.

الاستراتيجية الخامسة والخمسون: صناعة الأنا التنظيمية المغلقة

حين يُعادُ تشكيلُ الهويَّةِ من الدَّاخِلِ لتفكيكِ الجبهةِ الواحدة. من أدوات الحرب النفسية الأكثر مكرًا أن يُعاد تشكيل الكيان المقاوم من داخله بهدوء، عبر تضخيم الحسِّ التنظيمي وتحويله إلى مركز ولاء مستقلٍّ، دون الحاجة إلى ضربه من الخارج. لا يواجه العدو فصائل المقاومة بالمواجهة المباشرة أو الحظر، وإنما يُغذي شعورَ كلِّ طرف بأنَّه هو الأصل، وأنَّ ما حوله مجردُ هوامش.

يبدأ هذا التسلُّل من نقاط التفوق: تُبرز جهة ما خبرتها العسكرية، وأخرى امتدادها الشعبي، وثالثة صدق خطابها. ثم يُنقل ذلك عبر إعلام ناعم إلى وعي الجمهور التنظيمي، مرفقًا برسائل خفية: أنتم الأصدق، وأنتم الأصل، وأنتم خطُّ المقاومة الحقيقي. ومع الوقت، يتحوَّل التنظيم من أداة لخدمة الهدف إلى غاية قائمة بذاتها.

الأدهى أن هذا التوجيه لا يجري دائمًا عبر الخطاب العدائي، فقد يمرَّر من خلال المديح الذكي. فيثني على أحد الفصائل بوصفه «الأكثر انضباطًا»، وعلى آخر بأنَّه «الأوسع قبولاً»، وعلى ثالث بأنَّه «الأقدر على المناورة». وهكذا تتكرَّس الفوارق بوصفها هويَّات، وتُعاد كتابة

الانتماءات داخل الجبهة الواحدة على أساس الانفصال بدلاً من التكامل.

وقد رُصدت هذه التقنية في أكثر من ساحة: في العراق، دعم إعلام غربي حسابات ومواقع محلّية تُكرِّس التنافس بين القوى المقاومة عبر تعظيم الأداء الفردي. وفي لبنان، جرى الترويج لفكرة أنّ المقاومة تنحصر في جهة واحدة، ما دفع أطرافاً أخرى للشعور بالإقصاء، وولّد حساسيات متراكمة. وفي فلسطين، تُدار عشرات الحسابات التي تُعيد توزيع الثقة بين الفصائل عبر إشارات متكرّرة تتلاعب بالانتماء.

في علم النفس الجمعي، تُعرف هذه التقنية بـ«تغذية التمركز الذاتي عبر الاعتراف المشروط» (Conditioned Affirmation Narcissism)، وهي تقوم على منح كلّ جماعة ما يكفي من الإحساس بالتميّز ليُعاد تشكيل ذاكرتها الجمعية حول ذاتها فقط، دون أن ترتبط بالمشروع الأكبر الذي تنتمي إليه.

والعدوُّ في هذا السياق لا يمنع اللقاء بين القوى، لكنّه يُضعف الحاجة إليه. لا يشنُّ هجوماً على الوحدة، وإنما يُفنع الجميع بأنّ وحدتهم أمر ثانوي، وأنّ التفرد هو الطريق إلى الفاعلية. فيبدو كلّ طرف متمسكاً بخطّه، لكنّه في الواقع قد انسحب من المجموع دون أن يشعر.

الاستراتيجيةُ السَّادسةُ والخمسون: تكريسُ النزعةِ التمثيليةِ داخلَ الجبهةِ

حين يُقنَعُ كلُّ طرفٍ بأنَّه المتحدِّثُ الحصريُّ بإسْمِ الجميعِ بخلافِ الاستراتيجيَّاتِ السابقةِ التي ركَّزَت على تضخيمِ الذاتِ التنظيميةِ (٣٦)، أو وَهْمِ الاكتفاءِ بالذاتِ (٣٧)، أو تضاربِ الهويَّاتِ داخلِ الجبهةِ (٣٥)، فإنَّ هذه الاستراتيجيةُ تتسلَّلُ إلى مستوى آخرٍ أكثرَ رمزيةً وخطورةً: إقناعِ كلِّ طرفٍ في الجبهةِ الموحَّدةِ بأنَّه هو الصوتُ الشرعيُّ الوحيدُ للمقاومةِ، وأنَّ ما عداهُ ليس إلا هامشًا، أو صدىً تابعًا، أو مكملًا طارئًا.

لا يدفعُ العدوُّ الأطرافَ إلى التنازعِ المكشوفِ، وإنَّما يُغذِّي صراعًا صامتًا في من يملكُ «الشرعيةَ الرمزية» لتمثيلِ المقاومة. تُدارُ هذه اللعبةُ عبرِ أدواتٍ ناعمةٍ: تضخيمِ خطابِ جهةٍ دونِ سواها، وإبرازهِ في الإعلامِ الدوليِّ، ووصفهُ بـ«الواجهة»، وتسويقهُ باعتبارهِ الأكثرِ نُضجًا أو قبولًا أو أصالةً. ومع مرورِ الوقتِ، يترسَّخُ في وعيِ التنظيمِ أو التياراتِ أنَّه يشاركُ في الجبهةِ، مضافًا إلى تجسيدها بالكامل.

وتبدأُ المعركةُ الخفيةُ: من يتحدَّثُ باسمِ المقاومة؟ ومن يُصاغُ الخطابُ على لسانهِ؟ ومن يُعرَّفُ خارجيًا باعتبارهِ مرجعيَّة؟ وفي خضمِّ

هذا السباق الرمزي، تُهَمَّش بقية الأصوات أو تشعر بأنها مطالبة على الدوام بتبرير وجودها.

وقد لوحظ هذا النمط في أكثر من ساحة: في فلسطين، يُدفع جمهورٌ إلى اختزال المقاومة في فصيل واحد، مع تعميم رمزي على أدوار الفصائل الأخرى. وفي العراق، تُمنَح بعض القوى هُويَّة تمثيلية دولية تجعلها تبدو كأنَّها الناطق الرسمي باسم مشروع لا يقتصر عليها. وفي لبنان، يُعاد تدوير خطابات محدَّدة باعتبارها المعيار، في حين تُعرَّف الخطابات الأخرى بوصفها تابعة أو خارجة عن النسق.

هذا التنافس لا ينطلق من الفعل الميداني أو سداد الرأي، وإنَّما من الرمزية العامة: من يملك خطاب المقاومة؟ ومن يلبس عباءتها؟ ومن يُصدَّر للعالم بوصفه تجسيداً لها؟ وهنا يتحوَّل الصراع داخل الجبهة الواحدة إلى صراع تمثيل، لا إلى خلاف في المشروع نفسه.

علم النفس السياسي يسمِّي هذه الحالة بـ«أزمة تمثيل الجماعة» (Crisis of Representational Ego)؛ حيث يتضخَّم الوعي الذاتي لكلِّ طرف بوصفه الناطقَ باسم الكلِّ، لا شريكاً فيه. وهكذا تُبنى الجدران لا نتيجة اختلاف طبيعي، وإنَّما نتيجة الأدِّعاء بالاحتكار الشرعي للتمثيل.

ويكمن الخطر في أنَّ هذه الاستراتيجية تُفقد المقاومة وجهها

المحور السادس - الاستراتيجية السادسة والخمسون ٢١٣

المركَّب، وتختزلها في صوت واحد، ما يجعل أيَّ انحراف في هذا الصوت يُحسب على الجميع، ويُلغي المساحة الحيوية للتعدُّد الخلاق. ويتحوَّل التنوُّع من مصدر قوَّة إلى ساحة سباق نحو الصدارة. ومواجهتها لا تتحقَّق بإلغاء الأصوات، وإنما بكسر وهم الصوت الواحد؛ بأنَّ يُقال بوضوح: المقاومة مشروع جماعي لا يُنطق باسمه من جهة واحدة، وإنَّ تمثيلها لا يُعد امتيازاً، وإنما يُحمَل بوصفه تكليفاً، لا يُكتسب إلاَّ بالدم، وبالصدق، وبالإصرار على حماية الوحدة رغم التمايز. فمن ظنَّ أنَّه المتحدِّث الحصري باسم الجميع... خسر الجميع.

الاستراتيجية السَّابِعةُ والخمسون: توزيعُ السكاكينِ بين الحلفاءِ

زِعُ الشُّكِّ وسوءِ الظَّنِّ داخلَ الجبهةِ الواحدةِ لتمزيقِ بنيتها
الشُّعوريَّة.

في عالم الحرب النفسية، لا شيء يُفكِّكُ الجبهة من الداخل كما يفعل الشُّكُّ. الشُّكُّ ليس رأياً، وإنما شعور مسموم، لا يعلن عن نفسه بسهولة، لكنّه ينمو في الظلال، ويُحوّل الحلفاء إلى خصوم متحفّظين، والأصدقاء إلى متربّصين محتملين. ومن هنا، تنبثق الاستراتيجية المعروفة باسم توزيع السكاكين بين الحلفاء: لا يُطلب من الجبهة أن تنقسم، يكفي أن يتسلّل إليها التوجُّس الصامت، وأن تُستبدل الثقة التاريخية بلحظة تردُّد.

هذه الاستراتيجية لا تزرع العدا، إنّها تزرع التوتُّر. لا تدعو إلى العنف، وإنما إلى الحذر المتبادل. وهي لا تستخدم الهجوم المباشر، لكنّها تعتمد على الوسوسة المنظّمة: هل فلان لا يزال مخلصاً؟ ولماذا تأخّر الردُّ؟ ولماذا زاد ظهوره الإعلامي؟ وهل يعمل لحسابه؟ وهل لدينا اختراق؟ وهل ما زال القرار نقيّاً؟ وهل جرت تصفية شخص لسبب داخلي؟ كلّ هذه الأسئلة لا تُقال علناً، لكنّها تتحوّل مع الوقت

إلى مزاج داخلي خائق يُحاصر الجبهة من داخلها. والعدوُّ في هذه الحالة لا يحتاج إلى عملاء ظاهرين، وإنَّما إلى حفنة من الرسائل المجهولة، والتسريبات المبهمة، التحليلات المشبوهة، والتلميحات المقطوعة. يستثمر في فجوة صغيرة ليحوِّلها إلى هاوية: موقف غامض من قائد، أو تصريح ملتبس من متحدِّث، أو تباعد في الاجتماعات... تصبح كلُّها مادةً خامًّا لتخليق الشكِّ.

ومن خصائص هذه الاستراتيجية أنَّها لا تعتمد على الإثباتات، وإنَّما على التكرار. يكفي أن تُطرح الفكرة مرارًا من مصادر متعدِّدة حتى تُصبح معقولة. حتى المقاومة نفسها قد تجد نفسها تراجع أوراقها؛ لا بسبب وجود خيانة فعلية، وإنَّما لأنَّ الشكَّ أصبح معطى عامًّا. وبهذا تتحوَّل الجبهة إلى مساحة مراقبة متبادلة، بعدما كانت وحدة ثقة وانسجام.

يُستثمر في هذه الاستراتيجية أيضًا عنصر النخبة داخل الجبهة: المفكِّرون، والإعلاميون، والنشطاء المثقَّفون. فحين يُفتح الباب أمام التحليل النفسي المفرط لسلوك القيادات أو القرارات، يصبح كلُّ شيء خاضعًا للظنِّ، وكلُّ فعل قابلاً للتأويل السلبي. فتفقد الجبهة مرونتها، ويبدأ الصمت يُفسَّر، والكلام يُحمَّل، والقرارات تُتَّهم.

ولا يُستبعد أن تُؤدِّي هذه الحالة إلى تحوُّل داخلي في البنية الشعورية للجبهة: يصبح الحذر سلوكًا عامًّا، وتُقطع العلاقات الوثيقة، وتُخفى

المعلومات من باب التحوُّط، وتُبنى التحالفات داخل الجبهة نفسها على قاعدة «من نثق به أكثر»، بدلاً من أن تقوم على أساس الهدف المشترك. وعند هذه النقطة، تُصاب الجبهة بما يشبه الشلل التنظيمي، ويُفتح الباب أمام الاختراق الحقيقي.

في تجارب المقاومة الواقعية، شوهدت آثارُ هذه الاستراتيجية في مراحل حرجة:

١. في لبنان، كانت فترات من الحرب النفسية مليئة بتسريبات تحاول ضرب العلاقة بين فصائل المقاومة، أو بين القادة والبيئة الشعبية، عبر ادّعاءات عن «مصالح ضيقة» أو «تنسيقات سرّية» أو «تباينات مصيرية».

٢. في فلسطين، يكاد لا يخلو مشهد سياسي أو إعلامي من محاولات دائمة لزرع الشكّ بين الفصائل، أو بين الفصيل الواحد وبيئته، أو داخل صفوفه القيادية؛ حيث تُنسب قرارات إلى أطراف، وتُشوّه النوايا، ويُعاد تأويل الأحداث كلّها في ضوء نظرية المؤامرة.

يجري كلّ هذا دون استخدام سلاح ظاهر. وإنما تُستخدم لغة الصداقة نفسها لتوجيه السكاكين: عبر منصّات محسوبة على «الخطّ الداخلي»، أو عبر مقالات تحليلية تُبدي «حرصاً» على المشروع، أو

المحورُ السَّادسُ - الاستراتيجيَّة السَّابعة والخمسون ٢١٧ ◆

عبر شخصيَّات «مقرَّبة» نُعبِّرُ عن «قلقها». ويبدو كلُّ شيءٍ سليماً... لكنَّ ما يجري في العمق هو تفكيك خبيث لبنية الثقة. والخطير هنا أن الشكَّ حين يتمكَّن، يُقرِّغ كلَّ رصيد سابق. فسنوات من العمل المشترك قد تنهار بجملته واحدة، وقرارات تاريخيَّة قد تُمحي عبر تلميح واحد. وهذا يُضعف المقاومة من حيث لا تشعر، ويدفعها إلى حالة من الانكماش والتحوُّط، بدلاً من التمدُّد والمبادرة. كيف تُواجه هذه الاستراتيجية؟ ليس بالرقابة، ولا بفرض الصمت، وإنَّما ببناء ثقافة مناعةٍ داخلية ضدَّ الشكِّ. أن تكون الثقة مؤسَّسة على الشفافية، دون أن تتحوَّل إلى استهلاكٍ داخلي. وأن يُتاح النقد في مكانه، دون أن يُختزل إلى سُبهة. وأن تبقى العيون موجَّهة نحو العدو، لا نحو الرفيق.

وأن تُبنى شبكات المقاومة على قاعدة المشروع، لا على أساس الأشخاص. فحين تكون العلاقة قائمة على الهدف والمبدأ، لا على الولاء الفردي، يكون اختراقها أصعب، ويكون تحريف الثقة أكثر كلفة. في نهاية المطاف، لا تحتاج الجبهة إلى طعنات من الخارج كي تسقط، ما دامت السكاكين قد وُزعت في الداخل بحذرٍ وتحت شعار الحذر.

الاستراتيجية الثامنة والخمسون: عطسة في وجه العاصفة

افتعالُ أزماتٍ جانبيةٍ لاستهلاكِ طاقةِ الجبهةِ وإخفاءِ المشروعِ الأكبرِ.

في خضمِّ العاصفة، لا يُهزم من يسقطه الطوفان دفعة واحدة، وإنما ذلك الذي يُشغل نفسه بتفاصيل لا قيمة لها، يفقد تركيزه، ويُستنزف تدريجياً حتى العجز. هذه هي الفلسفة العميقة للاستراتيجية المعروفة بـ«عطسة في وجه العاصفة»؛ حيث لا يسعى العدوُّ إلى المواجهة الكبرى، وإنما يركِّز على تشتيت الوعي داخل الجبهة المقاومة عبر إغراقها بملفاتٍ فرعية، صراعات داخلية، وخلافات جانبية تُعطل استجابتها للخطر الحقيقي.

الصورة البصرية هنا مهمّة: العاصفة الكبرى تقترب، والميدان متوترٌ، والعدوُّ يستعدُّ للمناورة الكبرى... لكن داخل الجبهة، تنفجر خلافات على الشعارات، وعلى الأولويات، وعلى من يتحدث باسم من، وعلى ترتيب الفعاليات، وعلى شكل الردِّ، وعلى معنى النصر نفسه! فيبدو كأنَّ الجبهة لا تحارب، وإنما تلهث خلف ظلِّها.

هذه ليست مصادفة، إنَّها عملية مقصودة من التخطيط والإشغال الاستراتيجي؛ حيث تُوجَّه طاقة الجبهة إلى ملفات تافهة أو ثانوية،

فيما يجري تمرير المشروع الأكبر من الخلف. لا تُخلق هذه الأزمات الصغيرة من فراغ، لكن يجري تنشيطها عمدًا عبر:

١. تسريبات مُختارة تُحرِّض طرفًا على آخر في التوقيت الحساس.

٢. منابر إعلامية تُضخِّم الجدل الداخلي، وتصوره أزمة وجودية.

٣. تحليلات نفسية مغشوشة تدفع العناصر القيادية إلى التشكيك المتبادل، أو الشعور بالخذلان، أو بالاستحقاق الفردي.

٤. افتعال ملفَّات فرعية تحت عناوين مثل "الشفافية"، أو "إصلاح التنظيم"، أو "تصحيح المسار"، لكنَّها تُطرح في لحظة غير مناسبة.

هذه الاستراتيجية تشبه في العلوم العسكرية ما يُعرف بـ (fire suppression tactics)، أي تكتيكات الإشغال بالنار الجانبية؛ حيث يُفتعل اشتباك صغير على جانب الجبهة لإجبار العدو على التحرك، فتتكشف تموضعاته الحقيقية، أو يُمنع من التركيز على العملية الأساس. في الحرب النفسية، تُعطى هذه "العطسة" عدسةً إعلامية مكبرة، وتُحوَّل إلى ملفٍّ يستهلك وقت الجبهة، وقادتها، وجمهورها. ويصبح كلُّ تصريح أو موقف أو شائعة مادَّة تحليل، فيتراجع الزخم الحقيقي

للمواجهة، وتُستنزف الطاقات في تفسير الذات.

تلاحظ هذه التقنية بوضوح في لحظات ما قبل المعركة أو بعدها؛ حيث تُطرح فجأة قضايا جانبية مثل:

١. لماذا لم تُذكر جهة معينة في البيان؟

٢. من الذي يُمثل المقاومة فعلاً؟

٣. لماذا لم تُشارك شخصية بارزة في المسيرة؟

٤. هل كان الرد كافياً؟

٥. هل بات وقت التسوية؟

وهذه كلها أسئلة ظاهرها مشروع، لكن توقيتها مدبر. فالمشروع الأكبر - خطة العدو، واختراقاته، ومساره السياسي أو العسكري - يتسلل بهدوء فيما الجبهة تتصارع داخلياً على تموضعات وهمية. يُلاحظ أيضاً أنّ هذه الاستراتيجية تُنفذ أحياناً من داخل الجبهة نفسها، عبر عناصر حسنة النية تُستخدم دون وعي، فتصبح أداة للفت الانتباه بعيداً عن أصل المعركة. هؤلاء عناصر جرى تضليلها نفسياً عبر إثارة غيرتها، أو شعورها بالتهميش، أو رغبتها في إثبات الذات وليسوا "خونة".

في التجربة الفلسطينية، كثيراً ما جرى افتعال معارك جانبية بين الفصائل عن "أحقية التمثيل"، أو "تفسير الانتصار"، أو "شكل الرد"،

المحور السادس - الاستراتيجية الثامنة والخمسون (٢١)

في الوقت الذي كان العدو يستثمر هذه الانقسامات ليُعيد تموضعه على الأرض أو في السياسة.

وفي لبنان، جرى استثمار كثيراً من "الأصوات المعارضة من داخل الجبهة" لإشغال المقاومة بخطاب ردّ الفعل، وجرّها إلى مواجهة إعلامية هامشية تستنزفها رمزياً. فبدل أن تُدير خطاب الهجوم، وجدت نفسها تُدافع عن اختياراتها، وتبرّر صمتها، أو تُوضّح ما لم يكن بحاجة لتوضيح.

هذه الاستراتيجية تُربك البوصلة؛ لأنّها تُجبر المقاومة على خوض معاركها داخل ذاتها، لا مع عدوّها. فتخسر عنصر الوقت، والتركيز، والهبة، والقدرة على المبادرة.

أسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن تتحوّل هذه العطسة الصغيرة إلى إيقاع دائم من الجدل الداخلي. فينشأ داخل الجبهة تيّار "نقدي" بلا رؤية، وتيّار "دفاعي" بلا بوصلة، وتيّار "محايد" بلا جرأة، ويتحوّل الكيان المقاوم إلى سلسلة من المواقف المتضادّة تُشتّت الجمهور، وتُضعف الرسالة.

لمواجهة هذه الاستراتيجية، لا يُطلب الصمت، وإنما يُطلب التمييز الحادّ بين النقد البناء وبين التوقيت المخربّ. فليس كلُّ نقد في وقت المعركة مفيداً، ولا كلُّ سكوت يُعدُّ جنباً. تحتاج المقاومة إلى مهارة

قراءة السياق؛ أن تُدير خلافاتها في العمق التنظيمي، لا على العلن، وأن تحفظ أولوياتها في مواجهة العدو، لا في الردّ على الذات. إنها ليست دعوة للجُم الخلاف، وإنما لفهم اللعبة: إنَّ العدوَّ لا يحتاج إلى قصف مواقعك إن كنت مشغولاً بالجدل عن تموضع عَلمك، أو ترتيب شعارك، أو تفسير عبارتك. في تلك اللحظة، العاصفة تشتدُّ، وأنت تعطس.

المحور السابع:

استراتيجيات الإغراق الإدراكي والمبادرة الناعمة

الاستراتيجية التَّاسِعَةُ والخمسون: الصَّدمةُ الأولى

الصورةُ الأولى... تُعيدُ كتابةَ كلِّ ما بعدها

حين يُعادُ تشكُّيلُ وعيكِ، تبدأُ العملية من لحظة اختراق عصبيٍّ أولى تسبق أيَّ محاولة للإقناع. فالتأثير الجذري يتسلَّل عبر الصدمة المبكرة التي تُرسِّخ في الأعماق قبل أن تتكوَّن أدوات الفهم الواعي. في هذه اللحظة التكوينية، يُعاد ضبط استقبالك للعالم، ويُعاد ترتيب أولويات الإدراك دون أن تمرَّ الفكرة عبر قنوات التحليل الواعي.

في أكثر مراحل الحرب النفسية دقَّة، يُعامَل الإنسان باعتباره كائنًا مدركًا له أعصاب وانطباعات أولى وخبرات تُبنى عليها بنيته التفسيرية. لا يُنظر إليه باعتباره متلقِّيًا للنصوص أو ناقلًا للخطاب، بل جهاز استقبال قابلاً لإعادة التهيئة. في هذا المستوى، يتغيَّر موضع السؤال من مضمون ما يُقال إلى طبيعة اللحظة التي ضُرب فيها الوعي للمرة الأولى. وهنا تُفَعَّل إحدى أخطر أدوات الهيمنة: الصدمة التأسيسية التي تُغرس بوصفها بنية

إدراكية تُعيد تشكيل طريقة استقبال العالم منذ بدايتها. جوهر هذه الاستراتيجية يكمن في أنّ أوّل صدمة نفسية أو معرفية يتلقّاها الإنسان في قضية ما — خصوصاً حين تكون عنيفة أو جارحة أو مبالغتة — تتحوّل لاحقاً إلى إطار إدراكي يتفاعل من خلاله مع كلّ ما يليها، حتى مع تغيير الواقع. فالصورة الأولى تُرسّخ بوصفها برمجة داخلية تسبق التحليل، وتلوّن الذاكرة، وتُهيئ ردّ الفعل.

يسمّي علم النفس المعرفي هذه الظاهرة «تثبيت النمط الإدراكي الأولي» (Primacy Effect in Cognitive Framing)، وهي آلية تُرسّخ الانطباع الأوّل؛ باعتباره الصورة الأكثر رسوخاً، ويصعب زحزحته حتى في مواجهة معطيات لاحقة تناقضه. وفي سياق الحرب النفسية، يُستثمر هذا المبدأ عبر خلق صدمة تأسيسية تُقنن الوعي ضمن قالب معين، ثم يُترك بعد ذلك ليتحرّك ضمن ذلك القالب دون الحاجة إلى تدخّل مباشر؛ لأنّ البنية الإدراكية تكون قد تشكّلت مسبقاً.

تُنفذ هذه الاستراتيجية غالباً عبر مداخل مرئية وعاطفية ومركزة:

١. طفل فلسطيني يُقتل أمام الكاميرا... وتُقدّم الرواية الإعلامية على أنه درع بشري.
٢. أوّل خبر يتلقّاه جمهور ما عن المقاومة يكون مصحوباً بصورة تفجير أو وجه ملثّم، دون سياق.

٣. أوَّل مشهَد يُعرض للعالم عن مدينة عربية مقاومة هو صورة خراب ودمار، دون شرح للمعتدي.

٤. أوَّل تعريف سياسي لحركة تحرُّرية يُرفَقُ باتِّهامها بـ”الإرهاب“ قبل أن يُسمح حتى بظهور سرديَّتها.

حين تُزرَع هذه الصدمة مبكرًا في الجهاز العصبي - الإعلامي للجمهور، تصبح مهمَّة تصحيح الصورة لاحقًا أكثر تعقيدًا، وتتطلَّب أضعافَ الجهد والوقت والتكرار. فالصورة الثانية تصل إلى وعي مشبَّع مسبقًا بانطباعات مقاومة لأيِّ سرديَّة بديلة. وهذا ما يجعل عملية إعادة التفسير محفوفةً بالارتداد العاطفي؛ إذ تكون البنية العصبية قد خضعت مسبقًا لبرمجة تُقيِّد نمط الاستجابة.

وفي البيئات المحليَّة، تُنتج الصدمة الأولى من خلال تجربة شخصيَّة جارحة: شاب ناشئ ينخرط في فعاليَّة سياسيَّة، ثمَّ يُهان بطريقة مدبَّرة من جهة مخترقة مسبقًا، فيرتبط في لا وعيه الفعلُ المقاوم بالإذلال أو العبثية. أو طفل يُمنع من دخول فعالية دينية بسبب فقره أو انتمائه إلى بيئة مهمَّشة، فيربط لاحقًا القيم الدينية كلَّها بالإقصاء. هذه الصدمة، حتى حين لا تكون مركزية أو إعلامية، تُحدث انزياحًا عاطفيًّا عن المعنى قبل أن يتكوَّن عقلاً. فالمعنى هنا يتشكَّل من خلال الجرح الأوَّل الذي يسبق اللغة.

هذه الاستراتيجية لا تنتظر الحدث لتعيد تفسيره، بل تتقدّم عليه بخطوة، وتعمل على تهيئة بيئة إدراكية تُوجّه طريقة استقباله قبل أن يقع. وبهذا المعنى، تتحوّل إلى البنية التحتية الخفية التي تُوجّه مسارَ المعركة منذ بدايتها، وتُعيد تشكيلَ شروطها دون أن تُعلن عن نفسها.

لا يقتصر الخطر الحقيقي على الألم الذي تُسببه الصدمة، بل يتجسّد في قدرتها على ترسيخ المعنى من خلال تجربة أولى تُصبح مرجعية لكل ما يليها. فحين يُبثُّ الخطاب المقاوم بعد هذه الصدمة، يصل إلى وعي قد تشكّل سلفاً، فتجري معالجته ضمن بنية إدراكية مهيمنة، ويخضع لتقويم تحكمه استجابات عصبية تتقدّم على أيّ تحليل منطقي. وهنا لا يعود النقاش قائماً على منطق أو برهان بل على استجابات مشروطة سلفاً.

لذلك، لا يمكن مواجهة هذه الآلية عبر إنكار حدوث الصدمة أو تجاهلها، إنّما من خلال تفكيك بنيتها، وتحليل توقيتها، وفهم الأدوات التي استُخدمت في صناعتها. فمَن يزرع الصدمة الأولى لا يحتاج إلى فرض السيطرة لاحقاً؛ إذ يكفيهِ أنّه ترك في الجهاز العصبي ما يسمح للمنظومة بأن تعمل من الداخل، دون حاجة إلى تدخّل مباشر أو رقابة مستمرة.

الاستراتيجية السُّتون: الوخزُ في العصبِ

وخزةٌ واحدةٌ في العصب... كفيلاً بأن تُربكَ يقينك

حين تُمسُّ في أكثر نقطة حسَّاسةٍ داخلِك، فإنَّ الغاية تتجاوز الإيلام؛ إذ تهدف إلى دفعك نحو إعادة التفكير في كلِّ شيء. فبعض الحروب تُوجِّه إلى العصب الحيِّ في الوجدان، بدلاً من أن تقتصر على الأفكار والمواقف والخطابات. إنَّها تستهدف الموضوع الذي يُعرِّف الكرامة، أو يخترن الجرح، أو يتَّصل بقيمة غير قابلة للتفاوض.

في هذه المساحة تحديداً، تُفعل الحرب النفسية عبر وخزة واحدة في الموضوع المناسب دون الحاجة إلى عدوٍّ ظاهر أو هجوم مباشر. تلك اللمسة الدقيقة كفيلاً بأن تهزَّ التوازن الداخلي وتفتح باباً للسؤال: هل ما أو من به يستحقُّ هذا القدر من الألم؟

هذا الوخزُ يتجسَّد في عبث خفيف بمقدَّسٍ داخلي دون أن يتَّخذ شكل إهانة مباشرة. سواء أكان هذا المقدَّس دينياً أم قومياً أم وطنياً أم شخصياً، يُساق إلى فضاء رمادي، ويُقدَّم بوصفه موضوعاً للنقاش، أو مثلاً تاريخياً، أو نصّاً قابلاً للتأويل. ثمَّ يُقارب بلغة تبدو محايدة، فتُطرح عبارات من قبيل:

١. «ربَّما لا نعرف كلَّ التفاصيل عن هذا الشهيد».

٢. «أليس من حقِّنا أن نُعيد التفكير في جدوى هذه المقاومة؟»

٣. «هل يُعقل أن كلَّ مَنْ مات كان بطلاً؟»

٤. «هل نُعادي الآخر فقط لأنَّ أسلافنا فعلوا؟»

تنطلق الحرب من لحظة تحييد المشاعر عبر الشكَّ الهادئ، لا من خلال صدمة عنيفة. والغرض من هذا المساس هو فتح المجال لإعادة ترتيب الروابط الشعورية، وليس إثارة الصدام أو العنف. تتمثَّل الغاية في تفكيك العصبية النفسية المرتبطة بالرمز دون الحاجة إلى تحطيمه. فيبدو المشهد كأنَّ شيئاً لم يُمسَّ؛ إذ لم يُقدِّم ما جرى على أنَّه نقد مباشر، بل لمسة خفيفة في منطقة شديدة الحساسية، تُؤدِّي — إذا لم تُفهم — إلى ارتباك داخلي عميق.

في علم النفس العاطفي، تُصنَّف هذه التقنية ضمن ما يُعرف بـ«المساس المنضبط بالمحرَّم العاطفي» (Regulated Touch on Emotional Taboos)، وهي آلية إدراكية تستهدف النقطة الأكثر حساسية في الهُوِيَّة، لا بهدف إثارة الصدام بل لتهيئة المجال لإعادة ترتيب الروابط الشعورية القديمة. هذا الترتيب الجديد يُمهِّد لاحقاً لإدخال قراءات أقل انفعالاً، وأكثر قابلية للتطويع.

غالبًا ما يُمارَس هذا النوع من المسَّ من خلال مثقِّفين ينتمون إلى البيئة المقاومة ذاتها، ممَّن يُعرفون بالاعتدال أو بالقدرة على المقاربة

الفكرية المعمّقة. وقد يظهر أيضًا عبر شخصيات توصف بـ “الشجاعة” حين تطرح كسر المحرّم من باب “الصدق مع الذات”. وعندما تنجح هذه العملية، تُروّج باعتبارها فتحًا معرفيًا جديدًا، وتُخفي طابعها التفكيكي تحت غلاف التجديد. أمّا الواقع، فيكشف أنّ ما حدث لم يكن تطوُّرًا في العقل بل تراجعًا في الحماية النفسية لرموز كانت تمنح الوجدان طمأنينة الانتماء والهويّة.

هذا النوع من الوخز لا يقع في لحظة التشكُّل الأولى، بل يأتي بعد أن يستقرّ البناء وترسّخ القناعات. هذه اللحظة لا تُنتج البنية، بل تختبر صلابتها. كثيرون يصمدون في وجه الهجوم المباشر، لكنّ وضوحهم يتلاشى حين تلامس قيمهم بلغة هادئة ومحايدة، تجعلهم يعيدون النظر في أنفسهم بطريقة تُفرغ اليقين من جذوره.

هذه المعركة لا تُدار من الخارج، بل تنشأ في داخلك وتُعيد تشكيلك من الداخل. وقد تظنُّ أنّك أصبحت أكثر نضجًا، في حين أنّ ما تبدّل فعليًا هو حرارة انفعالك في الدفاع عن ذاتك، لا بنية وعيك.

الاستراتيجية الحاديةُ والسُّتون: المسُّ في المعنى

حين يُوجَّه الاستهدافُ إلى البنيةِ التي تمنحُ الموقفَ معناه،
لا إلى الموقفِ ذاته

بعض الحروب النفسية تتجاوز تشويه الصورة أو ضرب الشعارات أو صناعة البدائل، لتبلغ مستوى أكثر عمقاً وتعقيداً؛ حيث يُستهدف المعنى نفسه. لا ينصبُّ التركيز على الموقف، بل على النسيج التفسيري الذي يمنحه الفاعلية، ويجعله مفهوماً، مشحوناً، قابلاً للاستدعاء. فعندما تُفْرغ المفاهيم من علاقتها الشعورية، وتُعاد صياغتها في قوالب تحليلية باردة، يصبح من الممكن المساس بالمواقف الكبرى دون أيِّ مواجهة مباشرة؛ لأنَّ الرابط الداخلي بها يفقد فعاليته.

في هذا النمط من الاستراتيجية، لا يظهر العدوُّ في هيئة المحرِّض أو الناقد بل يتقمَّص دور المحلِّل الحيادي أو المرجع المعرفي، يطرح الأسئلة عن السياقات، ويعيد ترتيب الأولويات، ويقدم للمفاهيم التي كانت محسومة (كـ"الكرامة"، و"التضحية"، و"الاحتلال"، و"الشهادة") زوايا جديدة تدعو إلى إعادة التفكير: "لمَ لا نعيد النظر؟"، و"هل يمكن فهم هذه الكلمات اليوم بطريقة مختلفة؟"، و"أليس المعنى متغيراً بحسب اللحظة؟". ومن خلال هذه الأسئلة، لا

تُغنى المفاهيم، لكنَّها تفقد أثرها الحيَّ، وتُختزل في بنى لغوية خالية من الحرارة.

في علم النفس المعرفي، تُعرف هذه الظاهرة بـ“تفكيك القيمة الشعورية للرمز” (Emotional Decoding of Symbols)، وهي عملية لا تهدف إلى حذف الرمز من الوعي بل إلى فصل علاقته بالحمولة الشعورية التي تمنحه قوَّته. يظلُّ المعنى حاضرًا، لكنَّه يفقد نشاطه. يشبه ذلك الفرق بين صورة شهيد تُبكيك، وصورة شهيد تُدرج في بحث أكاديمي جاف: الرمز لا يُمحي، لكنَّه يتوقَّف عن التحرك في داخلك. تكمن خطورة هذا المستوى في أنَّ التأثير لا يُمارَس عبر الإنكار، بل من خلال التحليل المفرط. فتصبح المقاومة “حالة قابلة للمساءلة”، ويُعاد تأويل التاريخ في ضوء “المصالح المتبادلة”، وتُفكَّك اللغة الكفاحية ضمن مناهج حيادية تعيد بناء النصوص، وتتعامل مع القيم الكبرى باعتبارها أشكالًا خطاب، لا مرجعيَّات ضميرية.

تُمارَس هذه الاستراتيجية غالبًا في أوساط النخبة المثقَّفة، والدوائر البحثية، والخطابات ما بعد الحداثية التي تتعامل مع كلِّ يقين بوصفه بنية خطابية قابلة للتفكيك. ومع مرور الوقت، تنتقل هذه المقاربات إلى الفضاء العامِّ، فتُعاد صياغة المفردات القديمة بطريقة لا تثير أحدًا، ولا تُقلق أحدًا، ولا تُحدث أثرًا يتجاوز مستوى الفهم الساكن.

ما يميّز المساس بالمعنى عن الوخز في العصب أنّ الأوّل يعمل على النسيج التأويلي طويل الأمد، لا على نقطة حسّاسة بعينها. لا يتعلّق بلحظة شعورية بل بإزاحة كاملة لطريقة ارتباط العقل بالعالم من خلال اللغة. وبهذا، تتراجع المفاهيم إلى مرتبة أدوات تحليل، لا أدوات تعبئة، وتفقد قدرتها على إطلاق الموقف؛ لأنّها لم تعد تحركّ الوجدان، بل تخاطب الذهن وحده.

وعندما يُعاد تعريف "الحقّ" بأنّه وجهة نظر، و"الموقف" خيار تفاوضي، و"المقاومة" استجابة نفسية لخبية وطنية، يصبح من الطبيعي أن يستمرّ الناس في الحديث عن قضيتهم... دون أن يتحركّ فيهم شيء. هذا النوع من المساس لا يحدث دفعة واحدة بل يتراكم عبر قراءات، ومراجعات، وحياد لغوي متصاعد. وإذا لم يُستدرك بتحسين المعنى من الداخل، فإنّ اللغة، رغم مألوفيتها، تفقد قدرتها على أداء وظيفتها الأصلية.

الاستراتيجيةُ الثَّانيةُ والسُّتون: عرشُ الصِّدى

حين لا تُصنَعُ الفِكرَةُ في رأسِك، بل في المساحةِ التي تكررُ فيها ما سمعتهُ

لا يتشكَّلُ الوعيُّ فقط بما نفكرُ فيه بل أيضًا بما نكرُّه؛ لأنَّنا سمعناه مرارًا. فليس كلُّ ما نقوله من إنتاجنا الذاتي، ولا كلُّ ما نُؤمن به مرَّ عبر عملية نقد وتحليل. في داخل كلِّ فرد، طبقة خفية من «الافتناع عبر التكرار»؛ حيث يتغلغل الصوت الخارجي في بنية الذات حتى نَظنَّ أننا نحن من فكرنا به. وهنا تعمل استراتيجية عرش الصدى، حين يتنازل الوعي عن فاعليته لصالح إعادة إنتاج ما استُقبل بكثافة محسوبة، لا بحجَّة مقنعة.

في هذا النمط، لا تحتاج الحرب النفسية إلى تقديم فكر بديل أو تفكيك المعتقدات الصلبة، بل يكفي أن تُنشأ منظومة تردُّ تغرق الفرد في بيئة سمعية وبصرية مليئة برسائل متكرِّرة، ومريحة، وسهلة الاستهلاك، لا تثير القلق، لكنَّها تعيد قول الشيء ذاته بطرائق متجدِّدة. والنتيجة: لا تبديل فوري في المواقف، بل تحوُّل تدريجي في نبرة القناعة، تُصبح أكثر لينًا، أو أكثر تحفُّظًا، أو أكثر انسجامًا مع لغة الخصم.

يُعرِّف علم النفس الإعلامي هذه الظاهرة بـ«تأثير التعرُّض المتكرَّر»

(Mere Exposure Effect)، وهي آلية غير شعورية تجعل الفرد يميل إلى تصديق أو قبول ما سمعه مراراً، حتى لو لم يكن منطقياً. ويتضاعف الأثر حين يكون الصوت المتكرّر محايد النبرة، وغير صدامي، ويُقدّم داخل محتوى ترفيهي، أو حوار ديني هادئ، أو مقالة ثقافية، ما يُخفّض دفاعات الوعي ويُسهّل تمرير الرسائل.

تُستخدم هذه التقنية بكثافة في الإعلام الناعم:

١. تتكرّر عبارة "الحل السلمي هو الخيار الواقعي" في نشرات

الأخبار، ومقابلات الضيوف، والإعلانات الجانية، وحتى في الأغاني الوطنية.

٢. تُردّد مقولات مثل "الشعب يريد أن يعيش"، و"لا يمكن

مقاومة الواقع"، و"الحروب لا تأتي بخير" في المسلسلات، ومقاطع الفيديو، والتعليقات العامة.

٣. تُحصّر المفاهيم المقاومة بموجة من الصيغ الأخرى،

فتتراجع من التداول دون قمع مباشر.

في هذا السياق، لا يدخل العدو في حوار بل يجلس على عرش

الصدى، ويتركك تتحدّث نيابة عنه من حيث لا تدري. يخفي صوته،

لكن كلماته تتردّد على لسانك، أو في لسان جمهورك، لأنّهم اقتنعوا

بل لأنّهم سمعوا ذلك بما يكفي ليبدو مألوفاً.

وهنا تكمن خصوصية هذه الاستراتيجية مقارنة باستراتيجيات مثل المساس بالمعنى أو التحدُّث بلسان الخصم: لا يخترق عرش الصدى الرموز أو المفاهيم، إنَّما يرسِّخ ما يُراد له أن يستقرَّ في الأعماق عبر التكرار المريح. ليست حرباً على القيم، وإنَّما إشباع خفي لمخازن التلقِّي، حتى يتكوَّن ”الإجماع الصامت“ دون أن يُدعى أحد للتصويت. خطورتها أنَّها لا تُكتشف بسهولة؛ لأنَّ أحدًا لا يشعر أنَّه تغيَّر لمجرَّد أنَّه ردَّد عبارة. لكنَّ الصدى لا يكرَّر فقط... بل يُربِّي. وحين تستفيق الجماعة، بعد سنوات من الاستماع السلبي، وتجد أنَّها لم تعد تحركها المفاهيم نفسها، قد لا يكون السبب سقوط المعاني، إنَّما جلوس الأصوات الأخرى على العرش... بهدوء، ودون معركة.

الاستراتيجية الثالثة والسُّتون: البصمة الأولى

حين يُزرَعُ فيكَ معنى صغيرٌ... ويغدو أساساً لكلِّ تصوُّراتِكَ
اللاحقة

بعض الأفكار لا تنشأ نتيجة قراءة واعية، أو تحليل نقدي، أو تفاعل مباشر مع الواقع. إنَّها تُغرس في الوعي في لحظة مبكرة من العمر، غالباً في الطفولة أو المراهقة أو في أثناء صدمة أولى، وتستقرُّ هناك بصفقتها أثيراً أولياً لا يمُحى. هذه الفكرة لا تُعلن عن نفسها، ولا تُقدِّم بوصفها قناعة، بل تتسلَّل إلى العمق وتبدأ بالعمل من خلف كلِّ شاشة ذهنية؛ باعتبارها البصمة الأولى التي طُبعت على الإدراك، فصارت معياراً خفياً يُقاس به كلُّ شيء، حتى دون أن يدرك صاحبها أنَّه يحتكم إلى معيار. هذه البصمة لا تتخذ شكل موقف صريح من قضية، وإنما تتجلى في تكوين نفسي داخلي، غالباً غير واعٍ يتسرَّب إلى طريقة النظر، ونغمة الاستجابة، وحتى إلى طبيعة الأسئلة التي يطرحها الإنسان على نفسه. إنَّها الانطباعات التأسيسية التي يُطبع بها العقل عن مفاهيم، مثل العدل، والكرامة، وهيبة الرمز، وحدود القوَّة، وسقف الممكن، وصورة الذات والآخر. وما إن ترسخ هذه البصمة، حتى تبدأ في العمل بوصفها مرجعاً داخلياً يعيد توجيه المواقف، ويعيد تفسير الوقائع دون

أن يشعر الإنسان بأنه يُعيد إنتاج فكرة قديمة. في سياق الحرب النفسية، لا يُترك تشكُّل هذه البصمة للمصادفة، بل يُصاغ بعناية. تُصمَّم الظروف التعليمية، والإعلامية، والاجتماعية، لتوليد البصمة المطلوبة. وقد تتجسَّد هذه البصمة في تجربة شخصية - كأنَّ يتعرَّض الفرد لخدلان مبكر من جهة مقاومة، أو لقمع في بيئة دينية، أو لتهميش داخل جماعة - أو في صورة جمعية، كأنَّ يُلقنَّ الجيل الجديد أنَّ المقاومة عبثية، أو أنَّ الثورة فوضى، أو أنَّ الطاعة للمستبدِّ تمثل نوعاً من الحكمة والنجاة. هذه اللحظات لا تتكرَّر، لكنَّها تتحوَّل إلى عدسة داخلية يُعرَّز من خلالها كلُّ ما يدخل إلى الذهن لاحقاً. في علم النفس التطبيقي، يُشار إلى هذه الظاهرة باسم «النقش الإدراكي الأولي» (Primary Cognitive Imprint)، وهي تشير إلى أنَّ بعض الانطباعات المبكرة تتحوَّل إلى محدَّدات غير واعية للتفكير، حتى لدى أكثر الناس وعياً وثقافة. فالعقل لا يبدأ صفحة بيضاء، بل يولد وفيه حبر دقيق كُتِب في لحظة عابرة، لكنَّها شديدة التأثير، ويتحوَّل هذا الحبر إلى نسغ داخلي يغدِّي كلَّ فروع التفكير، دون أن يُرى أو يُستشعر بوضوح.

تُستثمر هذه الظاهرة في الحروب الناعمة بشكل استباقي. تسعى المنظومات المعادية إلى صناعة البصمة الأولى بنفسها، تجنُّباً

لخوض معارك فكرية كبرى لاحقًا. فإذا نجحت في إقناع الطفل بأنَّ المقاومة شكل من أشكال التعصّب، أو بأنَّ الرموز الكبرى لا تستحقُّ التقديس، أو بأنَّ العالم لا يحترم إلا من يهادن، فإنَّها لن تحتاج إلى إقناعه لاحقًا بتفكيك موقفه. سيقوم بذلك بنفسه، حين يكبر ويظنُّ أنه يفكر بموضوعية، فيما هو في الحقيقة يتحرّك من بصمة لم يخترها، بل زُرعت فيه ذات يوم، بلطف أو بعنف.

تتجلّى هذه الدينامية بوضوح في البيئات التي خضعت لبرامج "إصلاح تعليمي"، أو "تطوير مناهج"، أو حملات إعلامية طويلة الأمد. فالصورة الأولى التي يتلقّاها الجيل عن قضيتته، وعدوّه، وذاته، ورموزه، تتحوّل إلى مادة تفكير تلقائي، يُعاد إنتاجها حتى بعد نسيان مصدرها.

وما يميّز هذه الاستراتيجية عن سابقتها -الصدمة الأولى- هو أنّ البصمة لا تظهر فعلاً مفاجئاً أو جارحاً، وإنما تتكوّن عبر بناء متدرّج وهادئ؛ يجري داخل مؤسّسات التربية، والإعلام، والترفيه، وأحياناً في الحديث العابر داخل البيت. لا تُحدث البصمة ألماً مباشراً، لكنّها تؤسّس لذائقة ذهنية جديدة، تُعيد تشكيل ما يُستساغ وما يُستنكر، وما يُفرح وما يُقلق، وما يُعتبر شجاعاً وما يُوصَف بالتهوّر.

وحين تبقى البصمة غير مكشوفة، تواصل عملها بصمت. فكلُّ

المحور السابع - الاستراتيجية الثالثة والسّتون ٢٤

تحليل عميق، وكلُّ جدال فكري، وكلُّ مواجهة خُلقيّة... تدور في فلکها؛ لأنّها لا تمثّل مجرد فكرة داخل الوعي، بل تشكّل النقطة التي منها يُبنى الوعي أصلاً.

لهذا، فإنّ المقاومة النفسية تتجاوز حدود المواجهة المباشرة مع العدو، وتمتدّ لتشمل إعادة فحص النقطة التي بدأ منها إدراكنا للأشياء. لا تتمثّل الغاية في التّنكّر لما عشناه، وإنّما في فهم كيفية تشكّله داخلنا، وكيف يمكن تحرير المعنى من الطابع الذي خُطّ به أوّل مرة.

الاستراتيجية الرَّابِعةُ والسُّتُونُ: ملءُ السَّاحَاتِ بالتَّفَاهَةِ

حين يُنزَفُ الوَعْيُ في مَعَارِكِ بلا جَدْوَى

في زمن الحرب النفسية الشاملة، لا يحتاج العدوُّ إلى إغلاق المنصَّاتِ أو مصادرة الكلمة. يكفيهِ أن يملأَ الفضاءَ بالضجيجِ، ويغمُر الناسَ في مواضيع جانبية، وقضايا تافهة، وجدالات استعراضية. بهذه الطريقة، تتراجع الحقيقة إلى الخلف، ويُسْتبدل التركيز بالتيه. لم تعد الرقابة المباشرة الوسيلة الوحيدة للهيمنة؛ إذ أصبح الإغراق في اللأ جدوى أداة أكثر فاعلية.

يتجلى هذا النموذج بوضوح في ما يحدث يومياً على منصَّات التواصل. فعندما تتصاعد معركة سياسية أو ميدانية، تظهر فجأة موجات من «الترندات» المصنوعة بعناية: نكات، ومشاهد محرّفة، وسجلات عن تفاصيل شكلية، أو معارك مفتعلة بين مؤثِّرين. وبهذه الطريقة، يُسحب الجمهور تدريجياً من ميدان الفعل إلى ميدان الفرجة، ومن جوهر المعركة إلى سطح النقاش، ومن فلسطين ولبنان واليمن... إلى لباس أحدهم، أو لهجة إحداهن، أو تغريدة عبثية من مشهور.

في هذا السياق، يتعرَّض الوعي للاستنزاف المستمرّ. يُستهلك في مشاهد صغيرة لا تقود إلى معرفة أو موقف، ويُعاد تشكيل الوجدان عبر

المحور السَّابعُ - الاستراتيجية الرَّابعةُ والسَّتون ٢٤٣

ضخٌّ دائمٌ لمحتوى خفيف، ومُشوَّش، وسريع التَّبخُّر. ومع الوقت، تتآكل قدرة الجمهور على التركيز، وتضعف رغبته في الغوص. كلُّ شيءٍ يُقدَّم ليُتلع بسرعة، ويُسى بسرعة.

تصف دراسات علم النفس المعرفي هذه الظاهرة بأنَّها جزء من «اقتصاد الانتباه» (Attention Economy)؛ حيث يتحوَّل الانتباه نفسه إلى سلعة، ويصبح التحكم في وجهته أداة هيمنة. وعندما يُوجَّه الانتباه نحو الهامش، يُترك المركز مكشوفاً دون حماية.

في فترات التصعيد، تُلاحَظ بعض القنوات الإخبارية التابعة لمحور العدوِّ وهي تتجنَّب الدخول في السجال المباشر. تكتفي ببثِّ موادٍ "عادية": برامجٍ منوَّعة، ومقابلات مع فنَّانين، ونقاشات عن قضايا مجتمعية سطحية. ويُقدَّم هذا المحتوى بوصفه الحياة الطبيعية، فيبدو ما يحدث في الميدان كأنَّه خارج الإطار العام. بهذه الطريقة، ينفصل الفعل المقاوم عن الإحساس الجمعي بالحياة اليومية.

حتى في بيئات المقاومة، تتسرَّب هذه الثقافة أحياناً من غير وعي. يتحوَّل الشباب إلى أسرى النقاشات الهامشية، وتلهث الرموز الثقافية وراء "الترند"، ويعيش الجمهور انفعالات لا تنتج أثراً. وهكذا، تتآكل الطاقة النفسية للمقاومة من الداخل لا بفعل هجوم مباشر، بل من خلال مراوغة ذكية تُعيد توجيه الانتباه إلى ما لا يُحدث أثراً.

مواجهة هذه الاستراتيجية تتطلَّب وضوحًا في ترتيب الأولويات. تبدأ المقاومة الحقيقية حين يُعاد تنظيم الوعي على قاعدة دقيقة: ما الذي يستحقُّ أن نمنحه وقتنا؟ وما الذي يُسرق منَّا تحت لافتة ”الترفيه“ أو ”الحرية“ أو ”الاهتمام بالشأن العام؟“ فالمألوف ليس دائمًا بريئًا، والتفاهة حين تُدار بخبث، تتحوَّل إلى أداة تعمية لا تقلُّ خطورة عن الكذب الصريح.

الاستراتيجية الخامسة والسُّتُون: المبالغةُ في التحليلِ لتفريغِ المعنى

حين يُجهضُ التَّفْسِيرُ كُلَّ اندفاعٍ، ويُفَرِّغُ الوعيُّ من بَوصَلتهِ في عالمٍ أصبحت فيه المعرفةُ متاحةً على الفور، تغيَّرت أدوات العدوِّ. لم يعد يركِّزُ على حجب المعلومة بل بات يغمر العقل بكثافة التحليل. لم تعد الحقائق تُخفى، بل تُقدِّم عبر مئة زاوية، ومئة خبير، ومئة تحليل متناقض، حتى يفقد المتابع القدرة على صياغة موقف واضح. هكذا تُمارَس لعبة المبالغة في التحليل: حين يُستخدم العقل ذاته أداةً لتشويش العقل.

تبدأ هذه الاستراتيجية من الترويج لفكرة أن كلَّ شيء معقَّد، وأنَّ الفهم البسيط لأيِّ حدث غير ممكن. كلُّ قرارٍ سياسي يُربط بخلفيات متداخلة، وكلُّ موقفٍ عسكري يُحمَّل باحتمالات متضاربة، وكلُّ جبهة تُقدِّم باعتبارها سرديَّتين متوازيتين. وفي هذا المناخ، يُعاد تشكيل وعي الجمهور بطريقة تُضعف حسَّ الانحياز الخُلقي، وتُنتج حالة من الشلل التحليلي.

في الحرب على غزة، مثلاً، يُقدِّم المشهد من خلال مئات التفسيرات: من زاوية الأنظمة، والتاريخ، والاقتصاد، والإقليم، والصراع المذهبي،

والانقسام الفلسطيني، والردع، والاستثمار السياسي... بينما يُهمَّش العنصر المركزي: وجود احتلال، ومقاومة تقاتل. ويُدفع الجمهور إلى دوامة من الأسئلة: من المستفيد؟ ما الرسائل؟ وما الحسابات؟ ومع تكرار هذه الأسئلة، يُنهك الذهن، وتُغتال داخله الفكرة الأوضح؛ أنَّ هناك ظالماً ومظلوماً، ومقاوماً يدافع عن أهله.

هذه الاستراتيجية تُنتج نمطاً من «المثقف المرتبك» الذي يُحلل كلَّ شيء، ويشرح كلَّ شيء دون أن ينتمي إلى شيء. لا يدافع، ولا ينحاز، ولا يشتبك. يكتفي بالمراقبة من عل، ويشرح للمقهورين لماذا لا ينبغي لهم أن يغضبوا كثيراً؛ لأنَّ الصورة «أعقد مما يظنون».

وفي علم النفس السياسي، تُصنّف هذه الحالة ضمن ما يُعرف بـ (شلل الوعي عبر الإفراط المعرفي) (Cognitive Paralysis through Over-Interpretation)، وهي حالة تفقد فيها المعلومة وظيفتها؛ لأنَّ العقل يُنهك بين التفسيرات المتضاربة دون أن يصل إلى قرار أو موقف. في هذا السياق، لا يحتاج العدوُّ إلى تزوير الحقائق. يكفي أن يغمرها في بحر من التأويلات، وأن يحوّل كلَّ وضوح إلى شكٍّ، وكلَّ سردية إلى تشويش، وكلَّ صرخة إلى سؤال بلا جواب. والنتيجة؛ جمهور ذكي... لكنّه مشلول.

الردُّ على هذا النمط من الحرب لا يتطلّب رفض التحليل بل يستدعي

المحورُ السَّابِعُ - الاستراتيجية الخامسةُ والسُّتُونُ ٢٤٧ ◆

التمييز بين ما يُنير الفهم وما يُفْرِغُ الموقف. إنَّ التحليل الحقيقي هو ما يُعيد توجيه البوصلة، لا ما يُطفئها. فالمعرفة التي لا تُؤدِّي إلى الانتماء، تتحوَّل إلى شكل آخر من الجهل المقنَّع.

الاستراتيجية السادسة والسُّتون: المديحُ المشروطُ

حين يُغرى المقاومُ بالمديحِ للتخليِّ عن مقاومته لا تبدأ الحرب النفسية بالعداوة دائماً. أحياناً، تتسلَّل عبر المديح. لكنَّه مديحٌ لا يصفو، بل يُقنِّن ويُقنِّع، يحمل في طياته رسالة مموَّهة: «نحبُّكم... إذا تخليتُم عن بعضكم». «نحترمكم... إن خفَّتم من خطابكم». «أنتم أبطال... ولكن لا داعي للمواجهة». هنا، لا يُراد للمقاومة أن تُهزَم بل أن تُهدَّب سياسياً، لتبقى مقبولة في المشهد... لا حقيقية فيه.

هذه الاستراتيجية تُستخدم بكثافة في الإعلام الغربي، وفي خطاب بعض الدول التي تدَّعي الحياد. فيُمتدح المقاوم على «نبله»، و«صلابة مقاتليه»، و«جبهه للحرية»، ثم يُطلب منه - بلطف مدروس - أن يكون «أكثر عقلانية»، أو «أقل تطرُّفاً»، أو «منفتحاً على الحلول». ويُصاغ الخطاب كأنَّ العدوَّ يُغفل، وتُحمَّل الضحية وزر الانفعال، أو الشعار المرتفع، أو التحالفات التي تُربك الساحة.

وفي هذا الإطار، لا يُواجه المقاوم بالفرض، بل يُغوى بالثناء المسموم: «أنتم رائعون... ولكن!»، وكلُّ ما يأتي بعد «ولكن» هو جوهر الحرب النفسية. فالمديح، حين يُستخدم طُعماً، يُراد له أن يُخدِّر الحسَّ النقدي، ويُعيد تشكيل السلوك.

ويُلاحَظ أنَّ هذا النوع من الخطاب ينتشر أيضاً بين من يُعرفون أنفسهم أصدقاءً للمقاومة، لكنَّهم يكرِّرون العبارات الناعمة: «نُحبُّكم ولكن نختلف معكم في هذا الملف». «نقدِّركم ولكن لیتکم تبتعدون عن ذلك الحليف». «أنتم شجعان، ولكنَّ خطابكم متشجج». ولا تُطرح هذه العبارات للنقاش الصادق بل هي جزء من ترويض الوعي الشعبي لتقبُّل انسحاب تدريجي من الصلابة.

في علم النفس الاجتماعي، تُصنَّف هذه الحالة ضمن ما يُعرف بـ«احتواء الذات عبر المدح الموجَّه» (Manipulative Praise Containment)، أي حين يُستَخدم الإطراء وسيلةً لتعديل السلوك، لا لتكريمه. فيكافأ المقاوم بعبارات إيجابية، فقط حين يُظهر مرونة... تُضعف موقفه.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، ما يحدث في بعض وسائل الإعلام الغربية التي تُثني على «إنسانية الفلسطينيين»، وعلى «ثقافتهم»، وعلى «صمودهم الجميل»، لكنَّها تُدين كلَّ فعل مقاوم يتجاوز حدود الخطابة. كأنَّ المطلوب: أن تُرثي لا أن تُرهب، وأن تُغني لا أن تُغيِّر. الرَّدُّ على هذه الاستراتيجية يبدأ من تفكيك المديح ذاته؛ أن ندرك أن الإعجاب قد يُخفي نقيضه، والثناء قد يُغلِّف الترويض. وأنَّ المطلوب من المقاومة أن تكون حقيقية، لا مقبولة؛ لأنَّ القبول الذي يُبنى على التنازل... هو قبول يُفجِّر الداخل أكثر ممَّا يحمي الخارج.

الاستراتيجية السَّابعةُ والسُّتون: التَّلَاعِبُ بالمفاهيمِ داخل المحتوى الترفيحي

حين تُمرَّرُ الهزيمةُ عبر الأَغنيةِ والفيلمِ والمشهدِ العابرِ تتجلى استراتيجية جديدة تتقاطع ظاهرياً مع محاولات سابقة لتطويع اللغة وتمييع المفاهيم، لكنَّها تنفرد بمسار مختلف في العمق. فبينما ركَّزت استراتيجيات، مثل «تفجير المفاهيم من داخلها» أو «إعادة تعريف النصر»، على إعادة تشكيل المعنى ضمن السياقات السياسية والإعلامية والخطابية. تعتمد هذه المقاربة على التسلُّل الهادئ عبر أدوات الترفيه والفنِّ والمشاهد اليومية التي تتراكم في الوجدان دون أن تثير مقاومة نقدية مباشرة.

في هذا الإطار، تُعاد صياغة المفاهيم الكبرى من خلال أدوات تبدو بريئة: الضحكة العابرة، والأغنية العاطفية، والمسلسل الشعبي، أو اللعبة الإلكترونية. تتشكَّل صورة جديدة عن «الحرية» بوصفها تحرراً من الدين والعائلة، وعن «الكرامة» باعتبارها مظهراً خارجياً، وعن «الصمود» بصفته عناداً غير عقلائي، وعن «المقاومة» بصفتها مشروعاً عبثياً ينتهي بالموت أو الانغلاق. وتُمرَّرُ هذه الرسائل عبر شخصيات محبَّبة ومشاهد مؤثِّرة وأغانٍ مشحونة بالعاطفة، في غياب تام لأيِّ

المحور السَّابِعُ - الاستراتيجية السَّابعةُ والسُّتُونُ (٢٥)

إشارة مباشرة إلى العدو أو إلى السياق الحقيقي للصراع. يُوجَّه الطفل، من خلال أفلام الرسوم المتحرَّكة، نحو عالم يخلو من أيِّ خلفية صراعية، ويربِّي على أن البطولة تكمن في إنقاذ الكوكب من الكوارث البيئية أو الفضائية، لا في مواجهة الاحتلال أو الدفاع عن الأرض. وتُختزل القضايا الكبرى في مواقف خُلِّقَت فردية، تُفصل عن الجغرافيا والتاريخ، وتُقدِّم المقاومة بوصفها انفعالاً أو فوضى أو عنفاً غير مبرَّر.

تتجاوز هذه المقاربة حدود الخطاب السياسي التقليدي الذي يُمارَس عبر المقالات والمنصَّات الإعلامية؛ إذ تنخرط في إعادة تشكيل الوجدان الجمعي للأجيال الجديدة من خلال قوالب ناعمة تُعيد تعريف مفاهيم البطولة والحقِّ والخير ضمن أطر معولمة تُفرِّغها من جذورها المحليَّة وسياقاتها التاريخية.

وقد تجلَّى هذا النمط من التلاعب في عدد كبير من المسلسلات العربية التي تُنتج محليًّا وفق أجندات دولية. يُروَّج فيها للسلام باعتباره الغاية القصوى، وللحياد علامة على الحكمة، وللاعتدال بوصفه قبولاً بالتنازل. وتُنبثُّ روح اللأجدوى في كلِّ اتِّجاه: الجميع مخطئون، ولا أحد يستحقُّ الدفاع عنه، والحياة قصيرة تستحقُّ الاستمتاع فقط.

يُعرِّف علم النفس الإعلامي هذا النوع من التأثير بمصطلح «التشكيل

اللاّواعي للمعايير القيمية) (Subconscious Value Framing)؛ حيث لا يُطلب من المتلقّي أن يغيّر رأيه صراحة، ولكن يُعاد تشكيل شعوره الداخلي تجاه القيم الكبرى من خلال التكرار العاطفي والمشاهد الإيحائية التي تلامس اللاّوعي.

لا يشنُّ العدوُّ حرباً مباشرة على المفاهيم، إنّما يملأ الوعي بأبطال جدد لا علاقة لهم بالحقّ، ويربط السعادة بالاستسلام، والنجاح بالاندماج، والبطولة بالانفصال عن الجرح الجماعي.

ومواجهة هذا النمط من التسلُّل الرمزي تتطلَّب أكثر من المنع أو الرقابة؛ إذ تحتاج إلى إنتاج فنيّ بديل يحمل المفاهيم الأصلية ويغرسها في أشكال إبداعية قادرة على الوصول إلى القلب والعين. فالمفاهيم لا تُبنى في الكتب وحدها، وإنّما تتجدَّر في اللحن، والصورة، والنبذة، واللحظة العابرة التي تترك أثراً لا يُمحي.

المحور الثامن:

استراتيجيات بناء الإيقاع النفسي

الاستراتيجية الثامنة والستون: كيمياء الجماعة

المزاج الجمعيُّ قد يقودك إلى ما لم تختره يوماً

حين يتعدَّر على الإنسان التَّفكيرُ بمعزلٍ عن محيطه، يتحوَّل من كائنٍ مستقلٍّ إلى جزءٍ من معادلةٍ شعوريةٍ تتجاوزه. في الأوقات العادية، يبدو الفرد كياناً قائماً بذاته: له قناعاته، وتحليلاته، وقراراته التي يظنُّ أنَّه توصَّل إليها بوعيه الخاص. لكنَّ لحظات التحوُّل الجماعي - سواء كانت حرباً أم ثورة أم هزيمة أم نصراً - تدفع الوعي إلى تجاوز حدوده الفردية، وتُدخِله في ما يمكن تسميته بـ«الكيمياء النفسية للجماعة». في هذه اللحظات، تصبح القناعات الشخصية غير كافية لتفسير السلوك؛ إذ تظهر قوى دفينة تعيد ترتيب الإحساس، وتدفع الفرد إلى الانخراط في منظومة وجدانية أوسع، قد تحرَّكه في اتِّجاهات لم يكن يتوقَّعها أو يختارها مسبقاً.

تتجاوز استراتيجية «كيمياء الجماعة» مخاطبة القيم أو الأفكار

المجرّدة، وتعتمد على ما يسمّيه علم النفس الاجتماعي بـ«العدوى الشعورية» (Emotional Contagion)، أي انتقال الانفعال من شخص إلى آخر حتى يتشكّل سلوك جمعي يبدو عقلاً من الخارج، رغم أنّه في جوهره استجابة تلقائية لإيقاع نفسي نشأ داخل الجماعة، ثمّ بدأ يُعاد إنتاجه داخل كلّ فرد. هذا الإيقاع لا ينبع من سلطة خارجية، بل يتكوّن تلقائياً من تفاعل المشهد: تراكم الأصوات، وتكثّف النظرات، وتوحّد الهتاف، وتحوّل الإحساس الجمعي إلى طاقة تتجاوز تفاصيل الأفراد المشاركين فيها.

تستثمر الحرب النفسية هذه الظاهرة بهدف إعادة تشكيل البنية الشعورية للجماعة. وبدلاً من محاولة إقناع الأفراد بفكرة محدّدة، تُصمّم بيئة عاطفية مشبعة بنبرة معينة: تعب عام، وشعور بالألّا جدوى، وتفاؤل مفرط، وتوتر متصاعد، أو حتى برود جماعي تجاه الأحداث. هذه البيئة لا تُنتج عبر التحليل العقلاّني، وإنما تُصاغ من خلال الإعلام، ومنصّات التواصل، والأغاني، والرموز البصرية، ولغة الحديث اليومية التي تفرض مزاجاً لغوياً ضاغظاً.

وفي بعض الحالات، تُصنع موجة من المشاعر الإيجابية المؤقّته - مثل الحماس أو نشوة النصر أو الاحتفال الميداني - وتُستخدم أداة لدفع الجماعة نحو قرار معين: تهدئة، أو تسوية، أو انسحاب، أو

تنازل. ويصبح هذا القرار مقبولاً؛ لأنَّ الإيقاع النفسي العام يجعل أيَّ رفض يبدو نشازاً عن السياق. وفي حالات أخرى، يُدفع الناس نحو العنف التلقائي حين يُبنى المزاج العام على إيقاع الخوف أو الغضب أو الإذلال، فيفقد الأفراد القدرة على التمييز بين دوافعهم الخاصة، ويغدو السلوك الجمعي هو المعيار الوحيد لما يُعتبر منطقياً أو مشروعاً.

في علم الاجتماع السياسي، تُعرف هذه الحالة باسم "التنظيم الشعوري التلقائي" (Affective Synchronization). وهي لا تنشأ من قرار واعٍ بل من تراكم خفي للتفاعل، يُنتج بمرور الوقت بنية استجابة جمعية تتجاوز أصوات الأفراد، وتعيد توجيههم دون أن يلاحظوا ذلك في حينه. ولا يدرك هذا التحول إلا لاحقاً، حين يُطرح السؤال: كيف تغيرَ هذا المزاج؟ ومتى بدأنا نتحرك كموجة واحدة بدلاً من أن نتصرف كأشخاص؟

وتكمن خصوصية هذه الاستراتيجية في تمايزها عن استراتيجيات أخرى، مثل "عرش الصدى" أو "البصمة الأولى". ف"كيمياء الجماعة" لا تتشكّل من تكرار لغوي أو انطباع فردي، وإنما تنبع من تفاعل حيٍّ ومباشر بين البشر في سياق سياسي أو رمزي أو وجداني. إنَّها تتجاوز الذبذبات الإعلامية العابرة، وتعتمد على تفاعلات عضوية تُنتج ذهنية جمعية مؤقتة قد ترسّبت في اللاوعي لفترة طويلة.

ولهذا، فإنَّ مواجهة هذه الاستراتيجية لا تقتصر على إقناع الأفراد على المستوى الفردي، بل تتطلَّب ضبط الإيقاع النفسي العام، أو على الأقلَّ تفكيك مصادره: من يضحُّ هذا الشعور؟ وما الأدوات المستخدمة؟ وعبر أيِّ منابر؟ وهل هذا الانفعال نابع من الأرض فعلاً، أم أنَّه مركَّب ومُسرَّب وموجَّه؟ لأنَّ الجماعة حين تُنتج كيميائها دون وعي، قد تنزلق بكاملها نحو اتجاه لا يشبهها، ثمَّ حين تنحسر الموجة وتتفكَّك المعادلة، فيصعب على أيِّ فرد أن يحدِّد متى بدأ التحوُّل، أو كيف انخرط فيه دون أن يشعر.

الاستراتيجية التاسعة والستون: قدّيسُ المعركة

القدّيسُ الذي يهدّي الجماعة قد لا يُحرّكها

حين يُستثمرُ الرّمزُ الأعلى بوصفه أداةً لضبط الجماعة وإعادة تشكيل معيار البطولة، يتجاوز حضوره مجرد كونه منارةً للمقاومة. في كلّ حركة مقاومة، تبرز رموزٌ عليا: شهيد، أو قائد، أو منظر، أو عارف، أو فقيه، أو نائر يحمل في وعي الجماعة صورة المثل الأعلى، النموذج الكامل، والنبرة التي تُستحضر بوصفها مرجعية لا تخطف. هذا «القدّيس» لا يُعرّف ضمن الإطار الديني بالضرورة بل يتحدّد من خلال الهالة التي تحيطه، وموقعه الرمزي داخل الوجدان الجمعي.

وهنا تتجلّى خطورة هذه الاستراتيجية: حين يتحوّل الرمز من محفّزٍ للتحرك إلى أداة تُستخدم لتوجيه الجماعة نفسياً وسلوكياً، من خلال استدعائه بطريقة تُعيد تشكيل الموقف دون الحاجة إلى فرض مباشر. في هذا السياق، لا يُصار إلى تفكيك الرمز أو النيل من مكانته، وإنّما يُعاد تأطيره ضمن خطاب ناعم يحمله معاني مريحة غير صراعية، وقابلة للدمج مع منطق التسويات، أو التساهل، أو الانسحاب التكتيكي المفرط. تُقال عبارات من قبيل: «لو كان هذا القائد حيّاً لفعل كذا»، أو «هو علّمنا الحكمة، لا التهور»، أو «ما كان يريد لنا إلا السلام»، أو

«قدّيسنا كان يؤمن بالحوار». وتُستحضر سيرته بهدف تهدئة اللحظة، لا شحنها. وبهذا، يُختزل تاريخه الثوري في بُعدٍ سلوكيٍّ معيّنٍ يُستخدم بصفته كإبحاء، ويُعاد توظيفه بوصفه عنصرَ تهدئةٍ يقسي الجماعة من التصعيد.

يعالج علم النفس السياسي هذا النمط ضمن ما يُعرف بـ«الهيمنة الرمزية المقنّعة» (Symbolic Co-optation)، وهي آليةٌ يجري من خلالها استيعاب الرموز المقاومة داخل بنية السلطة الرمزية دون الحاجة إلى تشويه ظاهرها. يُستبقى كلام الرمز كما هو، مع التركيز على ما يمكن توظيفه لخدمة اللحظة المراد تمريرها، ويُعاد تدوير الأثر العاطفي للشخصية في اتجاهٍ محدّد.

ويُمارَس هذا النوع من الهيمنة غالباً من داخل الجماعة ذاتها؛ من أبنائها، ومن منابرها، ومن وجوه تُظهر الولاء الكامل للرمز، لكنّها تُعيد إنتاجه عبر عدسة خطابية مُسيطر عليها. وهكذا، يتحوّل القدّيس من حامل لموقفٍ إلى حامل لمعيار سلوكيٍ يخدم خطأً معيّنًا داخل الجماعة، ويتراجع عن الموقف الأصلي الذي استشهد لأجله.

ويزداد الأثر النفسي حين تكون الجماعة في حالة ارتباك، أو تتعرّض لصراعٍ داخلي، أو تراجعٍ في المعنويات، فتتّجه إلى الرمز الأعلى بوصفه مرجعية. وفي هذه اللحظة، من يُحسن التحكّم في «كيفية استدعاء

المحور الثامن - الاستراتيجية التاسعة والستون ٢٦

الرمز“، يستطيع أن يحسم اتجاه الجماعة دون الحاجة إلى الجدل بل عبر الاستدعاء الانتقائي للمثال. فالنموذج الذي لا يُعرض عليه، حين يُقدّم بصورة موجّهة، يتحوّل إلى أداة صامته للتأثير العميق. لا يقتضي التحكم في صورة الرمز تشويبه بل يقوم على السيطرة على توقيت استحضاره، وأسلوب ذكره، وسياق تمثيله. فحين يُحوّل قديسُ المعركة إلى معادل رمزي للهدوء، أو التريث، أو الإصلاح الداخلي، تفقد الجماعة قدرتها على المقاومة باسم رمزها؛ إذ تُساق إليه لتهدأ، ويُستدعى لتثبيت الانضباط.

وفي المراحل المتأخّرة، يتراجع دور الرمز بوصفه جسراً نحو الفعل، ويتحوّل إلى مرآة للانضباط العاطفي. ويغدو الحديث عنه فعلاً روحانياً منعزلاً، يتكرّر في المناسبات، ويغيب عن ساحات المواجهة. وهكذا، تُعاد سيرة القديس بصيغة ناعمة، وتُبنى من جديد بطريقة تخدم مشروعاً مختلفاً عن المسار الذي خرج من أجله.

الاستراتيجية السبعون: أرض الرغبة الأخيرة

أخطر الانحراف أن يبدأ من رغباتك النبيلة

حين يُعاد توجيهُ المعركةِ داخلَكَ ... من أجل ما تريده أنت، لا ما تريده القضية، فإنَّ التحوُّلَ لا يكونُ صاخبًا بل صامتًا ومتسللاً، ويتقدَّم بخطى وئيدة نحو مركز القرار فيك. كلُّ مقاومة تحتاج إلى تعبئة، وكلُّ تعبئة تنبع من رغبة؛ رغبة النصر، أو الكرامة، أو الاعتناق، أو إثبات الذات، أو الانتقام، أو البقاء. هذه الرغبة ليست طارئة؛ إنها الوقود الذي يُبقي الإنسان واقفاً في وجه العاصفة، ويمنحه القدرة على الاستمرار حين يتهاوى كلُّ شيء من حوله.

لكنَّ العدوَّ، في لحظة ما، لا يضيِّع جهده في تفكيك الوعي أو تخدير الانفعال؛ يتجاوز ذلك كلَّه، ويتَّجه مباشرة إلى أعماق نقطة فيك؛ إلى رغبتك الأخيرة، تلك التي تختبئ خلف الشعارات، وتنتظر لحظة ضعف لتطلَّ برأسها.

في هذه الاستراتيجية، لا يُتنزع منك انتماؤك بل يُستدرج بك نحو أفق شخصي - ناعم، متخيَّل، جميل - يعيد ترتيب أولوياتك من الداخل بصمت لا يُشير الشكَّ. يُقال لك: كن كما أنت، لكنَّ دع المعركة تنتظر قليلاً. أمامك الآن ما يخصُّك

وحدك، وما لم تُنجزه بعد، وما يبدو أكثر إلحاحًا من أيِّ شعار. فتنبت في داخلك «أرض رغبة» بديلة: سفر مؤجل، أو مشروع شخصي، أو نجاح فردي، أو مكانة اجتماعية، أو راحة طال انتظارها، أو شعور بالاستحقاق لم يُشبع. رغبات لا يُعاب عليها بشيء، لكنّها لا تلبث أن تزاحم الالتزام في مركزه، وتبدأ بمنافسة المشروع الجماعي على مواردك النفسية. لا يأتي التحوُّل من أنانية بل من انزياح هادئ في مركز الثقل الوجداني. فما إن ينتقل الإنسان من «أنا أضحيُّ لأغيرٍ» إلى «أنا أرتاح، وأدعم من يُغيرٍ»، حتى تكون المعركة قد تبدّلت، دون أن تُعلن ذلك، ودون أن يشعر هو نفسه بأنَّ شيئًا قد انكسر.

يسمِّي علم النفس الوجودي هذا الانزلاق: «تبدُّل غاية الالتزام» — حين تتوارى الغاية الكبرى خلف أخرى أقرب، وأكثر حسّية، وأشد التصاقًا بالرغبة المباشرة. لا يُلغى الدافع، لكنّه يُغمر تحت طبقات من الأولويّات العاجلة، فتفقد القيم البعيدة قدرتها على تحريك السلوك، ويبهت النداء الأوّل وسط ضجيج الحاجات اليومية. وغالبًا ما يُفعل هذا التحوُّل بعد الذروة: حين تهدأ البنادق، أو يتسلَّل الإحباط، أو يُفتح أفق جديد غير معلّن، لكنه مُغو، يلمع في الأفق بصفته خلاصًا شخصيًا. تتردّد حينها عبارات من قبيل:

١. «لقد قدّمتَ ما يكفي، الآن حان وقتك»

٢. «لا تُنْهَكْ نَفْسَكَ، فَالْحَيَاةُ قَصِيرَةٌ»

٣. «لَنْ تَتَكَرَّرَ الْفُرْصَةُ، وَالْمَشْرُوعُ سَيَبْقَى حَتَّى إِنْ ابْتَعَدْتَ

قَلِيلًا»

٤. «أَنْتِ تَسْتَحِقُّ أَنْ تَعِيشَ لِنَفْسِكَ، لَا لِشِعَارٍ لَا يَتَحَقَّقُ»

وهكذا، دون صدام، يبدأ التآكل من الداخل. تتحوّل الطاقة النفسية من مشروع جماعي إلى رحلة فردية نبيلة، وراقية، ومليئة بالقيمة الذاتية... لكنّها لا تُحرِّك التاريخ، وتكتفي بتزيين العيش فيه، كما لو أنّ تحسين شروط الحياة بات غاية بحد ذاته. وهنا تكمن خطورة «أرض الرغبة الأخيرة»: لا تُعارضك، ولا تُثنيك، ولا تُجادلك بل تهمس لك بما يبدو أكثر إنسانية من شعارات المواجهة المتعبة، وتمنحك مخرجًا يبدو نبيلًا، لكنّه يسرق منك المعنى. وما إن تخطو نحوها، ولو للحظة، حتى تُصبح العودة منها محفوفةً بما لم يكن... بما كان يمكن أن يكون، لو أنّك لم تذهب.

الاستراتيجية الحادية والسبعون: سقوط الذاتِ التلقائيُّ

حين لا تحتاجُ الحربُ إلى أن تهزمَكَ... يكفي أن تنسى مَنْ
كنتَ، وتكفَّ عن تصديقِ نفسك

في مراحل متقدِّمة من الحروب النفسية، لا يعود الانكسار بحاجة إلى صدمة، ولا الاستسلام نتيجة قهر ظاهر، يكفي أن يتسلَّل التآكل إلى موضع دقيق في أعماق الإنسان: نقطة تماهيه مع ذاته المقاومة. حين لا تعود صورة الذات صالحة للاحتفاظ بحرارتها الأولى، ولا يبقى من الانتماء سوى إيماءة واجبة، تبدأ النفس في رحلة انحدار صامت، تُراكم فيه الشكَّ والاعتراب والتناقض، حتى تصل إلى نقطة سقوط لا يسبقها صراخ، إنَّما يسبقها خمول داخلي لا يبدو استسلامًا، وإنَّما يُشبه نوعًا من الهدوء المضلل.

هذه هي لحظة سقوط الذات التلقائي: حين يبدأ الإنسان بالانسحاب من داخل ذاته، لا نتيجة قناعة فكرية مضادَّة، ولا بسبب قمع مباشر، وإنَّما نتيجة مسار طويل من التآكل الرمزي استهلك دون أن يجد صيانة داخلية. لا يعود الفرد يعرف لماذا يصمد، ولا يشعر أنَّ من هو عليه الآن هو نفسه الذي بدأ المسيرة، فيعيش حالة انفصال وجداني عن ذاته

القديمة، لا يستطيع فيها الدفاع عن قناعته؛ لأنها لم تُعدْ تُمثِّله كما كان يتخيل، وليس بسبب سقوطها.

هذا النمط من السقوط يرتبط في علم النفس العميق بما يُعرف بتآكل الصورة الذاتية المُثلى (Erosion of the Ideal Self)؛ حيث تنهار "الهويَّة النموزجية" التي كان الفرد يتماهى معها، نتيجة تناقضات متراكمة بين ما يريد أن يكونه، وما تسمح له الوقائع بأن يعيشه. فالفجوة بين المأمول والواقع حين تتسع دون معالجة، تبدأ بامتصاص حرارة الالتزام. ومع الوقت، يتحوَّل الجهد إلى روتين، والتضحية إلى حمل، والولاء إلى واجب ثقيل لا ينبض من الداخل.

العدوُّ لا يصنع هذا التآكل بشكل مباشر، لكنَّه يعرف كيف يبقي البيئة النفسية والرمزية خصبة له: عبر خلق شعور دائم بأنَّ المشروع الذي ينتمي إليه الفرد لا يتقدَّم، أو أنَّه فقد بوصلته، أو أنَّه أصبح وسيلة لمصالح ضيقة لا تتصل بالقيم الكبرى التي بُني عليها. تُضخُّ خطابات التبخيس والتشكيك في المسارات، ويُعاد رسم مشهد النضال بشكل متناقض؛ يُصوَّر مرَّة عبثًا لا طائل منه، ومرَّة أداة لخدمة قوى ليست نقية، ومرَّة أيديولوجيا مغلقة تجاوزها العصر. والنتيجة لا تكون انقلابًا، وإنما تبدأ بفتور، ثمَّ تخفيف، ثمَّ خروج صامت.

ويزداد هذا السقوط تعقيدًا حين يكون الفرد في موقع مسؤولية أو

المحورُ الثامنُ - الاستراتيجية الحادية والسبعون ٢١٧

في قلب الجماعة، إذ يشعر بثقل الصورة التي ينتظرها الناس منه، فيما هو في داخله لا يعود يملك القدرة على تمثيلها. فيبدأ بالتصرف ببرود، أو بانسحاب تدريجي، أو بإعادة تأطير أفكاره لتبدو عقلانية وموزونة، والحقيقة أنه يبحث عن مخرج من ذاته السابقة دون أن يصطدم بها علناً.

تظهر هذه الدينامية في مواقف متكررة:

١. المقاوم الذي يصبح ساخراً من كل شيء؛ لا لأنه تحرر من الأوهام، لكن لأنه لم يعد يجد صوته القديم.
٢. المثقف الذي بدأ بصفته صوتاً تعبويّاً، ثم أصبح ناقداً للجميع؛ لا من موقع رؤيويّ، إنّما من موقع اللا مكان.
٣. الشاب الذي دخل الحركة بشغف ثم انسحب تدريجياً نحو مشروع فردي بحجج التنمية أو التوازن، لكنّه في الحقيقة لم يعد يحتمل ثقل الالتزام الأوّل.

في علم النفس الاجتماعي، يُصنّف هذا التحوّل ضمن ما يُعرف بـ“الانهيار الصامت للانتماء” (Silent Breakdown of Belonging)، وهو لا يحدث بانفجار أو قطيعة، إنّهُ يتشكّل من تراكم إحساس داخلي بالعجز عن مواصلة تمثيل الذات كما كانت. وتكمن خطورته في أنّ الجماعة لا تلاحظ الانسحاب؛ لأنّ الظاهر قد يبقى: الأسماء،

والوجوه، والشعارات. لكنَّ الوعي المقاوم الذي يُفترض أنَّه محرِّكُ كلِّ شيءٍ، يتحوَّل إلى حضور باهت، ويجلس على المقاعد الأمامية دون أن يشارك في اتِّخاذ القرار الروحي.

ليست المسألة هنا خُلُقية، ولا هي مسألة ضعف شخصي، وإنما نتيجة خلل مزمن في بنية التغذية النفسية للمشروع المقاوم: حين يغيب الخطاب الذي يُجدِّد المعنى، وتُحصِر الجماعة بخطاب الإنجاز أو التبرير، وتُختزل المقاومة في ميدان دون روح، عندها يسقط بعضهم؛ لأنَّهم لم يجدوا أنفسهم في المسار الذي هم فيه، ولا عرفوا كيف يصيغون ذاتًا جديدة تستطيع أن تواصل بكرامة ليس بسبب الخيانة.

ولذلك؛ فإنَّ مواجهة هذه الاستراتيجية لا تكون بإدانة الذين سقطوا، وإنما بفهم المناخ الذي لا يُنتج إلا ذوات تتآكل وهي واقفة. يجب أن يُعاد بناء المفهوم الجماعي للانتماء بحيث يُعترف فيه بالتحوُّل، ويُفسح المجال لإعادة التعبئة الوجدانية، لا فقط عبر الخطاب، ومن خلال التجربة المشتركة أيضًا، وإعادة إنتاج الرمز، وتطوير لغة تُبقي الذات مشتعلَةً دون أن تحترق.

فالمعركة، في نهاية الأمر، ليست بيننا وبين العدو فقط؛ إنَّها أيضًا بيننا... وبين صورنا القديمة التي لم نعد نعرف كيف نسكنها.

الاستراتيجية الثانية والسبعون: تسكين المعنى بالشعائر

حين تُستبدلُ الفكرةُ بطقسٍ، ويُختزلُ المشروعُ في مناسبةٍ من الأدوات المفضّلة في الحروب النفسية الحديثة، أن تُستبقى الرموز والشعائر حيّةً... لكنْ معزولة عن أيِّ أثرٍ سياسي أو فعلي. لا يُطلب إسقاطها، وإنما يُعاد تطيرها: تُقدّم للناس بوصفها «تراثاً دينياً»، أو «طقوساً وجدانية»، أو «مناسبات للعبادة والذكر»، ويُفصل بينها وبين أيِّ بُعدٍ تعبوي أو تحريضي. وهكذا تُستبقى الشعائر، غير أنها تُفرّغ من مضمونها الجذري.

في هذا السياق، تستثمر المنظومة المعادية بعض الأبواق الإعلامية والدينية التي تروّج لخطاب يُبجّل الشعائر بشرط أن تُنزَع منها أيُّ رمزية سياسية أو صراعية. فيقال للناس: «لا تُسيّسوا الشعائر»، و«احفظوا قدسيّتها بعيداً عن الصراعات»، و«لا تربطوا الدين بالمواقف». وهكذا، تتحوّل الشعائر التي وُلدت في قلب الصراع (كعاشوراء، أو ذكرى يوم القدس، أو مناسبات الشهادة) إلى محافل وجدانية مغلقة.

وقد رُصدت هذه الدينامية في أكثر من بلد. في بعض دول الخليج -مثلاً- تُسمَح المجالس العاشورائية بشرط أن تقتصر على البكاء

والمواساة، ويُمْنَعُ أيُّ خطابٍ يحمل مضموناً سياسياً. وفي العراق، تُستخدم بعض المنابر الدينيَّة لترسيخ فكرة أنَّ الإمام الحسين عليه السلام خرج «لإصلاح النفس» لا لمواجهة الظلم، وأن كربلاء هي درس في الصبر لا في الثورة. بهذه الطريقة، يُعاد تعريف الرمز بما يبعده عن مقاومة الطاغوت، ويحبسه في بُعد خُلقي فردي.

ولا تقتصر الاستراتيجية على المؤسَّسات الدينية الرسمية، علاوةً على ذلك تمتدُّ إلى فئة من المثقِّفين والإعلاميين الذين يُكرِّرون كلَّ موسم مقولات من نوع: «الشعائر شأن شخصي»، أو «يجب أن نحصرها في بعدها الروحي»، أو «كفى تحويل المناسبات إلى منابر للصراعات». والنتيجة، جمهور يحتشد، ويتفاعل، وينفعل... دون أن يُسائل الواقع، أو يربط المناسبة بهدفٍ تغييري.

يصنِّف علم النفس السياسي هذا النمط ضمن ما يُعرف بـ«تفريغ الرموز بالمأسسة»، أي حين تُحافظ الدولة أو النظام على الرمز عبر احتضانه ومنحه طقوسه، مع إعادة إنتاج معناه ضمن خطابها هي لا خطاب الجماعة المقاومة. وهكذا، يفقد الرمز قدرته على الاستنهاض، ويتحوَّل إلى موسم للتنفيس العاطفي، وبهذا لا حاجة لقمعه.

ومواجهة هذه الاستراتيجية لا تكون عبر القطيعة مع الشعائر، وإنما من خلال فضح محاولات تحييدها، واستعادة المعنى الأصيل الذي

المحور الثامن - الاستراتيجية الثانية والسبعون (٢٧) ◆

انطلقت منه. لا نريد شعائر تُلغى، وإنما شعائر تُربط بما خرجت من أجله أصلاً: الحق، والكرامة، والاشتباك مع الظلم. فالعدو لا يخاف من البكاء... وإنما يخشى البكاء الذي يتحوّل إلى وعي، ثم إلى موقف، ثم إلى حركة لا تنكسر.

الاستراتيجية الثالثة والسبعون: تفكيك الرَّمزِ بالشفافيةِ الرَّائفةِ

حين يُستَخدمُ خطابُ الصِّدقِ لتبديدِ الثِّقةِ ليس كلُّ من يطالب بـ«المكاشفة» يريد الحقيقة، ولا كلُّ من ينادي بـ«الشفافية» يسعى للإصلاح. في الحروب النفسية المعاصرة، برعت أجهزة الهيمنة في استخدام خطاب الصدق - الذي يفترض أن يكون فضيلة - أداةً للتفكيك؛ أي تفكيك الرموز الحيّة داخل بيئة المقاومة عبر ما يُعرف بالشفافية الزائفة، فضلاً عن تفكيك النُّظام المعادي. يبدأ الأمر بمطالبات تبدو نبيلة: نريد أن نفهم، وأن نعرف، وأن نُحاسب. يُطرح السؤال: لماذا اتَّخذ القائد الفلاني هذا القرار؟ ولماذا لم يُعلَن عن تفاصيل المعركة؟ ولماذا لم تُكشَف كلُّ الحقائق؟ لكنَّ الهدف لا يتمثَّل في الوصول إلى وضوح بنّاء، وإنمَّا في خلق مناخ من الشكِّ المُزمن؛ حيث يبدو كلُّ شيء ناقصًا، وكلُّ قرار مريبًا، وكلُّ رمز قابلاً للطعن.

هذا النمط لا يهاجم المقاومة بصوت عالٍ، لكنّه يفتح الأسئلة دون سقف، ويُعزِّز خطابَ «من حقنا أن نعرف كلَّ شيء». ومع ذلك، لا يُقدِّم بديلاً، ولا يحمل همَّ البناء، يكتفي فقط بزرع الريبة. ومع الوقت،

المحور الثامن - الاستراتيجية الثالثة والسبعون ٢٧٣

يتحوّل الرمز المقاوم - القائد، والمؤسسة، والحركة - إلى شخصية متّهمة بحجب الحقيقة، حتى دون دليل.

وفي لبنان وفلسطين وإيران، رُصدت حملات تدار بهذه التقنية: تبدأ من صفحات تبدو حيادية، تطرح أسئلة دقيقة، ثم تُفتح مساحات للنقاش، ويُستدرج الجمهور إلى دوامة من التشكيك، دون أن يُمسَّ العدو إطلاقاً. العدو من المعادلة، ويُصبح «اللا وضوح» في بنية المقاومة هو العدو الوحيد.

في علم النفس الجماعي، تُوصف هذه الحالة بما يُعرف بـ «أزمة الثقة الناعمة» (Soft Distrust Crisis)، وهي الحالة التي لا تنهار فيها العلاقة بين الجمهور والرمز، لكنّها تفقد حرارتها، وشيئاً فشيئاً، يتآكل الإيمان، لا نتيجة خيانة، وإنما نتيجة الأسئلة التي لا تنتهي.

والأدهى أنّ هذه الحملة لا تحتاج إلى كذب. إنّها تعتمد على انتزاع التفاصيل من سياقها، وتقديمها بوجه مشوّه، واختزال التجارب الكبيرة في ملاحظات صغيرة. فيُصبح منجز المقاومة مثارَ تساؤل دائم، لا بسبب خطأ فيه، وإنما لأنّ هناك من تعمّد أن يضيّع البوصلة باسم الحقيقة.

مواجهة هذا النمط لا تكون عبر كمّ الأفواه، وإنما من خلال إعادة تعريف الشفافية بوصفها أداة للبناء لا للهدم. وأن يفهم أن وضوح

الاستراتيجية الرابعة والسبعون: بثُّ الشعور بالاستغناء المتبادل

حين يُقنَعُ كلُّ طرفٍ في الجبهة الواحدة بأنه ليس بحاجة إلى الآخر

على خلاف الاستراتيجيات التي تستهدف تضخيم الذات التنظيمية (كما في الاستراتيجية السادسة والثلاثين)، أو التي تفتعل الخصومة بين الأطراف (كما في الاستراتيجية الخامسة والثلاثين)، تأتي هذه الاستراتيجية بمكر أشد نعمة: لا تزرع الصدام، ولا تغدّي العزلة التنظيمية، لكنّها تُقنَعُ كلُّ طرفٍ داخل جبهة المقاومة بأنه قادر على الاستغناء عن الباقين.

لا يهاجم العدوُّ هنا أحداً، ولا يُثير الشكوك بين الحلفاء، فضلاً عن ذلك يُغدِق على كلِّ فصيلٍ أو تيّارٍ مفردات النجاح، والثقة، والتميز. يُوجّه الرسائل الناعمة: أنتم الأكفأ، وأنتم النموذج، وأنتم لا تحتاجون سواكم. ويُعيد صياغة السردية الداخلية لكلِّ جهة على نحو يجعلها ترى ذاتها مكثفية، ومتعالية على الحاجة للتنسيق أو التلاحم.

تتسرّب الرسائل عبر أدوات نفسية؛ تقارير إعلامية تُبرز نجاحاً فردياً، ودراسات تركز على فعالية جهة دون أخرى، ومحلّلين يكرّرون أن هذا

الطرف هو عماد المقاومة، أو أنَّ ذاك هو الأذكى في التواصل. ومع الوقت، تتشكَّل قناعة صامته بأنَّ الآخرين فائضون عن الحاجة، وبذلك لا تكون الرسائل مباشرة.

وقد لوحظ هذا النمط في أكثر من ساحة: فصائل مقاومة تتباطأ في الردَّ المشترك؛ لأنَّها «نجحت وحدها» في الميدان، أو جهات تتردَّد في إعلان تحالف واضح؛ لأنَّها «تحافظ على تفردِّها»، أو تيارات تنأى بنفسها عن لحظة جماعية؛ لأنَّها لا تريد أن تُبتلع. كلُّ طرف يرى التنسيق مخاطرة، والتكامل تهديداً للهويَّة.

هذا لا ينتج من تضخُّم في الهويَّة التنظيمية بالمعنى المباشر، إنَّما ينتج من شعور نفسي بالاستغناء: لسنا في حاجة لأحد، نُجيد إدارة المعركة وحدنا، ونعرف ساحتنا بما يكفي. وهنا مكمن الفرق عن الاستراتيجية السادسة والثلاثين: بينما تتبع الأنا التنظيمية من تضخيم الانتماء الداخلي، تتبع هنا من قناعة ذهنية مفروضة خارجياً بأنَّ الوحدة ليست ضرورية.

يصف علم النفس الجماعي هذه الحالة بـ«وهم الكفاءة المنفصلة» (The Illusion of Autonomous Competence)؛ حيث يُغدِّي الإدراك الفردي والجهوي بأنَّ النجاح ممكن دون الآخر، فيتحوَّل هذا الإدراك إلى موقف، ثمَّ إلى عزوف منهجي عن اللقاء.

المحور الثامن - الاستراتيجية الرابعة والسبعون ٢٧٧

لا يقطع العدوُ الجسور، وإنما يجعلها غير ضرورية في نظر أهلها.
لا يمنع التحالف، وإنما يقنعك بأنه ليس ذا جدوى. لا يحرضك على
الآخرين، وإنما يبني داخلك اقتناعاً بأنك أكبر من حاجتهم.
ومواجهة هذا الوهم لا تكون بالشعارات، وإنما بإعادة تثبيت القاعدة
البديهية: لا أحد يملك وحده النصر، ولا جهة تملك وحدها الرؤية،
ولا ساحة تستغني عن جبهة؛ لأنَّ المقاومة إمَّا أن تكون تكاملاً في
وجه الهيمنة... أو تصبح مجردَ جُزُرٍ مقاومة تغرق كلُّ منها بهدوء في
بحر وهمها.

الاستراتيجية الخامسة والسبعون: التحفيزُ على العزلةِ الاجتماعيَّةِ للمؤمنين بالقضيَّةِ

حين يُروَّجُ لفكرةِ أنَّ العزلةَ أو «الابتعادَ عن المجتمع» هي
الخيارُ الأكثرُ صواباً للمقاومين

في ساحة الحرب النفسية، يسعى العدوُّ إلى تقويض الجبهة الداخلية عبر ترويح فكر العزلة على أنَّه الخيار الأمثل. هذه الاستراتيجية تعمل على زرع بذور الشكِّ في نفوس الأفراد من خلال إثارة فكرة أنَّ الانعزال عن المحيط، بعيداً عن المؤثرات الاجتماعية، قد يُعزِّز المقاومة أكثر من التواصل والاندماج الجماعي.

يبدأ العدوُّ بتغذية فكرة أنَّ المحيط الاجتماعي قد يكون مثيراً للقلق أو مُعرقلاً. فيقال إنَّ التواصل مع الآخرين قد يُحرِّف الأفكار، أو يُضعف الحوافر، أو يجعل الشخص يفرط في التفكير ويخشى على مستقبله. ومن ثمَّ، يُروَّجُ لفكرة أنَّ العزلة - أي الانسحاب من البيئة المحيطة، سواء على مستوى الأنشطة الاجتماعية أم حتى الميدانية - هي السبيل الأمثل للحفاظ على الهويَّة النضالية.

ومع مرور الوقت، يبدأ الأشخاص في الانغلاق على أنفسهم، سواء في دوائرهم الصغيرة، أم في محيطهم المتشدِّد، أم في مجتمعاتهم

المتكثّلة التي لا تتفاعل مع الخارج. وتتحوّل المقاومة من حالة جماعية نضالية إلى سلسلة من الجزر المعزولة التي لا تتفاعل مع بعضها بعضاً. كلُّ فرد يرى نفسه في موقف صراع دائم مع الآخرين ولا يرى فيهم قوّة تكاملية.

وقد جرى تلمّس هذه الاستراتيجية في مناطق الصراع المختلفة: في فلسطين، على سبيل المثال، يسعى بعضٌ إلى إضعاف الفعل النضالي من خلال عزل المقاومين في مجتمعات ذات توجّهات محدودة، ما يجعلهم يعيشون في حالة من الشكِّ بين ما يفترضونه صحيحاً وبين ما يملكه عليهم محيطهم الاجتماعي. وفي لبنان، يجري تصوير مقاومة الأفراد للعنف خياراً يتطلّب الانفصال عن تيّارات سياسية أو اجتماعية أخرى. وفي العراق، تُقدّم المقاومة على أنّها نضال فردي ضد عدوان خارجي، دون أيّ ربط بالتحالفات الإقليمية أو الدولية.

يعكف علم النفس الاجتماعي على تحليل هذه الظاهرة بوصفها «أزمة الاغتراب المجتمعي» (Community Alienation Crisis) التي تهدف إلى نقل المقاومة من حالة جماعية تكاملية إلى حالة من الانعزال الذي يُفقد قوّتها الجماعية وأثرها في المحيط الاجتماعي. يكمن الخطر في أنّ هذه الاستراتيجية لا تهاجم المقاومة بشكل مباشر، وإنّما تحوّلها إلى مجرد حالة فردية بعيدة عن الوعي الجمعي.

ويبدأ المقاوم في تصوُّر نفسه كأنَّ التفاعل مع المجتمع يُعدُّ ضعفاً أو
تشتُّباً.

مواجهة هذه الاستراتيجية تجري من خلال إعادة تكريس مبدأ
المقاومة الجماعية، وتعزيز فكرة أنَّه لا يمكن لأيِّ مشروع مقاوم أن
ينجح دون أن يكون قائماً على التفاعل الاجتماعي العميق. وأن يُقال
للجماعة: ”لن تكونوا قادرين على الصمود دون دعم بعضكم بعضاً“،
وأن نستعيد الوعي بأنَّ الجماعة هي مصدر القوة، وأنَّ العزلة ليست إلا
سلاحاً قاتلاً يوجِّهه العدوُّ نحونا دون أن ندرك ذلك.

الاستراتيجية السادسة والسبعون: خيانة المعنى ببطءٍ

تآكل المفاهيم الجوهرية عبر التكرار المبتدل لا تأتي خيانة المعنى على هيئة نفي مباشر أو إنكار فجٍّ، لكنّها غالباً ما تتسلّل ببطءٍ ناعمٍ، وتحت غطاء التكرار. تتكرّر الكلمات حتى تفقد حرارتها، وتُعاد الشعارات حتى تتحوّل إلى خلفية صوتية، ويُستعمل الرمز حتى يُصبح ملصقاً استهلاكيّاً. تلك هي أخطر مراحل الحرب النفسية الرمزية؛ حيث يُفرغ المعنى من روحه، ويُستبدل بالإيقاع. المقصود بـ«خيانة المعنى ببطءٍ» هو أن تمسك بالمفاهيم المؤسّسة للوجدان المقاوم - كالحرية، والكرامة، والشهادة، والحقّ، والصمود - وتُعاد صياغتها في فضاء تكراري مفرغ، فتحوّل شيئاً فشيئاً إلى كلمات مألوفة لا توقظ شيئاً في الداخل. يُروّج لها في المناسبات، وتُعلّق على الجدران، وتُطبّع على القمصان، وتُكرّر في الإعلام دون أن تترك أثراً وجدانياً حقيقياً.

هذا لا يعني أنّ تكرار المفاهيم مضرٌّ في ذاته، فالخطر يكمن في التكرار الآليّ الذي لا يمرُّ عبر القلب. فحين تُقال «الكرامة» دون أن تُعاش، أو «الحرية» دون تحدٍّ، أو «الشهادة» دون دمعة، فإنّ الوعي الجماعي يبدأ تدريجياً بفقدان حساسيته تجاهها. ويُصاب بما يُشبه

«المناعة العكسية» ضدَّ المعنى، بحيث لا تعود الكلمة تحرك شيئاً، تُقابل فقط بردَّ فعلٍ ميّت، أشبه بتثاؤب رمزي.

وهنا يكمن ذكاء العدو؛ حيث لا حاجة لمحو المفاهيم، يكفي إغراقها في التكرار حتى التآكل. تُروّج الشهادة في الإعلانات، وتُسوّق الحرّية باعتبارها شعاراً للمنتجات، وتُستخدم كلمات المقاومة في أغاني سطحية، وتُفرّغ العبارات الحادّة من نبرتها الأصلية عبر التوظيف المسرحي في الخطاب العام. ومع الوقت، تتحوّل المقاومة إلى حالة صوتية، لا إلى حقيقة وجدانية.

يشبه هذا التكتيك ما يحصل في أسواق الاقتصاد الرمزي؛ حيث يجري تسليع كلّ شيء: القِيم، الرموز، والعبارات، وحتى الآلام. فتُعاد صياغتها بوصفها سلعة ثقافية قابلة للتداول دون أن تُحفظ حرمتها الأصلية. والمشكلة أنّ هذه العملية لا تحصل بالإكراه بل بمشاركةٍ غير واعية من داخل الجبهة نفسها.

فعندما يبدأ بعض المنتسبين للمقاومة بتكرار المفاهيم ذاتها في كلّ خطاب، وفي كلّ احتفال، وبالعبارات نفسها، دون تجديد أو عمق، فإنّهم - من حيث لا يدرون - يسهمون في استنزاف الطاقة الرمزية لتلك المفاهيم. وتُصبح الكلمات مثل جسد بلا روح؛ يُحرك، ويُنطق، ويكرّر... لكنّه لا يعيش.

وقد تصل هذه العملية إلى ذروتها حين يُستعمل الرمز زينةً لا عنواناً للصدام: فصورة الشهيد تُعلّق في كل مكان، دون أن يُسأل الناس عن وصيّته. وعبارة «هيهات منّا الذلة» تُقال في كل مهرجان دون أن تُترجم إلى موقف عملي. وتصبح النعمة أعلى من المعنى، فيُختزل كلُّ شيء في الإيقاع.

وهذا بالضبط ما يجعلنا نُدرج هذه الاستراتيجية ضمن «بناء الإيقاع النفسي». فحين يُصبح الرمز مجردَ إيقاع يُكرّر، يتشكّل نمط ذهني جمعي يتعامل مع المفاهيم كموسيقى مألوفة لا باعتبارها مواقف شاقّة. ويبدأ العقل الجمعي في تأجيل المواجهة بحجّة أنّه «قد قال ما يكفي»، أو «ردّد ما يكفي»، دون أن يفعل.

وفي التجربة الإسلامية والعربية، أمثلة مؤلمة على هذا النمط. كم من الثورات استُهلكت رموزها في أغلفة الكتب، وفي الأفلام، وفي التصريحات الرسمية، حتى لم يعد لها أثر فعلي في الوجدان؟ وكم من الشهداء أُعيد إنتاجهم في «ملصقات» برّاقة، فيما نُسيت معانيهم، ونُزعت مرجعيتهم، وتحوّلوا إلى مجرد صور جميلة لا تهزُّ الضمير؟

حتى كلمة «المقاومة» نفسها معرضة لهذه الخيانة البطيئة. حين تُستخدم في كلّ السياقات، وفي جميع الاتجاهات دون تمحيص، فإنّها تفقد قدسيّتها. ويبدأ العدو نفسه في استخدامها، ويستولي عليها

رويداً، ويُفْرغها من دلالتها الجذرية.

ولذلك، فإنَّ التحديَّ الأكبر لا يكمن فقط في حفظ المفاهيم، وإنما في تجديد دمائها باستمرار. أن تُقال كلمة «شهادة» بدمعة وحنين لا بصفتها جملة محفوظة. وأن تُعاد صياغة المفاهيم المركزية للوجدان المقاوم بلغة كل جيل دون أن تفقد جوهرها. وأن يُحمى الرمز من التحوُّل إلى علامة فارغة.

إنَّ الحفاظ على المعنى لا يتحقَّق بالصراخ، وإنما بالصدق. الصدق وحده هو الذي يُعيد للكلمة حرارتها. والوفاء وحده هو الذي يمنع الاستنزاف البطيء. أمَّا حين نُردِّد ما لا نعيش، ونُعَلِّق ما لا نحفظ، ونُشَد ما لا نقاتل من أجله، فإنَّنا - دون أن نشعر - نخون المعنى... ببطء، ومن غير صوت.

المحور التاسع:

استراتيجيات التشويش الرمزي

الاستراتيجيَّةُ السَّابِعةُ والسَّبْعون: المراقبَةُ من خلفِ الرَّمادِ

حين لا يظهرُ العدوُّ في الصُّورة... لكنَّه يرى كلَّ شيءٍ،
ويعيدُ ترتيبَ الحدثِ من خلفِ ستارِ الرَّمادِ.
في لحظات ما بعد الاشتباك، حين يخفت الصراع المباشر، وينسحب
الخصم من المواجهة، يظنُّ الوعي المقاوم أنَّه استعاد مساحته. لكنَّ
هذه اللحظة كثيراً ما تكون لحظة رصد خفيٍّ، يُعاد فيها ترتيب موازين
المعركة، بالمراقبة الصامتة من خلف طبقات من الضباب الرمزي لا
بالسلاح أو الخطاب. هذه هي استراتيجيَّة المراقبة من خلف الرماد:
حين لا يتدخَّل العدوُّ، وإنما يراقب، ويُحصي، ويلتقط الأنماط،
ويُخزِّن المعطيات التي تُستخدم لاحقاً باعتبارها أدوات ناعمة لإعادة
هندسة الساحة.

ليس الرماد هنا مجرد أثر الحريق؛ إنَّه حالة غبار رمزي تُبقي المشهد
ضبابياً، تُطمَس فيه الحدود بين المواقف، وبين الرموز، وبين الفاعلين.

فلا أحد يُعلن بوصفه عدوًّا واضحًا، ولا تُظهر المنظومة المعادية أيَّ نيَّة للتدخل، ومع ذلك تستمرُّ في الرصد: مَنْ يكتب؟ ومن يصعد؟ ومن ينشقُّ؟ ومن يُؤثِّر؟ ومن يتراجع؟ ومن تغيَّر خطابه؟ وكيف يتفاعل الجمهور مع المفردات؟ وما الذي يُضحكهم؟ وما الذي يُحرجهم؟ وكيف يقرؤون التاريخ؟ ومتى يصمتون؟

يعالج علم النفس السلوكي هذه الاستراتيجية في إطار ما يُسمَّى بـ«المراقبة الإحصائية للتشكُّل الجمعي» (Behavioral Surveillance of Collective Reformation)، وهو نمط من أنماط السيطرة المؤجَّلة؛ حيث لا يتدخل الخصم فوراً، لكنَّه يُراكم الفهم عن البيئة المستهدفة عبر أدوات تحليل دقيقة، ترصد الإشارات الصغيرة التي تصدر عن الأفراد والجماعات، ثم تُبنى عليها لاحقاً تدخلات محسوبة ذات أثر عميق.

ولا يُمارس هذا النوع من الرصد عبر أجهزة أمنية فقط، علاوةً على ذلك تُنفَّذ أدواته من خلال:

١. أنظمة الذكاء الصناعي في تحليل المزاج العام عبر مواقع التواصل.
٢. تتبُّع الكلمات المفتاحية في الحوارات اليومية.
٣. مراقبة كيف تغيَّرت العلاقة مع الرموز: من التقديس، إلى

التَهَكُّمُ، إلى الحياد.

٤. فَهْمُ إيقاع الانفعال الجمعي: أين يرتفع؟ وأين يُصاب

بالبرود؟

٥. تسجيل تحوُّلات الذائقة، واللغة، والإحساس بالعدو

والحليف.

الغاية من كلِّ هذا لا تقتصر على الفهم، إنَّما تهدف إلى تحضير تدخُّلٍ مستقبلي محسوب التوقيت، يحدث حين تنهياً الأرض نفسياً، دون أن يلحظ الناس أنَّه نتيجة هندسة ما بعد المعركة، لا نتيجة تطوُّرٍ طبيعي؛ لأنَّ ما يُبنى من خلف الرماد، لا يُرى حين يُبنى بل يُرى فقط حين تظهر نتائجه في وعي لم يعد هو نفسه.

ولا تتوقَّف الخطورة هنا عند فكرة التتبُّع، مضافاً إلى ذلك، فإنَّها تتجلَّى في وهم الاستقلال؛ لأنَّ البيئَةَ المراقبة، وهي تظنُّ أنَّها وحدها من يُعيد صياغة تجربتها، تقع في فخِّ "الذات الحرَّة"، فيما المعطيات التي تخلق لها السياق والإيقاع، قد تكون رُصدت منذ شهور، ثمَّ أُعيدت إليها عبر رسائل ناعمة، ومبادرات داخلية، وتعليقات ظاهرها عفوي، لكنَّ خلفها جدار زجاجي يُراقب ويعيد التوجيه.

لا يتخفَّى العدوُّ هنا، وإنَّما يتلاشى في الغلاف الجويِّ للمعلومة، لا يقول شيئاً، لكنَّه يُصغي لكلِّ شيء، لا يتحرك، لكنَّه يلتقط كلَّ حركة، لا

الاستراتيجية الثامنة والسبعون: ورقُ الذهبِ على صدأ المعنى

حين يلمعُ البديلُ؛ يختفي الأصلُ ببطء

قد يُخترَعُ رمزٌ جديدٌ بلمعانٍ زائفٍ يُغْطِي ما تَبَقِيَ من جوهرِ الصِّراعِ،
وتُوجَّهُ العملياتُ النفسيةُ نحوَ بنيةِ الوعيِ المقاومِ بأساليبٍ تتجاوز
إضعافَ المفاهيمِ وتسفيهِ الشعاراتِ وإسكاتِ الأصواتِ الصادرةِ.
تُنتَجُ رموزٌ بديلةٌ تُلَمَّعُ بعنايةٍ وتُقَدَّمُ للناسِ بوصفها امتداداً طبيعياً
لمسارِ المواجهةِ، فيما تمارسُ في حقيقتها تشويشاً رمزياً ناعماً يُفَوِّضُ
المعاني الأصليةَ تدريجياً تحت بريقِ خادعٍ. هكذا تُنفَّذُ الاستراتيجية؛
ورقُ الذهبِ يُغْلَفُ صدأَ المعنى.

الرمزُ الحقيقيُّ للمقاومةِ يظلُّ عصياً على التجميلِ من قِبَلِ العدوِّ؛
لأنَّهُ يُربكه في جوهره. الشهيدُ الصادقُ، والقائدُ الذي واجهه ولم يساومِ،
والمعركةُ التي أربكت حساباته، جميعها تُثيرُ فيه الرعبَ وتبقى عصيةً
على التَّبَيُّيِّ أو الالتفافِ. في المقابلِ، يُتَقَنَّ العدوُّ اختراعَ رموزٍ بديلةٍ:
شخصياتٍ، أو صورٍ، أو مفرداتٍ، أو شعاراتٍ تُصاغُ لتبدو مألوفةً
ومُبْهَجةً، وتحملُ ملامحَ الرمزِ الأصيلِ، لكنَّها تُصمَّمُ بحيثُ تُبقي
الجماهيرَ في حالةِ سكونٍ.

هذه الرموز الجديدة تُنتَج لِتُستهلك ويُحتفى بها، دون أن تُحرِّك إرادة الفعل.

١. يُقدِّم نموذج «الإنسانية» الذي لم يخض معركة قط بوصفه بديلاً عن الشهيد.

٢. تُرفع صورة شخصية «ملهمة» تتحدَّث عن التعايش والسلام، وتُقدِّم بوصفها واجهة بديلة للقائد المقاوم.

٣. يُركِّز على البُعد الوجداني التأملي لذكرى كربلاء، ويُغفل سياقها الثوري.

كُلُّ ذلك يجري ضمن هندسة ثقافية - إعلامية تُحيِّد الرموز الأصلية من خلال إغراق الساحة برموز براقّة، جذّابة، لكنّها خالية من أيّ مضمون صراعي.

يُعرِّف علم النفس الجمعي هذا النمط بـ «إزاحة النموذج الأصلي عبر بدائل مشعّة» (Symbolic Replacement through Shiny Substitutes)، وهي آلية تعمل على لا وعي الجمهور. لا يُطلب من الناس التخلّي عن رموزهم بل يُقدِّم لهم بديل مزخرف، وملفوف بورق ذهب، ويُشبه ما يحبُّونه في ظاهره، ويُفرغ ما كانوا يتظرونه في جوهره. مع مرور الوقت، يتبدّل المزاج الجمعي: يُنشَد لنموذج جديد، يُحتفل بصورة أكثر نعومة، ويُكرّم اسم لا يرتبط بأيّ خسارة أو ثمن،

فتتلاشى العَلاقة بين الجماهير والمعنى الذي وُلدت منه مقاومتهم. تعتمد هذه الاستراتيجية على إغراق المجال العام بصور ومقولات ونماذجٍ وقصصٍ جديدة، تُصاغ لتبدو إيجابية ومحايِدة، لكنَّها تُعيد تشكيل الوعي على نحو يُفرغه من صرامته الأصيلية. حين تمتلئ الفضاءات الإعلامية والثقافية بأسماء لا ترتبط بالتضحيات، ومقولات خالية من الغضب والرفض والألم، يتكَيَّف الوجدان الجمعي مع الجمال السطحي، ويتبعَد تدريجيًّا عن الحقيقة الأولى؛ أنَّ الرمز يحمل الثُّدبة، ويوقظ الوعي، ويصرخ في وجه الباطل.

يُمكن التحوُّلُ الأخطر في أنَّ الناس يواصلون الاحتفاء، وتعليق الصور، وترديد العبارات، فيما تفقد هذه الممارسات قدرتها على إثارة أيِّ شعور حقيقي. فالغضب يتلاشى، والقرار يتآكل، والحركة تتوقَّف. فتسود بهجة ناعمة، وشعور عامٌّ بالرضا، وإشباع رمزي لا يتطلَّب أيَّ ثمن.

وهكذا يتحقَّق الهدف: يتوارى الرمز الأصلي دون أن يُسقطه أحد، ويغرق في بحر من البدائل المغشوشة التي لا يكشف بريقها إلا عن صدأٍ يتراكم في الداخل.

وحين لا يُعاد تنظيف الوعي من هذا الورق الذهبي، يتمدَّد الصدأ بلا هوادة، ويبدو أنَّ المسير مستمرٌّ، فيما التصفيق يُمنَح لأسماء لا تُشبه الطريق، ولا تُعرف العدو، ولا تجرؤ على العودة إلى الميدان.

الاستراتيجية التَّاسِعَةُ والسَّبْعُونَ: انسحابُ الحضورِ

حين تبهتُ الرموزُ؛ يبدأُ الوعيُّ بالانسحابِ

عندما يُفَرِّغُ المجالُ من رموزه، تُستخدمُ آلياتُ الإغراقِ والاستبدالِ لإعادة تشكيلِ الوعيِ الجمعي. لا تُعتمدُ المواجهة المباشرة، بل تُبنى مشاهد موازية تُغرقُ الساحةَ الرمزية بعناصر جديدة، فتراجع الرموز الأصلية إلى الخلفية، كما تتلاشى النجمة خلف أضواء المدينة.

في هذا السياق؛ يتحقَّق انسحاب الحضور من مركز المشهد، ويُعاد توزيع المعاني بطريقة تُفَرِّغُ الساحة من دلالاتها الأولى دون أن يلحظ الجمهور هذا التحوُّل.

تتقن المنظومة المعادية إعادة تعريف المناسبات التي شكَّلت ذاكرة الصراع. تُقدِّم هذه المناسبات بوصفها لحظات للتأمل أو الوحدة أو المصالحة، وتُفصل عن سياقها السياسي والميداني. تُركِّز البرامج الإعلامية على أصوات «الاعتدال» و«الواقعية»، وتُعيد ترتيب أولويات الخطاب العام بما يتناسب مع هذا التوجُّه، في حين تتراجع الأصوات التي تعبَّر عن الخيار الصريح للمقاومة، وتُحصَر في هوامش المشهد. تُستخدم أدوات ناعمة تُعيد تشكيل الحضور الرمزي دون إثارة صدام مباشر.

١. تُصبح صورة الشهيد حدثًا نادرًا بعد أن كانت مألوفةً في كل بيت وشارع.
٢. تتقلَّص المساحات المخصَّصة للخطابات التي تكشف العدوَّ وتُعرِّي مشروعه.
٣. تُستبدل الموسيقى المقاومة بمقاطع وطنية خفيفة تُناسب الذوق العام.
٤. تُملأ الفضاءات العامَّة بصور ونصوص تُرضي الجميع، لكنَّها لا تُحرِّك أحدًا.

في علم النفس الثقافي، تُعرف هذه الآلية بـ «التنحية الرمزية عبر التشويش المدروس» (Symbolic Displacement through Controlled Saturation). تُستبدل الرموز الأصلية بأشبه رموز وبدائل برأقة وخطابات عامة، فيتحوَّل الحضور الرمزي إلى تكرار خافت لا يُحدث أثرًا. يتراجع التفاعل، ويخفت الاندفاع، ويغيب الحافز. ومع الوقت، يفقد الرمز قدرته على الإلهام، ويُعاد تأطيره ضمن مشهد رمزي أكثر نعومة، وأقلَّ حدَّة، وأبعد عن الاشتباك.

تُعيد المنظومة المعادية تشكيل المشهد الرمزي من خلال الثقافة والإعلام والسياسة. تُعدِّل المقرَّرات التعليمية لتُخفِّف من نبرة الصراع، وتُعاد هندسة المواد الفنيَّة لتُبرز قيم التعايش، وتُبرمج المنصَّات الرقمية

لتوجيه الانفعال الشعبي نحو مسارات أكثر هدوءاً. يُعاد تشكيل الذائقة العامة لتتكيف مع خطاب جديد، يُقدّم الطمأنينة على حساب التحدي، ويُفضّل الانسجام على المواجهة.

تتقدّم مفردات مثل "نزاع"، و"تسوية"، و"تفاهم تاريخي"، لتحلّ محلّ مفاهيم، مثل: "تحرير"، و"ثأر"، و"احتلال". يُعاد تأطير العدو بوصفه طرفاً في معادلة سياسية، وتُدرج المقاومة ضمن سرديّة وطنية شاملة تُخفّف فيها الحواف الحادّة، وتفقد موقعها باعتبارها صوتاً استثنائياً.

يتحقّق الانسحاب الرمزي من خلال تلاشي التوهج من الوعي، وتراجع الحضور النوعي من مركز الساحة. تُذكر الرموز بوصفها جزءاً من الماضي، وتنتقى الشعارات منها النسخ الأخرى وقعا، وتُقدّم بوصفها تعبيراً عن الانسجام لا عن التحدي.

في هذه اللحظة، يتصدّر المشهد إطار رمزي جديد: أكثر نعومة، وأقلّ حدّة، وخالٍ من عناصر التحريض أو الغضب أو الاستنهاض. يتشكّل وعي جديد، يتكيف مع الإيقاع العام، ويستبدل الحماسة بالرضا، والاشتباك بالتأمل، والاحتجاج بالتصفيق.

تُدِير المنظومة المعادية هذا التحوّل الرمزي بدقّة، فتُعِيد تشكيل الصوت ليُصبح جزءاً من الضجيج العام، وتُعِيد ترتيب الذاكرة الجمعيّة بما يتناسب مع مشهد رمزي جديد يُنتج الطمأنينة، ويُطفئ جذوة الاشتباك.

الاستراتيجية الثمانون: المخرج المخفي

حين يُفتحُ بابٌ للخروج، لا يبدو كأنه مخرجٌ، ولا يُعلنُ عن نفسه باعتباره تحولًا جذريًا.

نُصمِّمُ بعض المسارات لتبدو امتدادًا طبيعيًا للمراكمة، أو خطوة محسوبة نحو التهدئة، أو محاولة لتوسيع الخيارات. في هذا النوع من الحروب النفسية، تُستخدم ممرات ناعمة تُقنع الفرد أو الجماعة بأنهم ما زالوا في قلب القضية، فيما يتحركون تدريجيًا نحو هامشها.

تُصاغ هذه الممرات بلغة التطوير، وتُقدَّم بوصفها واقعية استراتيجية، أو إعادة ترتيب للأولويات، أو انفتاحًا على أدوات جديدة. ومع مرور الوقت، يجد المقاوم نفسه في موقع مختلف تمامًا، وقد ابتعد عن الخندق، وعن ذاته الأولى، دون أن يشعر بانتقال حادٍّ أو قطيعة واضحة. هذا النوع من التحول لا يُصاحبه إعلان، بل يُبنى على شعور داخلي بالاستمرار، حتى وإن كانت الوجهة قد تغيرت بالكامل.

تُعرف هذه الآلية باسم «استراتيجية المخرج المخفي»، وهي تقوم على هندسة اللأ عودة دون إعلان الانسحاب. تُستخدم أدوات نفسية وخطابية تُعيد توجيه المسار من ساحة الاشتباك إلى ساحة التأقلم، وتُبنى المراحل دون فواصل حادة؛ بحيث يبدو الانتقال سلسًا بل

مرغوبًا. تُعاد صياغة المفردات، وتُعاد هيكلة الأولويات، ويُعاد إنتاج الخطاب المقاوم ضمن قوالب أكثر نعومة، وأقل صدامًا. في لبنان، رُوِّج لمنطق «التهدئة الاقتصادية» بوصفه بديلاً عن المواجهة المفتوحة، فدخل الخطاب المقاوم في نقاشات عن سعر الصرف والاستقرار النقدي وتحييد الساحة. ثم جرى تقديم «إدارة المكاسب» باعتباره أولوية، وتصدَّر خطابٌ يُشيد بـ«عقلانية المقاومة» في لحظة كانت تتطلَّب حِدَّة لا مرونة. تحوَّلت بعض المنابر إلى ساحات نقاش اقتصادي، وتراجعت نبرة الاشتباك، وبدأت مفردات السوق تحلُّ محلَّ مفردات التحرير.

في فلسطين، بعد اتفاق أوسلو، انتقلت بعض الفصائل من حمل البندقية إلى العمل السياسي تحت عنوان «الشرعية الدولية». تولَّى قادة سابقون مناصب دبلوماسية وإدارية، وانشغلوا بإدارة مشروع الدولة، فيما ظلَّ واقع الاحتلال على حاله. تحوَّلت بعض البنى إلى أدوات لضبط الشارع، وتراجعت عن دورها في تحريكه. أُعيد تعريف المقاومة ضمن أطر تفاوضية، وتحوَّلت البنادق إلى أوراق ضغط مؤجَّلة.

في العراق، شجَّعت قوى المقاومة على الانخراط في الدولة، ضمن هندسة سياسية تربط وجودها بمسارات دستورية وتمويلية. أُعيد تشكيل دورها لتصبح جزءاً من النظام، وتراجعت قدرتها على الاشتباك

مع الاحتلال الأمريكي الذي استمر بأشكال ناعمة. جرى بناء شبكة مصالح سياسية واقتصادية، جعلت العودة إلى المواجهة أكثر تعقيداً، وأعلى كلفة.

في اليمن، طُرحت مبادرات إنسانية ظاهرها الرحمة، وجوهرها تفكيك الجبهة من الداخل. قُدِّمت هذه المبادرات بوصفها بوابات للحلّ السياسي، في حين كانت تهدف إلى إعادة ترتيب المشهد بما يُضعف صلابة الموقف. أدركت القيادة هناك طبيعة هذه المخارج، فرفضت الدخول في مسارات لا تُبنى على شروط النصر، وتمسّكت بخطابها الواضح، ورفضت التنازل عن مفردات الصراع، وأبقت على الحضور الميداني بوصفه الضامن الوحيد لأيّ تسوية.

في سورية، رُسم ممرٌّ بعنوان «العودة إلى العالم»، من خلال إعادة تأهيل الخطاب الرسمي، وتقديم نماذج مدنية مدعومة خارجياً. أُريد لهذا المسار أن يعيد تشكيل الهوية الثقافية، ويُعرق سردية المقاومة في حوارات تنموية ومنصّات دولية، تُشعرك بالتقدّم، فيما تُبعدك عن جوهر المعركة. جرى تسويق مفاهيم مثل «الانفتاح»، و«التنمية المستدامة»، و«المجتمع المدني» بوصفها بدائل عن مفردات مثل «الصمود»، و«التحرير»، و«الاشتباك».

في كلّ هذه التجارب، لم تُستخدم لغة الإيقاف، بل طُرحت بدائل

تبدو أكثر نضجًا. لم تُفتح بوابات الخروج دفعة واحدة، بل سُيِّدت ممرات تبدأ بتعديل مفردة، وتحييد نغمة، وتغيير تموضع. ومع الوقت، يتحوَّل الطريق إلى مسار يتعد عن المعركة، ويُعيد تشكيل الوعي ضمن شروط جديدة تُفرغ الذات المقاومة من حدتها الأولى.

في علم النفس السلوكي، تُسمَّى هذه الآلية «الهندسة السلوكية الموجهة» (Guided Behavioral Engineering). لا تُفرض القرارات، بل يُعاد تشكيل المحيط، فتتغير الخيارات دون وعي مباشر. يظنُّ الفاعل أنه يختار بحريَّة، فيما كلُّ اختياراته تقوده إلى النتيجة نفسها. تُبنى هذه الهندسة على التدرُّج، وعلى الإيحاء بالسيطرة، وعلى الإقناع بأنَّ التغيير نابع من الذات.

وهكذا، يجد كثير من المقاومين أنفسهم في موقع جديد، يظنُّونه امتدادًا لمسارهم، فيما هو خروج ناعم عن جوهرهم الأوَّل. لا تُكتَب على هذه الممرات عبارة «انتهت المقاومة»، إنما تُزيَّن بعبارات، مثل «مرحلة النضج السياسي»، و«الانفتاح الواعي»، و«الواقعية الجديدة». وهنا يكمن الخطر الحقيقي: أن يستمرَّ الإنسان في القول إنَّه على الطريق، في حين يكون قد غادره منذ زمن، عبر باب لم يُعرَف نفسه بأنَّه مخرج بل ظهر بأنَّه نافذة مشرقة نحو المستقبل.

الاستراتيجية الحادية والثمانون: تنميط الذات المقاومة

حين تُختزل المقاومة في صورة جامدةٍ سهَّلَ تحييدها. يتحوَّل الاشتباك الرمزي إلى ساحة تفكيكٍ ناعم. لا يكتفي العدو باستهداف المقاومة في سلاحها أو خطابها، بل يوسِّع معركته لتشمل صورتها في الوعي الجمعي. من أنجع أدواته في هذا المجال ما يُعرف بـ «استراتيجية التنميط»، أي إعادة إنتاج صورة نمطية للمقاومة تجعلها قابلة للتصنيف، وبالتالي قابلة للتحديد أو الترويض. فحين يتماهى المقاوم مع الصورة التي رسمها له خصمه، حتى وإن بدت إيجابية في ظاهرها، يفقد جزءاً من ديناميكته الرمزية، ويتحوَّل من مشروع حيٍّ إلى قالب يمكن احتواؤه أو تسويقه أو حتى إعادة إنتاجه ضمن شروط الخصم.

في علم النفس الاجتماعي، تُصنَّف هذه الظاهرة ضمن ما يُعرف بـ «التموضع الإدراكي الخارجي» (External Framing)؛ حيث يُعاد تعريف الشخص أو الجماعة أو الحركة من خارجها، ويُفرض هذا التعريف بوصفه الإطار المعتمد داخل الفضاء العام. وعندما تستبطن الحركة هذه الصورة، تبدأ بتعديل خطابها وسلوكها لتنسجم مع ما يُتوقَّع

منها، لا مع ما كانت تسعى إليه أصلاً. يُراد من هذا التَّمْيِيطُ أن تتحوَّلَ المقاومة إلى شخصية واحدة، لهجة واحدة، ولباس واحد، وصورة واحدة. يُقدِّمُ المقاوم بوصفه حاملاً للسلاح فقط، أو ملثَّماً بلحية وبندقية، أو مجسِّداً في ملصق معين أو نغمة صوتية محدَّدة. هذه الصورة؛ حتى وإن استندت إلى واقع جزئي، تُقْصِي التنوُّعَ، وتحوَّلُ المشروع إلى رمز قابل للاستهلاك، لا إلى فعل متجدِّد.

وقد استخدمت (إسرائيل) والإعلام الغربي هذه الاستراتيجية بكثافة، في محاولة لإعادة تأطير المقاومة ضمن صورة واحدة متخيَّلة. صُوِّرت حركات المقاومة الفلسطينية، وعلى رأسها حماس والجهاد الإسلامي، دائماً ضمن إطار بصري ضيق: المقاتل الملثَّم، والآية القرآنية، ونبرة الصوت الحادَّة، والخلفية الدينية الحصرية. هذا التقديم لا يقتصر على التحامل، بل يُعبِّر عن هندسة متعمَّدة لصورة ذهنية تسهَّل مهاجمتها من قبل من يخشون التطرُّف، أو يرفضون الغُلُوَّ، أو يبحثون عن خطاب أكثر "عصرية".

والأمر نفسه تكرر مع المقاومة في لبنان، حين سعت وسائل الإعلام المعادية إلى اختزاله في صورة المقاتل الجنوبي الشيعي بلغة دينية مغلقة، وفي فضاء طائفي محدود. مع أن المقاومة، في حقيقتها

الاجتماعية والسياسية والميدانية، تتجاوز هذا الإطار بكثير، وتقدّم مشروعاً وطنياً ودولياً متشعباً. لكنّ التّميّط يُراد له أن يُجمّده في صورة تسهّل مهاجمتها أو حتى محاكاتها استهلاكياً.

في إيران، جرت محاولات غريبة مستمرّة لإعادة تقديم الثورة الإسلامية بوصفها ظاهرة محافظة، وذكورية، ومغلقة غير قابلة للانفتاح، كأنّها تجسيد لزمان تقليدي منفصل عن العصر. بهذه الصورة، تُقدّم المقاومة بوصفها متحقّقاً حيّاً لا حركة تغيير، ويُحكم عليها من خلال الانطباع البصري واللغوي، بدلاً من الفعل والنتائج.

وهذا النوع من التّميّط يُستخدم كذلك داخل الوطن العربي، من خلال تسويق نماذج ثقافية بديلة تُقدّم على أنّها "المقاومة المقبولة": فنّان يغنّي للوطن، أو مثقّف يكتب عن المظلومية، أو عمل درامي يتحدّث عن الفداء... لكنّ ضمن شروط إنتاجية ولغوية وجمالية تُفرغ المقاومة من بعدها الميداني والسياسي. وهكذا، يتحوّل المشروع إلى حالة وجدانية، ويُفصل عن جبهة الاشتباك.

لا تتمثّل الغاية من هذا المسار في مهاجمة المقاومة بشكل مباشر، بل في تحديد إطارها مسبقاً. يُقال: هذا هو شكلها الوحيد. وكلّ ما خرج عن هذا القالب يُستبعد، أو يُتّهم، أو يُشيطن. والنتيجة أنّ المقاومة تُحبس في قوالب جاهزة، فتفقد قدرتها على التجدّد أو التجاوز.

الاستراتيجية الثانية والثمانون: تدويل المرجعية

حين يُنزعُ ميزانُ الخُلُقِيِّ ويُستبدلُ بميزانِ الخارجِ، يتبدَّلُ جوهرُ الصراعِ من الداخلِ.

تُشكِّلُ المرجعية في أيِّ مواجهة نقطة الارتكاز التي ينبنى عليها تصوُّركَ للصواب والخطأ، للحقِّ والباطل، للعدل والظلم. ومن هنا، فإنَّ التهديد الأخطر الذي قد تواجهه الحركات المقاومة يتمثَّل في إجبارها على إعادة تشكيل بوصلتها القيمية؛ بحيث تبدأ في تقويم نفسها وفق معايير مفروضة من خارجها، لا نابعة من تجربتها الذاتية. في علم الاجتماع السياسي، تُعرف هذه الآلية بـ«تحويل المرجعية القيمية» (Value Reframing)، وهي تحدث عندما تُفرض على جماعة ما منظومة خارجية لتقويم أفعالها، فتتخلَّى تدريجيًّا عن معاييرها الأصلية، وتبدأ في قياس مشروعها بناءً على ما يرضي الآخرين، بدلاً من الانطلاق من رسالتها أو عقيدتها أو تجربتها النضالية.

وقد استخدمت الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، هذه التقنية في إدارة الصراعات مع حركات التحرُّر، عبر أدوات ناعمة مثل المؤسَّسات الدولية، والمنابر الحقوقية، والإعلام العالمي الذي ينصَّب نفسه مرجعاً خُلُقياً أعلى. يصبح المطلوب من المقاومة أن تُثبت التزامها بالأخلاق وفق

التعريف الأمريكي، وأن تُظهر إنسانيتها وفق المفهوم الليبرالي، وأن تُقاس عدالتها بمقاييس المحكمة التي أسَّستها القوى المهيمنة.

في فلسطين، يتجلَّى هذا النمط بوضوح؛ حيث يُطلب من المقاوم أن يتجنَّب استهداف المدنيين، وأن يمتنع عن إطلاق النار من مناطق مأهولة، وأن يُظهر "تناسباً" في ردّه، فيما الطرف الآخر يُعفى من أيِّ محاسبة، ويواصل عدوانه وحصاره دون مساءلة. لا ينبع معيار العدالة هنا من غزّة، بل يُصاغ في تل أبيب وواشنطن. وعندما تعتمد المقاومة هذا المعيار، تدخل في دائرة تبرير ذاتها أمام الخصم، وتبتعد عن مساءلته أمام شعبها.

وفي لبنان، بعد كلِّ مواجهة، تُستدعى تقارير دولية، ويُطلب من المقاومة تقديم تبريرات عن صواريخها، ومواقع انتشارها، وخطابها الإعلامي. يُطالب بأن يراعي "القانون الدولي"، كأنَّ هذا القانون صُمِّم لحماية المستضعفين، فيما هو في جوهره أداة لإدارة الهيمنة. وهكذا؛ يتحوَّل ميزان الأمم المتحدة إلى مرآة يُفترض أن يرى فيها المقاوم صورته، رغم أنَّ تلك المرآة صُمِّمت لتعكس ما يخدم مصالح من صنعها.

وفي إيران، تتكرَّر الحالة مع كل منعطف سياسي أو عسكري. تُقدِّم الثورة الإسلامية في الإعلام الغربي بوصفها حالةً خارجة عن "النظام العالمي"، وتُقاس قراراتها وفق مصالح المجتمع الدولي، بدلاً من

أن تُفهم ضمن رؤيتها للعالم. كأنَّ المطلوب من الجمهورية أن تُعيد تشكيل مبادئها بما يتلاءم مع نظام جاء أصلاً لإقصائها، لا أن تبني مشروعها الخاص انطلاقاً من ذاتها. والأدهى من ذلك، أن هذا التدويل لا يُفرض من الخارج وحده، بل يُعاد إنتاجه من الداخل. يبدأ المثقف بالحديث عن "المشروعية الدولية"، ويطالب الإعلامي بـ "احترام المعايير الكونية"، وتشرع الحركة المقاومة في مراجعة خطابها لتبدو "أكثر قبولاً عالمياً". ومع الوقت، يتحوّل المعيار إلى عين ترى الذات من خلال نظرة الآخر، وتفقد القدرة على النظر من داخلها.

الانزلاق إلى هذا النمط يُضعف الوعي المقاوم؛ لأنّه يفقده مرجعيته الأصلية. من يقسُ نفسه بميزان الخصم، ينشغل بإرضائه، ويتراجع عن السعي إلى الانتصار عليه. وحين تصبح الغاية هي القبول الخارجي، تتراجع القدرة على المبادرة، ويُعاد تشكيل الخطاب لِيُناسب قوالب لا تنتمي إلى سياق المعركة.

تمثّل حماية المرجعية جوهر الصراع الرمزي. لا يعبر امتلاك المعيار الذاتي فقط عن استقلال خُلقي بل يمنح القدرة على الفعل، وعلى التقويم، وعلى الاستمرار. فكلمًا ارتفع صراخ الخارج، وكلمًا علت محاكمه، وكلمًا لبست أحكامه ثوب القانون، يبقى الثبات على المرجعية الذاتية هو الفعل الأشد مقاومة.

الاستراتيجية الثالثة والثمانون: تشويه رموز التَّضْحِيَّةِ وتقزيمُ القدواتِ

حين يُستهدفُ الوجدانُ عبرَ القدوةِ نفسها، تتحوَّلُ المعركةُ من مواجهةٍ خارجيةٍ إلى تفكيكٍ داخليٍّ للمعنى لكلِّ مقاومةٍ رموزها؛ أسماءً وشخصياتٍ تجسَّدت في الوعي الجمعي بوصفها تمثيلاً للشباب، والشجاعة، والوفاء. هؤلاء لا يُنظر إليهم باعتبارهم قادة ميدانيين أو خطباء فحسب بل يُرون بوصفهم مرايا تعكس صورة المشروع بأكمله. ومن هنا؛ تتَّجه الحرب النفسية إلى تشويه صورتهم، وتفريغ رمزيتهم، وتقزيم مكانتهم في عيون جمهورهم، باعتبارهم بوابات التأثير الأعمق في الوجدان.

تبدأ هذه الاستراتيجية غالباً بعد لحظة استشهاد أو صعود شعبي لافت. تُطرح أسئلة مشكِّكة: «من كان فلان؟ هل تعرفون كلَّ شيء عن تاريخه؟»، و«هل كان حقاً بلا أخطاء؟»، و«ألم يكن ينتمي إلى تيار متشدِّد؟»، و«هل أنتم واثقون من نواياه؟». ثم تُنشر مقاطع مجتزأة، وصور قديمة، وتأويلات مأزومة، وتُضخَّم الهفوات الشخصية إن وُجدت، أو تُختلق عند الحاجة.

ويُرافق هذا الهجوم خطاب «عقلاني» زائف يُروِّج لعبارات مثل:

المحورُ التَّاسِعُ - الاستراتيجية الثالثة والثمانون ٣٠٩

«توقفوا عن تمجيد الأشخاص»، أو «كلُّكم بشر، لماذا تهلِّلون له؟»، أو «ما هذه الثقافة الفردية؟». وتكرَّس مقولة: «فلان مجرد واحد منكم»، في محاولة لتقليص الفارق الرمزي بين من ضحَّى بحياته، وبين من بقي على الهامش.

في هذا السياق، يُستهدف الرمز بوصفه نقطة ارتكاز وجدانية، ويُستهدف من خلاله شعور الناس بالحافز، والثقة، والانتماء. فعندما تهتزُّ صورة القدوة، يتزعزع البناء النفسي الذي يقوم عليه المشروع بأكمله. ويجد الشاب الذي اعتبر الشهيد مثلاً أعلى نفسه في حالة من التردُّد، والارتباك، وربما الحرج من إعجابه السابق.

وقد تكرَّرت هذه الآلية مراراً؛ بعد كلِّ عملية نوعية، تُفتح ملفَّات مشبوهة لتشويه صورة منقذاتها. بعد كلِّ خطاب مقاوم ملهم، تُقتطع عبارات وتُعاد هندستها لتبدو كأنَّها دليل على تعصُّب أو عنف أو ماضٍ ملتبس. وفي كلِّ الحالات، يتحوَّل الهجوم من الفكرة إلى حاملها، في محاولة لتجفيف منابع الشرعية الوجدانية.

في علم النفس السياسي، تُعرف هذه الآلية باسم «هدم الرمز أداة لإضعاف الرسالة» (Symbol Undermining Strategy)، وتُستخدم تحديداً عندما تعجز الأنظمة أو القوى المعادية عن دحض المشروع ميدانياً، فتتوجَّه نحو رأسه الرمزي، بهدف تفكيك المعنى المتراكم حوله.

الاستراتيجية الرَّابِعةُ والثَّمَانون: تثبيتُ صورةِ الضَّعْفِ في لاوعيِ الأجيالِ

حين تُغرَسُ الهزيمةُ ببطءٍ في ذاكرةِ المستقبلِ.

تتحوَّلُ الحربُ النفسيةُ إلى مشروعٍ طويل الأمدٍ لإعادة تشكيل الوعي الجمعي منذ الطفولة. لا تقتصر هذه الحرب على الجمهور الحاضر، بل تمتدُّ إلى الأجيال القادمة، عبر بناء تصوُّرٍ مسبقٍ عن الذات: جيل يرى نفسه محاصرًا، مثقلًا بالعجز، غير قادرٍ على التغيير. وبدل أن ينطلق من طموح التحرير، يبدأ من سؤال البقاء. وبدل أن يتخيَّل ذاته مشروع مقاومة، يتعامل معها بوصفها محاولة للنجاة.

تُمَارَسُ هذه الاستراتيجية عبر التعليم، والإعلام، والثقافة، والقصص اليومية. يُروى التاريخ للأبناء بوصفه سلسلةً من الانكسارات، ويُعرض الحاضر بوصفه حالة دائمة من التهديد والعجز. وتُغرَسُ في نفوس الأطفال صورةٌ بيَّتَهُم كعالمٍ يفتقر إلى الأمان، ومليءٍ بالحرب، والدمار، والنقص. فينشأ الطفل وفي قلبه مسافة خفية تفصله عن الأمل، ويبدأ رحلته لا بحلم الانتصار، بل برغبة في الهروب.

يستثمر العدوُّ هذه الثغرة بدقَّة. فيروِّج في مدارس الأمم المتحدة - كما في المخيمَّات الفلسطينية - موادَّ تعليمية خالية من أيِّ رمزية

مقاومة. تُمنَع خريطة فلسطين الكاملة، ويُعاد تعريف الوطن بوصفه واقعاً تفاوضياً. وفي الإعلام الموجّه، تُكرّس صورة الطفل المقاوم كمأساة، لا كبطولة. وفي المحتوى الترفيهي، تُستبدل الرموز المحلية بنماذج مفرغة ثقافياً، فتتكوّن لدى الطفل هويّة هجينة، مُحبّطة، بلا جذور.

وتنتقل العدوى إلى الداخل؛ الأسر، والمدارس، وحتى بعض الفضائات الثقافية المقاومة، تبدأ أحياناً - دون وعي - بتقليص سقف الخطاب الموجّه للأطفال: «لا تُفكّر كثيراً، فقط احمِ نفسك»، و«السياسة للكبار، عِش حياتك»، و«هؤلاء يقرّرون عنك». وهكذا؛ تُسحب المقاومة من وعي الجيل الناشئ قبل أن يبدأ بالتفكير فيها. يسمّي علم النفس التربوي هذا النوع من الغرس بـ «البرمجة النفسية السلبية المبكرة» (Early Defeat Programming)، وهي تنشأ حين يُربى الطفل في بيئة مشبّعة بصورة عن ذاته ومجتمعه بصفته ضحيّة مزمنة. وكلّما طالت المدّة، ترسّخت الفكرة، وصار تفكيكها لاحقاً أكثر تعقيداً.

لا يحتاج العدوُّ إلى إقناع الكبار بالتخلي عن الفكرة، بل يركّز على إعداد جيل لا يحملها أصلاً. ولا يواجه الفكر القائم، بل يمنع تشكُّله. ولا يدخل في صراع مع الذاكرة، بل يقطع الطريق على ولادتها.

المحورُ التَّاسِعُ - الاستِراتيجِيَّةُ الرَّابِعَةُ والثَّمَانُونَ ٣١٣

تبدأ مواجهة هذه الحرب ببناء خطاب نفسي - تربوي يعيد للأجيال ثقتهم بأنفسهم، وبيئتهم، وبرموزهم. أن يُقال للطفل؛ إنَّ هذه الأرض أرضه، وإنَّ العدوَّ ليس قدرًا محتومًا، وإنَّ ما ورثه ليس مأساة، بل أمانة. وإنَّ وقوفه في وجه المعتدي لا يُعد فعلًا خارقًا، بل تعبيرًا طبيعيًا عن الكرامة.

الاستراتيجية الخامسة والثمانون: بناء صورة مزيفة عن العدو في الوعي الجمعي

إذا صار العدو مألوفاً؛ يتآكل الاستعداد للمواجهة

حين يُقدّم العدو بوصفه عقلاً نياً، وحضارياً، قابلاً للتفاهم والاحترام، تتحوّل الحرب النفسية إلى عملية إعادة تشكيل إدراكي تُعيد تعريف الصراع من جذوره. لا يُكتفى باستخدام القوة، بل يُعاد بناء صورة المعتدي داخل وعي جمهور المقاومة، ليبدو إنساناً طبيعياً، متزناً، خالياً من ملامح التهديد. في هذه الحالة، يتكوّن الاستسلام من الداخل، مع تآكل صورة العدو بوصفه نقيضاً وجودياً.

تُبنى هذه الصورة المزيفة بطريقة هادئة، متدرّجة، عبر الإعلام، والثقافة، وأحياناً من خلال خطاب محليّ يتّسم بالتواطؤ أو السداجة. يُقدّم العدو في الأعمال الفنيّة كطيب، أو فنان، أو أكاديمي، أو أب حنون. يُركّز على «إنسانيّته»، وتُحجب جرائمه. تتكرّر العبارات: «بعضهم طيّبون»، «هم يشبهوننا»، «لماذا لا نعيش بسلام؟». ومع تكرار هذا الخطاب، تتراجع الحدة الخُلقيّة، ويبدأ التناقض في التلاشي.

بهذا التدرّج؛ تُنتزع اللغة من سياقها النضالي وتُستبدل بمفردات التفاهم المشروط: «العدوُّ صاحب وجهة نظر مختلفة»، «هم يشعرون

بالخوف مثلنا»، «الحوار هو الطريق الأفضل». ومع الوقت، يفقد الخطاب وضوحه، ويُعاد تشكيل الوعي على نحو أكثر حيادية تجاه المعتدي، فيغيب التمييز بين الجلاد والضحية.

ففي فلسطين، بلغ هذا النمط ذروته في بعض الإنتاجات الفنيّة المشتركة التي تُساوي بين القاتل والمقتول تحت شعار الإنسانية. في لبنان، يُعاد تقديم بعض رموز العدوِّ باعتبارهم «خبراء استراتيجيين محترمين» في إعلام محليّ. وفي العراق، تُروِّج مشاريع التطبيع الأكاديمي تحت عنوان التبادل الثقافي. وفي كلّ هذه الحالات، تُعاد صياغة صورة العدو بطريقة تُخفي صفته الجوهرية: كيان معتدٍ غاصب، وفاقد للشرعية.

يسمّي علم النفس الجمعي هذه الظاهرة بـ «تطبيع الإدراك الخُلقي» (Moral Normalization of the Enemy)؛ حيث تُغطّي أفعال العدوِّ بسردية إنسانية موجهة تُحدث التباساً في الوجدان، وتُربك القدرة على التمييز بين المعتدي والمعتدى عليه.

مواجهة هذا النمط من الحرب تتطلّب إعادة تثبيت صورة العدوِّ كما هي في الواقع، انطلاقاً من أفعاله ومشروعه، لا من صفاته الشخصية أو تمثيلاته الإعلامية. من يحتلُّ الأرض، ويقصف البيوت، ويحاصر الأحلام، لا يُمكن أن يُقدّم بصفته صاحب مشروع عقلائي، إلا إذا فُهمت العقلانية بوصفها قدرة استعمارية على تنظيم القتل بأسلوب أنيق.

الاستراتيجية السادسة والثمانون: الظلُّ الذي يُشبهك

حين يتكاثر الظلُّ؛ يضيعُ الأصلُ

إنه تقليدٌ مشوّهٌ للخطابِ المقاومِ، ما يُربكُ الجمهورَ ويفرغُ الأصلَ

من جوهره.

فليست كلُّ الهجمات على المشروع المقاوم صادرةً عن خصومه الصرحاء. فبعض الضربات الأشد تأثيراً تأتي ممَّن يتشابهون معه في الظاهر: كيانات وخطابات تحمل الألوان نفسها، وتستخدم المصطلحات ذاتها، وترفع الصور عينها، لكنّها تفتقر إلى الروح، وتُقدِّم صورة مبتورة، خالية من المعنى. هذا هو «الظلُّ الذي يشبهك» — الاستراتيجية التي يُنتج فيها بديل رمزي يتقاطع مع الأصل في الشكل، ويتناقض معه في العمق.

في هذا النمط، لا تُشنُّ الحرب على المقاومة بأسلوب مباشر، بل تُصاغ لها نسخ هجينة؛ تروِّج لسردية مشابهة في المظهر، لكنّها تنطلق من إحدائيات مختلفة. قد تُقدِّم هذه النسخة بوصفها أكثر اعتدالاً، أو أكثر واقعية، أو أقرب إلى الحوار. ومع الوقت، يتشوش الإدراك العام، ويصعب التمييز بين الأصل والتقليد، بين الجوهر والسطح.

تتجاوز الغاية تشويه صورة المقاومة، وتمتدُّ إلى سحب جمهورها

المحورُ التَّاسِعُ - الاستراتيجية الخامسة والثمانون ٣١٧

نحو خطاب يبدو مألوفًا، لكنَّه يفتقر إلى الجذر. وعندما تتعدَّد الأصوات التي تتحدَّث باسم «الحق» و«الكرامة» و«القضية» دون التزام فعلي بجوهر المواجهة، يفقد المستمع البسيط ثقته في كلِّ السرديات، بما فيها السردية الأصلية.

يشبه هذا ما يحدث في الفنون حين تُنتج نسخٌ متكررة من لوحة عظيمة، فتفقد رمزيتها الأولى. كذلك تفعل هذه الاستراتيجية: تستهلك رمز المقاومة عبر مطابقة في الشكل، مشوِّهة في المضمون.

وقد تجلَّى هذا بوضوح في الإعلام العربي والدولي؛ حيث تظهر وجوه جديدة تتحدَّث بلغة «الثوَّار»، وتستحضر مفردات «الدم» و«الشهادة»، لكنَّها تُدرج ضمن خطاب مصمَّم لتفريغ المحتوى من جذريته. يُصوِّر العدوَّ خصمًا يمكن التفاهم معه، وتُقدِّم المقاومة خيارًا قابلاً لإعادة تقويمه.

حتى في الأناشيد والرايات والاحتفالات، تتسلَّل هذه الاستراتيجية: مشاهد مألوفة، وشعارات قريبة، لكن بلا حرارة، وبلا توتُّر الصراع. كلُّ شيء يبدو حيًّا على السطح، فيما تسكن الخيانة الرمزية في العمق.

ولكي يتمدَّد هذا «الظلُّ»، لا بدَّ من بيئة تُضعف الأصل. تبدأ هذه البيئة بالتشكيك في القيادة، أو في الأسلوب، أو في المرجعية، أو في جدوى المواجهة. ومع غياب الإجابات الحاسمة، يجد الخطاب

البديل طريقه إلى الوعي العام.

الظلُّ لا يهاجم الأصل صراحة، لكنَّه ينافسُه في الحضور. يُعرَض في الفضائيات، يُحتفى به في المهرجانات، ويُقدَّم بوصفه صوتاً جديداً «يعكس نبض الجيل»، ويُروَّج له باعتباره خياراً «أقل تكلفة وأكثر واقعية». ومع الوقت، تتراجع المفردات الأصلية، وتضمحلُّ المسافة بين الحقِّ والباطل؛ لأنَّ الصورة واحدة والروح غائبة.

في التجربة الفلسطينية؛ ظهرت نسخ متعدّدة من الخطاب الوطني، بعضها مستعار من قاموس أوسلو، وبعضها مستنسخ من تجارب نضال غربية. جميعها تتحدّث عن «السلام» و«حلّ الدولتين» و«نبذ العنف»، مستخدمة صور الشهداء والرايات ذاتها. لكنَّ وجهة الرمز تغيّرت: من المقاومة إلى التسوية.

وفي لبنان، حاولت بعض القوى إنتاج خطابات موازية تتبنّى الشكل المقاوم، حتى في الزيِّ والرمزية، لكنَّها تهاجم الأصل من حيث لا يرى، عبر خطاب مزدوج يُظهر الدعمَ ويُحرِّض ضمناً على التفكيك. وهكذا يتجسّد «الظلُّ» في أوضح صورهِ: يرافقتك في الشكل، ويُفرغك في الجوهر.

أمّا في البُعد النفسي، فإنَّ هذه الاستراتيجية تُربك الجمهور؛ لأنَّها لا تستخدم المواجهة، إنّما تُقدِّم نسخة مغشوشة من الذات. وهنا يفقد

المتلقِّي القدرة على التمييز بين الخطاب الأصيل والمزيَّف، ويبدأ بالتشكيك في كليهما.

وأسوأ ما يمكن أن يحدث هو أن تبدأ المقاومة نفسها بمحاولة التكيُّف مع هذا «الظلِّ»، عبر تلطيف خطابها، أو تنميق رموزها، أو مسايرة المزاج الجماهيري تحت شعار الانفتاح. عندها تتحوَّل تدريجيًّا إلى صورة أخرى من صور التقليد، وتفقد جذريَّتها.

مواجهة هذا النمط لا تحتاج إلى صخب، ولا إلى إعلان التفوُّق، إنّما إلى تعميق جوهر الخطاب المقاوم وتمييزه. المطلوب هو خطاب واضح، رموز صادقة، خطُّ سياسي متماسك، ومرجعية خُلُقِيَّة لا تتنازل. فمهما تعدَّدت الظلال، يبقى الأصل هو النور الذي لا يُستنسخ.

الاستراتيجية السابعة والثمانون (هندسة التناقض الرمزي)

اصنع الانقسام، واترك الرمز يتأكل ببطء
لكل جماعة رموزها الكبرى، تلك التي تمنح وجودها المشترك
معناه الخُلقي وتماسكه النفسي. الرمز ليس مجرد صورة أو شعار، بل
هو كتلة وجدانية تتجمع حولها التماهيات الفردية، فيتحول الدفاع عنه
إلى دفاع عن الذات الجماعية. ولهذا السبب، تكون الحروب النفسية
شديدة التركيز على الرموز؛ لأنها بوابة مفتوحة للوجدان العام، ولأن
من يحرر الوعي من سطوة الرمز أو يشوش قدرته على الإلهام، يتحكم
في قابلية المقاومة.

لكن التدمير المباشر للرمز، عبر السخرية والإنكار والتشويه، لا
يكون دائماً فعالاً. أحياناً يؤدي الهجوم العنيف ضد الرمز تعاطفاً مضاداً،
فيرتد السلاح على حامله. ولهذا، ابتكرت الدعاية الحديثة استراتيجية
أكثر دهاءاً: ألا تُهاجم الرمز جهاراً، بل تصنع حوله تناقضاً دائماً؛ حالة
من الازدواجية الإدراكية التي تمنع العقل من التماهي معه بطمأنينة.
إنها هندسة التناقض الرمزي؛ أن تنشر رسائل متضادة حول الرمز، فلا
يعرف الناس إن كان مقدساً أم دنيئاً، عظيماً أم تافهاً، ضحية أم جالداً.

في علم النَّفس الاجتماعي، يُشير هذا الأسلوب إلى تكتيك يُسمَّى Double Bind، أي المأزق الإدراكي المزدوج. وهو حالة يعيشها الفرد حين يتلقَّى رسائل متناقضة في آن واحد؛ بحيثُ يصبح التَّفَاعُل معها مُحالاً دون أن يخون جزءاً من ذاته.

وعندما يُمارَس هذا التناقض على مستوى الرُّموز الكبرى، يحدث ما يُشبه الشَّلَل الوجداني: فلا العقل يقدر على الانحياز بوضوح، ولا القلب يجرؤ على الرِّفْض أو القبول الكامل. ويمكن لهذه الاستراتيجية أن تتخذ صوراً متعدّدة. أحياناً يأتي التَّنَاقُض من تعدُّد الأصوات داخل المنصَّات الإعلامية ذاتها: فقناة إخبارية تنشر في الصَّبَاح تقريراً يحتفي بـ "بطولات المقاومة"، ثم تنشر في المساء تحقيقاً ينتقص من أخلاقها وصدقيتها.

أحياناً يكون التَّنَاقُض في الخطاب السياسي، حين يصف المتحدثُّ الرسميُّ الرَّمزُ بأنَّه "تاريخي لا يمكن تجاهله"، ثم يلمِّح في مناسبة أخرى إلى "انتهاء صلاحيته التاريخية". أحياناً يُلْقَى التَّنَاقُض في مساحة الفن والدراما، حيث تُعرض أفلام وثائقية تُمجِّد الرَّمز، تليها مسلسلات تتهكَّم عليه أو تقدِّمه شخصيَّةً مرتبكة. إنَّ الهدف العميق هنا ليس الإقناع بأيِّ سرديَّة بل صناعة فراغ المعنى. فالوعي الجمعي يعتمد على الاتِّساق الإدراكي كي يُحافظ على يقينه العاطفي. فعندما يتلقَّى

الإنسان رسائل متناغمة عن رمز ما، يتشكّل لديه «انسجام وجداني» يجعله قادراً على تفسير العالم من خلال الرّمز والدفاع عنه بشجاعة. أمّا حين يُعرق الرّمز بالتناقض المقصود، تنكسر هذه القابلية، ويبدأ الوعي في التآكل الصّامت.

خذ مثلاً ممّا جرى بعد اغتيال قادة كبار في تاريخ الحركات التحرّريّة. في الأيام الأولى، تبرز التّغطية الإعلاميّة قصص تضحياتهم وتجاربهم الاستثنائيّة، لكن سرعان ما تخرج مقالات رأي تُشكّك في كفاءتهم، أو تلمّح إلى فسادهم الشخصي، أو تتحدّث عن خيانات لم تثبت قطّ. وبعد أيام، تعود لغة التّقدير والتمجيد. هذا التتابع المدروس لا يخلق نقاشاً موضوعياً، بل يخلق بيئة انقسام وجداني دائم.

وتشير البحوث النّفسيّة عن Double Bind Bateson, 1972, والتعلّق المُربك Ambivalent Attachment Bartholomew & Horowitz, 1991, إلى أنّ التّعريض المستمرّ للرسائل المتناقضة بشأن رمز أو شخصيّة عامّة قد يُؤدّي إلى ارتباك وجداني وتنافر معرفي، يجعل الفرد عاجزاً عن تصنيف الرّمز ضمن خانة إيجابيّة أو سلبيّة.

وقد بيّنت دراسات تجربيّة متعدّدة أنّ هذه الحالة تقلّل القابليّة للتّعاطف وتثبط الحماسة الدّفاعيّة عن أيّ قضية تمثّلها تلك الشخصيّة. وهنا يكمن جوهر الاستراتيجية: إنّها لا تسعى إلى تقويض الرّمز

بضربة صريحة، بل تعمل بصفتها سمًّا بطيئًا يُحقن في شرايين الوعي الجمعي، حتَّى يفقد الرَّمز قيمته بوصفه مرجعيةً موحَّدة. في التجربة اللُّبانيَّة إبان الحروب المتعاقبة، استُخدم هذا التكتيك بمهارة. كانت بعض وسائل الإعلام تصدر تقارير تمجيديةً عن صمود الضاحية الجنوبيَّة، ثم تنشر في اليوم التالي تحقيقات عن "ثمن العناد" و«العبئيَّة الاستراتيجية».

هذا التناقض لم يكن مجردَّ عشوائيَّة تحريرية، بل كان استراتيجية لزرع الارتباك العاطفي في صفوف جمهور المقاومة: هل نحن فعلاً أصحاب قضية عادلة أم مجردَّ ضحايا عناد لا معنى له؟

وفي الساحة الفلسطينيَّة، تجلَّت هذه الاستراتيجية على نحو أعمق، حين تُنشر أخبار متتالية: إحداها تروي بطولة الشهداء، وأخرى تذكر قضايا فساد لمسؤولين في الفصائل، وثالثة تصفهم بأنَّهم "الأمل الأخير"، ورابعة تؤكِّد "انتهاء أسطورة المقاومة".

هذا التراكم التناقضي يؤدِّي تدريجيًّا إلى ما يسمِّيه علماء الاجتماع احتراق المعنى، وهي حالة استنزاف نفسي تجعل الدفاع عن الرموز مُرهقًا كأنَّه اعتراف بانهارها.

من الناحية العصبيَّة، ثمة تفسير آخر لهذه الظاهرة. يعتمد الدماغ

البشري، في قدرته على التمييز بين المعلومات الصحيحة والزائفة، على بناء ما يُسمَّى «الذاكرة الدلالية» - أي شبكة الروابط بين المفاهيم والصور والرموز. حين يُغرَق الدماغ برسائل متضادَّة عن الرَّمز نفسه، تنكسر هذه الروابط العصبيَّة التي تحفظ انسجام صورته، فيصبح إدراكه مُمزَّقًا بين الانبهار والازدراء.

إنَّ أخطر ما تفعله هندسة التناقض الرَّمزي أنَّها تستدرج المجتمعات لترديد هذا التناقض دون وعي.

فتسمع الشخص نفسه يقول في جلسة واحدة: «نعم، إنَّهم مقاومون شجعان»، ثم يُضيف بعد دقائق: «لكن ربما كان يمكنهم تجنُّب الحرب». وهكذا يتحوَّل الانقسام النفسي الفردي إلى ثقافة جمعيَّة متشكِّكة، عاجزة عن الاصطفاف العاطفي.

ما يُضاعف فاعليَّة هذه الاستراتيجية هو طبيعة العصر الرقمي: في زمن تتدفَّق فيه الأخبار والتعليقات والقصص بلا سياق، يصبح إنتاج التناقض أسهل من أيِّ وقت مضى. لا تحتاج إلى ماكينة دعائيَّة متماسكة، بل يكفي أن تخلط الأخبار والتحليلات من مصادر متعدِّدة، لتصنع فراغًا إدراكيًّا شاملاً.

من يستخدم هذه الاستراتيجية لا يُراهن على اللحظة الأولى من الصدمة، إنَّما على تراكم الإجهاد المعرفي.

فحين يُرغمُ الناس على تلقيِّ هذا القدر من التضادِّ الرَّمزي، يبدوون بالانسحاب من السجال والانكفاء على ذواتهم، وحينها يصبح تسويق أيِّ رواية بديلة - حتى لو كانت ساذجة - أكثر سهولة. إنَّه الأسلوب الذي بدلاً من هدم التمثال؛ يشقُّه بخطوط دقيقة حتى ينهار من تلقاء نفسه. لذلك، تظلُّ هندسة التناقض الرَّمزي من أخطر أدوات الحرب النفسية المعاصرة. فهي لا تحتاج إلى إثبات، ولا إلى تكذيب، وإنما إلى توزيع التناقض بكميَّات كافية لتمحو الثقة من الوعي.

وعندها، ينكفي الناس عن المقاومة؛ لأنَّهم لم يعودوا قادرين على معرفة أيِّ قصة تستحقُّ الدفاع عنها.

المحور العاشر:

الاستراتيجيات الإبداعية المضافة

الاستراتيجية الثامنة والثمانون: غدُّ العدوِّ من داخلِ شهوته

حين يُطعمُكَ العدوُّ ما تشتهي؛ تكونُ قد دخلتَ فخَّهُ
عندما يصنعُ العدوُّ صورةً ضعفه، فهو يوجِّهك نحو اندفاع غير
محسوب، لا نحو التراجع... لتقع في فخٍّ ما تريد أن تراه فيه. من
القواعد الثابتة في علم النفس السياسي أنَّ الإدراك المشوَّه للخصم
لا يقلُّ فتكاً عن الضربة المباشرة، بل إنَّ كثيراً من الهزائم تبدأ عندما
يتوهَّم الطرف المقاوم أنَّه يفهم عدوَّهُ تمام الفهم، في حين ما يراه ليس
إلا صورة صُمِّمت له بعناية.

في الحروب النفسية الحديثة، تجاوز العدوُّ مرحلة الاكتفاء بإظهار
نفسه قوياً، وأصبح يتقن إظهار نفسه ضعيفاً حين تقتضي الحاجة ذلك.
فهو لا يسعى إلى إثارة التعاطف بل يوظف لدى خصمه شهوة الهجوم،
أو نشوة الانتصار المبكر، أو التورُّط غير المحسوب في معركة رسم هو
توقيتها وظروفها ومصائدُها.

تُعرف الاستراتيجية التي يقوم عليها هذا النمط من الحرب في علم النفس الإدراكي بـ "الإغواء بالإسقاط المعكوس" (Reverse-Projection Entrapment)، وهي تقوم على فهم دقيق لرغبات الخصم، ثم تغذيتها بما يبدو استجابة صادقة من العدو. إن كنت تريد أن تراه خائفاً، أظهر لك رعبه. وإن كنت تبحث عن علامات التصدُّع، كشف لك شقوقاً. لكن ما لا تدركه هو أنَّ ما يُظهره لا يعكس حقيقته بالضرورة، بل يصوغ صورة مُعدَّة كي تؤثر عليك أنت، وتوجّه إدراكك. في هذا السياق، تظهر الحيلة النفسية الكبرى: يدفعك العدو إلى الهجوم عليه من حيث تظنُّ أنه ضعيف، وهو يتقن تمثيل حالة صُنعت خصيصاً لتُغريك بالوقوع. وهنا تصبح أنت الضحية، مدفوعاً بتوقك إلى رؤيته مرعوباً، لا بما أبداه من رعب. ذلك أنَّ العقل المقاوم، حين لا ينتبه إلى أنَّ العدو لربَّما تعلَّم كيف يتلاعب بصورته، يتحوَّل إلى مُنفذ غير مباشر لإرادته.

وقد تجلَّى هذا السلوك في أكثر من ساحة: في لبنان، استثمر العدو الصهيوني لسنوات حالة التوتر النفسي لدى جمهوره، فسَلَط الضوء على مشاهد الهلع في المستوطنات الشمالية، وتسريبات الجنود، وانعدام الثقة بالحكومة، بهدف دفع الخصم إلى الشعور بأنَّ اللحظة قد حانت، وأنَّه على بُعد ضربة واحدة من الانهيار، ما يرفع احتمال

الخطأ التقديري، أو يحرك ضغوطاً شعبية نحو ردود أفعال لا تحسب كلفة المرحلة. إنها لحظة "الانتصار المغشوش"، حين يبدو لك العدو في أقصى انكشافه، فيما هو قد أعاد ترتيب المسرح من خلف الستار. وفي فلسطين، ضحّت المنظومة الصهيونية خلال العقود الأخيرة كمّيات هائلة من المواد التي تُظهر انقسامات الكيان، وتصدّع وحدته، وانهلال مجتمعه الداخلي، كأنّها تُهدّي للمقاومة أخباراً عن هشاشتها الذاتية. وقد جاءت هذه الأخبار مدروسة بعناية، لا عفوية، تُضخُّ بكثافة لخلق انطباع نفسي بأنّ المشروع الصهيوني يترنّح، ما يدفع فئات من الرأي العام إلى اعتبار المواجهة قاب قوسين من الحسم، وتالياً تهدأ بعض حالات الاستعداد، ويُعاد تعريف المعركة بوصفها مسألة وقت لا خياراً استراتيجياً مستمراً يتطلّب التهيؤ الكامل على جميع الصعد. في العراق أيضاً، روّجت الولايات المتحدة لمراحل عديدة بأنّ الاحتلال في طريقه إلى الانسحاب الكامل، وسُرّبت نقاشات عن الإنهاك الأميركي، وعدم جدوى البقاء. لكنّ ما لم يُقل هو أنّ هذا الترويج لم يكن إلا أداة لإعادة تموضع استراتيجي بهدوء، لتُخفّض المقاومة من وتيرة ضغطها، ظناً بأنّ الانسحاب حاصل لا محالة. فالمعركة النفسية هنا بُنيت على الإيحاء المدروس بالغياب، لا على استعراض الحضور، لتُبنى القرارات الكبرى على فراغ.

تكمُنُ خطورة هذه الاستراتيجية في أَنَّهَا تُوجِّهُك نحو خطوة داخلية غير محسوبة بحُسن نِيَّة. فأنت تظنُّ أَنَّك اخترت اللحظة المناسبة للهجوم، أو رفعت منسوب خطابك؛ لأنَّك شممت رائحة الخوف في الطرف الآخر، فيما تلك الرائحة لم تكن إلا طعامًا. وهذا ما يجعل الحرب النفسية أكثر دقَّة من أيِّ معركة بالسلاح، فهي تدفعك إلى التقدُّم في الاتجاه الذي يريدك أن تسير فيه، وتُغريك بالتحرك نحو ما تظنُّه نصرًا. فإذا كان ميدان الحرب العلنية يُقاس بخرائط الأرض، فإنَّ ميدان الحرب النفسية يُقاس بخرائط الرغبة.

وهنا يتحوَّل السؤال من: "هل العدوُّ ضعيف فعلاً؟" إلى: "ما الذي يعنيه أن نُصدِّق أَنَّهُ ضعيف؟ ومن الذي يُحدِّد توقيت إدراكنا له على هذا النحو؟" فالصورة التي يقدِّمها الخصم عن ذاته، حتى حين تبدو مهينة له، قد تُستخدم أحيانًا باعتبارها خطوة محسوبة لإعادة تشكيل وعيك، وجرك إلى قرار صنعه لك سلفًا. وهكذا، تتقدَّم أنت بوهم الاختيار، فيما يُعاد رسم مسارك من خلال رغباتك نفسها.

وفي هذا النوع من الحروب، تنتصر بقدرة الوعي على التشكيك في ما بدا بديهياً، لا بالاندفاع، ولا بالخطب، ولا بلغة اليد العليا... حتى في لحظة النصر.

الاستراتيجية التاسعة والثمانون: أفرغ الرمز من معناه ثم اتركه قائماً

حين لا يهاجم العدو رمزك، بل يحوِّله إلى مرآة تُظهر صورته هو، وتنسى صورتك الأصلية ليست كل الحروب النفسية قائمة على الصدام مع رموز العدو أو تشويهاها أو السخرية منها. هناك نوع أخطر، وأشدُّ مراوغة، يعمل بصمت وعلى مدى زمني طويل، يُبقي الرمز كما هو: الاسم نفسه، والشكل نفسه، والمفردات نفسها، لكنّه يسحب منه، ببطء وتصميم، كل ما كان يُحرِّك به الجماعة، أو يشحن وجدانها، أو يدفعها إلى الفعل. إنّها استراتيجية التفريغ مع الإبقاء: يُترك الرمز ظاهراً في الفضاء العام، لكنّه يفقد دلالاته الأصلية ويتحوّل إلى إشارة تخدم وجهة أخرى دون أن يتغيّر شكله.

في علم الاجتماع الرمزي، يُطلق على هذه العملية مفهوم «احتواء الرمز وإعادة إنتاجه» (Symbolic Co-optation)، وهي تختلف عن التدمير أو التشويه. فحين يُدمر الرمز، يُخلق فراغٌ يدركه الوعي الجمعي فوراً، ويحاول ملأه أو استعادته. أمّا حين يُحتوى الرمز دون أن يُمسَّ شكله، فإنّ الوعي يتكيّف معه دون أن يشعر أن شيئاً تغيّر، ويبدأ

تدريجياً في التعامل معه بوصفه جزءاً من النظام القائم لا تهديداً له. وهنا، يتناقص المعنى تدريجياً مع كلِّ تكرارٍ خامل، وكلِّ سياقٍ منزوعٍ من شروطه، حتى يصبح وجوده طقساً بلا تحريض، ورايةً بلا اتجاه.

ما يجري في هذا السياق ليس محوًّا للرمز بل اختراقاً له من الداخل، ليعاد ربطه بدلالات لا تُهدد المنظومة المسيطرة. وتتحقّق هذه العملية عادة عبر ثلاث مراحل متراكبة: أوّلاً؛ تكرار الرمز خارج سياقه الصراعي، ثم إعادة تقديمه ضمن خطاب رسمي أو إعلامي مألوف، وثالثاً؛ ربطه بمفاهيم عامّة ومسالمة، مثل التسامح، أو الذكري، أو الإنسانية، بدل ارتباطه بالغضب أو المطالبة أو الثورة.

نرى ذلك في محاولات العدو لإعادة تعريف رمزية "النكبة" في الخطاب السياسي المَعوَّلَم. لم تُعد النكبة، كما تُعرض في بعض المنصّات، طرداً قسرياً واحتلالاً استيطانياً، بل تُقدّم باعتبارها أزمة إنسانية مؤلمة، أو صفحة من صفحات الشتات، يُراد تذكُّرها بوصفها مأساة قابلة للتضميد بالتعايش. هنا لا يُنكّر الحدث، بل يُعاد تشكيل معناه؛ بحيث يُصبح صالحاً للاستيعاب ضمن سردية العالم، لا قضية تحرّر بل قصّة ألم خافتة تطلب التعاطف وتُبعد الغضب.

وفي لبنان، ما يزال "عيد التحرير" قائماً، تُقام له الاحتفالات وتُرفع

فيه الشعارات، لكن تُبذل جهود في بعض الفضاءات لتحديد عن سياقه المقاوم: يصبح "إنجازاً وطنياً لكل اللبنانيين"، يُحتفى به باعتباره ذكرى لا موقفاً، وتُروى تفاصيله كما تُروى الانتصارات القديمة، لا باعتباره إرثاً مفتوحاً على صراع مستمر. فتُجرّد الرمزية من طابعها الاستنهاضي، وتُسحب منها قابليتها لإنتاج إرادة جديدة، وتبقى محفوظة في أرشيف الدولة، لا في ذاكرة الحشد.

وفي العراق، تحوّلت رمزية "عاشوراء" في بعض الخطابات الرسمية إلى لحظة خُلّقية، يُستخرج منها درس الصبر بدل درس الثورة، وفضيلة الصمت بدل صيحة "هيهات منّا الذلّة". لم تُحظّر المجالس، ولم يُمنع اللطم، بل ترك كلُّ شيء قائماً، لكنّه محكوم بسقف منخفض من التأويل، لا يتعدّى بكاء العبرة إلى غضب الفعل. والنتيجة أنّ الرمز الذي كان - تاريخياً - مولّداً لحركات احتجاج ونزاعات مع الاستبداد، يُعاد تصنيعه ليُصبح لحظة وجدان شخصي، تُغني الفرد، وتُحيّد الجماعة. ما يجعل هذه الاستراتيجية فعّالة؛ أنّ الناس يُمارسون الرمز كلَّ عام، وكلَّ موسم، وهم يظنون أنّهم ما زالوا يحملونه كما كان. فيما هم، دون وعي، أعادوا إنتاج الرمز بيدهم، لكن وفق القلب الذي صاغه العدو، أو الذي سوّقه السلطة، أو الذي فرضه السياق العالمي المعادي لكلِّ ما هو تعبويٌّ أو انفعاليٌّ أو ثوري.

وهنا، تتوارى الحرب النفسية عن الأنظار، وتغيب المواجهة عن الوعي؛ لأنَّ العدوَّ لم يعد يجمع الرمز، بل يتسم له. ويقول للناس: احتفلوا كما شئتم، واذكروا كما شئتم، لكنْ فقط بالطريقة التي لن تُنتج منكم شيئاً.

والنتيجة أنَّ الرمز، إذ يبقى على قيد الشكل، ويُعاد توجيه معناه، لا يموت دفعة واحدة، بل يتآكل من الداخل بهدوء، يُفرِّغ عبر الإشباع الزائف، ويُنهك بالترار الفارغ. وكلَّما ظنَّ الناس أنَّهم ما زالوا يُحيونه، كانوا في الحقيقة يُعمِّقون المسافة بين صورته الأولى، وما آل إليه تحت سقف النظام الذي جعله مرثياً... كي لا يُرى.

الاستراتيجية التسعون: بذر الحنين في قلب العدو

حين تُستخدم ذاكرة العدو ضده، ويُستدرج إلى ماضٍ أنت من صنعه له، تنقلب أدواته عليه

في كثير من الأحيان، تكفي الحرب النفسية بلحظة واحدة من إعادة توجيه ذاكرة العدو بطريقة خبيثة، دون حاجة إلى السخرية منه أو تفكيك خطابه أو التشويش على رموزه. في هذه اللحظة، يُستدرج العدو إلى زمن يتخيله كما يحبُّ، فيتشبَّث به، ويتوهم أن السبيل للنجاة هو بالعودة إليه، فينفض عن شروط الواقع. إنها استراتيجية إغراق الذات بالحنين المصنوع، حيث يُخدع العدو في ما يظنُّه أساس هويته، ويُعاد تشكيل إدراكه من الداخل.

تعمل هذه التقنية انطلاقاً من فرضية في علم النفس الجمعي مفادها أنَّ الجماعات حين تدخل في دوامة من التهديد واللايقين، تعود تلقائياً إلى محطات شعورية تعتبرها آمنة ومطمئنة. هذه العودة تنبع من نزعة دفاعية تُعيد إنتاج الماضي ملاذاً رمزياً. وهنا، تتدخل الحرب النفسية لصناعة هذا الماضي، أو بالأحرى، لإعادة تطيره بحيث يُقدَّم للعدو كما يريد أن يتذكره، فيتعلق بصورة وهمية تُعطله عند مستوى الحنين، وتُبعده عن الفعل.

في السياق الصهيوني، دفعت المقاومة العدو إلى فقدان الشعور بالثقة بالمستقبل، من خلال إرباك الجبهة الداخلية بحالة استنزاف وجودي. فبدأ الخطاب الصهيوني الرسمي يتحدّث عن «الزمن الجميل»، وعمّا قبل الانتفاضة الأولى، وعن «أيام ما قبل حزب الله»، وعن «إسرائيل القوية قبل انقسام المجتمع». تحوّلت هذه الاستعدادات إلى ثقافة سياسية داخلية تطالب بالرجوع إلى «ما كنّا عليه»، ما أدى إلى انفصال جزئي عن الحاضر، وانشغال باستعادة نمط قديم من القوة، وتراجع في مواجهة الحقيقة الجديدة.

وفي التجربة الأميركية في العراق؛ حين تدهور المشروع الاحتلالي، بدأت ماكينة الخطاب السياسي والإعلامي في واشنطن تستدعي صورة «تحرير أوروبا من النازية»، أو «إعادة بناء اليابان»، وقدّمت الاحتلال امتداداً لهذه الصور البطولية في ذاكرة الذات الأميركية. هذا الربط بين الحاضر والماضي جاء محاولة دفاع نفسي لتبرير الإخفاق من خلال اللجوء إلى رموز تاريخية تملك قوة خُلقيّة مزعومة. وبهذا المسار، تعطلّت القدرة على الاعتراف بالفشل، وبقيت النخبة الحاكمة رهينةً حين لا يشبه ما يجري فعلياً في الفلوجة أو البصرة.

وفي حالات أخرى؛ يظهر الأثر المعكوس لهذه الاستراتيجية حين يُحقّن العدوُّ برغبة العودة إلى نماذج من قيادته السابقة أو خطابه

التأسيسية، فيصبح أسير صورة لم تعد ممكنة. يُحبطه الحاضر، ويُجمله الماضي، فيقع بين زمنين لا يتصلان، ويخسر القدرة على المبادرة. بذُرُ الحنين هنا يتجاوز التذكير بأمجاد سابقة، ليُقنع العدوَّ بأنَّ خلاصه الوحيد يكمن في العودة إليها، حتى حين يكون الزمن قد تغيرَّ والواقع قد تحوَّل. فيتوقَّف عن التخطيط والإبداع، ويعيش على أطلالٍ صيغت له بذكاء، ويتحوَّل من فاعلٍ إلى راوٍ، ومن مقاتلٍ إلى مرَّمٍ لرواية قديمة.

وما إن تنقلب ذاكرته إلى عبء، ويصبح ماضيه أثقل من حاضره، تتعطلَّ قدرته على المواجهة. فهو لا يحتاج إلى خصم خارجي ليُرَبِّكه... الحنين الذي في داخله قد تكفَّلَ بذلك.

الاستراتيجية الحادية والتسعون: احجب النور دون أن تُطفئه

حين يرى النور دون أن يُشعرَ بالدفع؛ تموت الحقيقةُ ببطء
عندما تُترك الحقيقةُ ظاهرةً، وتفشلُ في الوصولِ إلى الدَّاخلِ، تنشأُ
أكثرُ أدواتِ الحربِ النَّفْسِيَّةِ براعةً.

من بين هذه الأدوات؛ تلك التي لا تعتمد على الكذب أو التشويه،
بل تُبقي الحقيقةَ مكشوفةً، ومرئيةً، ومتاحةً للجميع دون حجب أو
قمع. ومع ذلك، تفقد الحقيقةُ فاعليتها. تُعرض ببرود، في سياق يسمح
لها بالمرور، ويمنعها من التأثير. كأنَّ النور يُرى، لكنَّ دفأه لا يلامس
الداخل.

هذا النوع من الاستراتيجيات يستند إلى ما يُعرف في علم النفس
السياسي بالآيات «إضعاف الاستجابة الشعورية بالترار المُحايد»،
حيث تتراكم الصور والمعلومات والمآسي ضمن سلسلة طويلة من
المشاهد والأخبار والبيانات، فتتحوَّل إلى جزء من المشهد العام دون
أن تحرك ساكنًا. الحقيقة هنا تفقد قدرتها على الصدمة، نتيجة إشباعها
بالحضور الظاهري وتجريدها من شروطها الانفعالية. لم تعد تترافق مع
لحظة وعي، بل تُقدِّم باعتبارها عنصرًا اعتياديًا ضمن ضجيج مستمر.

في فلسطين، تُعرض مشاهد المجازر، وتُبتُّ صور جثث الأطفال وردد المنازل مباشرة. وما يُحيط بكلِّ ذلك هو شبكة معقّدة من الخطابات التفسيرية، والتعليقات الإخبارية، والموازنات الخُلُقِيَّة، وسرديات «الطرفين»، واللغة الباردة التي تُجيد قول كلِّ شيء دون أن تقول شيئاً. يظهر مشهد القتل، ويُرفَق بتحليل استراتيجي، أو تصريح دولي، أو تساؤل عن السياق الأمني، أو مقارنة مع ما سبق، فيفقد القدرة على اختراق الحاجز النفسي للجمهور. النور ظاهر، لكن تأثيره لا يتجاوز سطح الجلد.

وفي لبنان، حين تُكشَف عمليات التجسُّس، أو الانتهاكات الجوية، أو محاولات زرع الفتن الطائفية، يَسمح العدو للمعلومة أن تنتشر، وربما يُسهِّل ذلك بطرائق غير مباشرة. ثم تُرفَق بلغة تحليلية تطرح الشكَّ: «ما الفائدة من هذه المعلومات؟»، و«كلُّ القوى تتجسَّس»، و«هل هذه حقاً فضيحة؟»، و«أليست هذه اللعبة معروفة؟». وهكذا، تُستهلك المعلومة، وتُسحب من خزَّان المفاجأة، وتُحقَن بقدر كافٍ من المألوف حتى لا تُحدث الأثر.

في العراق، حين كانت الوقائع الفجّة لانتهاكات الاحتلال تُعرض في تقارير مستقلَّة، كانت تُرفَق بسردٍ تقني، أو تُحيط بها معلومات عن ردود أفعال رسمية، أو يُعاد تدويرها ضمن حديث عامٍّ عن «أخطاء

فردية»، أو «نقاط خلل في الإدارة الميدانية». وبمرور الوقت، أصبحت صور التعذيب تُنتج تحليلات قانونية، وبحثًا في الإجراءات، وتعليقًا على مستوى الشفافية، بدل أن تُنتج غضبًا. الفضيحة عُرِضت، لكنْ بطريقة تمنعها من التحوُّل إلى نقطة تحوُّل.

وفي اليمن، تُعرض مشاهد الحصار والمجاعة في بعض المنصَّات الغربية، وتُكتب عنها تقارير مصوَّرة عالية الجودة. لكنَّ الإطار الذي تُقدِّم فيه يزرع شعورًا بالارتباك الخُلقي، أو الإحباط السياسي، أو الحزن المجرَّد. تُغلق الحلقة دون أيِّ استنتاج، ويُرفق المشهد بموسيقى هادئة، أو بلقطة طفل يمشي وسط الركام... ثمَّ ينتقل المشاهد إلى إعلان عن منتج جديد. هكذا يُكسَّر الإيقاع الداخلي للوعي، ويُعاد تنظيم الانفعال ضمن دورة استهلاك سريعة لا تسمح بالتوقُّف أو الفهم أو الفعل.

هذه التقنية لا تشتغل على الخطاب المباشر بل على البنى المحيطة بالرسالة؛ من يتحكَّم بالسياق، يتحكَّم بالمعنى. ومن يُشبع العينَ بالصورة، دون أن يربطها بعاطفة صافية أو إحساس بالخطر أو بالظلم، يُبقِ الوعي عند سطح الرؤية دون أن يهبط إلى الأعماق. في هذه الحالة، تبدو الحقيقة كأنَّها منتصرة؛ لأنَّها ظاهرة للعيان. لكنَّها تفقد أثرها حين تُعرض بطريقة تقتل فاعليَّتها دون أن تمسَّ

المحورُ العاشرُ - الاستراتيجية الحادية والتسعون ٣٤٣

شكلها. وما يُنتج هذا هو طبقة كثيفة من العزل النفسي، تُبقي المعلومات حاضرة، وتمنع تحويلها إلى قوّة داخلية. العدو لا يُخفي الحدث، بل يفتحه للمشاهدة، بعد أن يكون قد أنجز كلّ ما يلزم كي لا يحدث شيء بعد المشاهدة.

الاستراتيجية الثانية والتسعون: أرهق وعي العدو بخطابك

حين يُغرقُ بالكلام؛ يكونُ قد عطَّلَ فعلك
عندما يُتركُ العدوُّ يتكلَّمُ، ويُدفعُ إلى الغرقِ في لغته، تتجلى إحدى
أكثر أدوات الحرب النَّفسية خفاءً.

في هذا النموذج، يُدفع الخصم إلى أن يشرح ويبرِّر ويفصِّل، حتى
يغرق في خطاب متشعب ومضطرب، يفقد فيه القدرة على الضبط
والتوجيه والتوقُّف. العدوُّ لا يواجه الخطاب المقاوم بالمصادرة، بل
يُفتح له المجال حتى الإنهاك. يُسمح له بالتمدُّد، لكن ضمن مساحات
تفقد السيطرة.

تعتمد هذه الاستراتيجية على ما يُعرف في علم النفس المعرفي
بظاهرة الإرهاق الإدراكي الناتج عن الإفراط المعلوماتي (Cognitive
Fatigue through Information Overload). وفيها يُدفع النظام
الإدراكي للجماعة إلى حالة من التشويش عبر إدخال كمٍّ هائل من
الرسائل والمفردات والاحتمالات، فتضيع بوصلة الفهم، وتتآكل القدرة
على التمييز بين الأساس والثانوي. ومع الوقت، يتضخَّم الخطاب
خارج طاقته على التنظيم، فيفقد فعاليته.

وهذا ما تفعله المنظومة المعادية حين تدفع الجماعة المقاومة إلى استهلاك طاقتها الخطابية دون تحقيق أثر تعبويٍّ أو توجيهي واضح. يُترك الناس يتحدثون، ويحللون، ويعيدون سرد الأحداث، ويتجادلون في التأويلات، ويدخلون في دوائر لا تنتهي من الشرح والتفصيل والتبرير. وفي الظاهر يبدو ذلك باعتباره حرّية أو كثافة وعي، لكنّه في العمق استنزاف للذهن الجماعي، وإغراق في بحر لا قرار له من اللغة. في فلسطين -على سبيل المثال- عملت الماكينات الإعلامية الصهيونية - بدعم من منصات دولية - على خلق فضاء كلامي مشوّش، تُضخُّ فيه مصطلحات، مثل: "الطرفين"، "دوامة العنف"، "ردود الأفعال"، "الإرهاب"، "الاحتواء"، "خفض التصعيد"، "التوازن"، "الاستقرار"... إلى آخر هذه المفردات التي تُجبر المقاومة على الردّ، وتدفعها للدخول في ساحة تفسيرية لا تنتهي. تصبح ملزمة بتبرير سلوكها، وتنفيذ الروايات، وتحديد المواقف الدقيقة من قضايا جزئية، وتُربك ترتيب أولوياتها الخطابية.

وفي لبنان، مارست الآلة الصهيونية - وعبر أدوات لبنانية داخلية أيضًا - شكلاً مشابهاً: يجري خلق سيل من الأسئلة والتحليلات والتساؤلات، في الإعلام والمجتمع عن توقيت الردّ، وشكله، وتكلفته، وخلفياته، وارتداداته... فيُدفع جمهور المقاومة ومنتقوها وخطابؤها

إلى الدخول في مناخ كلامي مشبَّع، تضيع فيه الحدود بين ما يجب شرحه وما يجب تركه. يجد الخطاب المقاوم نفسه موزَّعاً بين الدفاع عن شرعيته، والتوضيح لجمهوره، والتفنيد لخصومه، فيما يكون العدو قد حقَّق هدفه؛ تفكيك مركز الثقل اللغوي للوعي الجمعي المقاوم.

وفي العراق، وفي تجارب مشابهة يُفتح المجال عمداً أمام الفاعلين المناهضين للنفوذ الأجنبي للحديث في الإعلام والمنصَّات، ويُغذَّى الخطاب من حيث تكراره وتفتيته وتسريبه في بيئة تعيد إنتاجه باعتباره خلافاً داخلية، ونقاشات جانبية، ومزايدات بين الخطوط المتقاربة، حتى يتحوَّل من أداة تعبئة إلى مادة انقسام.

العدوُّ هنا لا يُسكِّت الصوت، بل يضعه في غرفة مملوءة بالصدى فيتلاشى الوضوح، ويتراجع المعنى، ويتفتَّت الجمهور. كلُّ شيء يُقال، دون أن يتحرَّك شيء. وهذا هو النصر الأعقد: حين يُسمح لك أن تتكلَّم كما تريد، بعد أن تكون قد فقدت القدرة على أن تُسمع كما يجب.

الاستراتيجية الثالثة والتسعون: ازرع الصوت داخل صوته

أخطر الهزائم أن يتكلم الخصم بلغتك حين يُستدرج العدو للتعبير عن نفسه مستخدماً لغتك؛ يظنُّ أنه يتحرك ضمن منطق الخاص، تكون قد بلغت ذروة التأثير النفسي.

في الحروب الحديثة، تُصاغ أدوات السيطرة بوسائل تتجاوز القمع المباشر؛ إذ تُبنى استراتيجيات تعتمد على جذب الخصم إلى فضاء لغويٍّ محدّد؛ حيث يتحدّث ضمن منظومة مفهوميّة جرى إعدادها مسبقاً. هذا النوع من التوجيه لا يتطلّب فرضاً مباشراً؛ إذ يكفي أن يتبنّى الخصم لغة تُعيد تشكيل رؤيته للعالم، وتُعيد ترتيب أولوياته دون أن يشعر بذلك. حين يتحدّث الخصم بلغتك، فإنّه لا يكتفي باستخدام مفرداتك بل ينخرط في بنيتك الإدراكية، ويعيد إنتاج خطابك ضمن منطق الخاص دون أن يدرك أنّه قد غادر موقعه الأصلي.

الاستراتيجية المعتمدة هنا، تُعرف في علم النفس الاجتماعي والسلوك السياسي بـ«الاستدراج اللفظي» (Verbal Entrapment).

يُمنح الطرف الآخر مساحة واسعة للتعبير، ضمن سياق تمّ ضبطه بعناية. المفردات المستخدمة، وطريقة طرح الأسئلة، وتسلسل

السيناريوهات، جميعها تُسهّم في دفع المتحدّث إلى تبني مفاهيم لم تكن جزءاً من منظومته الأصلية. في هذا الإطار، تتحوّل اللغة إلى أداة توجيه دقيقة، تُعيد تشكيل الإدراك وتُعيد صياغة المواقف. المتحدّث يظنُّ أنه يعبر عن ذاته، فيما هو في الحقيقة يعيد إنتاج خطاب جرى تصميمه مسبقاً. هذا النوع من التوجيه لا يعتمد على الإقناع المباشر، بل على خلق بيئة لغوية تُغري بالانخراط، وتُعيد ترتيب المفاهيم من الداخل.

في السّياق الفلسطيني، عملت الآلة الإعلامية للعدو على إعادة تقديم مفاهيم مثل "السلام" و"التعايش" ضمن إطار يبدو إنسانياً وشاملاً. هذه المفاهيم لم تُطرح بوصفها بدائل للمطالب التاريخية، بل قُدّمت بوصفها قيماً عالمية تتجاوز الانتماءات السياسية. مع مرور الوقت، أصبح "السلام" مرتبطاً بمفاهيم مثل "خفض التصعيد" و"وقف العنف"، فيما تراجعت مفاهيم مثل "حق العودة" و"تحرير الأرض" إلى الخلفية. حتى من لم يتأثروا مباشرة بهذا الخطاب، بدؤوا يتعاملون مع هذه المفردات بوصفها محايدة، رغم أنّها أُفرغت من مضمونها الثوري. وهكذا، استُخدمت لغة المقاومة ذاتها، ضمن سياق يُعيد ترتيب دلالاتها، ويُعيد توجيهها نحو أهداف مختلفة تماماً. في لبنان، تبنّت بعض الأطراف السياسية مفردات مأخوذة من خطاب

المقاومة، مثل "السيادة"، و"الكرامة الوطنية"، و"رفض الهيمنة". هذه المفاهيم لم تُطرح ضمن خطاب تعبوي، بل أُدرجت في سياق رسمي، وتحوّلت إلى موضوعات قابلة للتفاوض بين القوى السياسية. الخطاب الذي كان يحرض على المواجهة، أصبح جزءاً من منظومة سياسية تسعى إلى التوافق. مع مرور الوقت، تحوّلت المفردات إلى أدوات تداوُل داخل النظام، وفقدت قدرتها على التعبئة والتحريض. الكلمات التي وُلدت في سياق المواجهة، أصبحت تُستخدم على طاوولات الحوار، وتُعاد صياغتها بما يتناسب مع منطلق الدولة ومصالحها. العدوُّ في هذا السياق لا يواجه خطاباً مقاوماً، بل ينجح في استيعابه ضمن لعبته الخاصة. المقاومة التي بدأت برفض شامل، تجد نفسها تدريجياً تتحدّث ضمن مفاهيم لا تنتمي إلى بنيتها الأصلية. اللغة التي كانت أداةً للتحريض والتحرُّر، تتحوّل إلى وسيلة لإعادة إنتاج الواقع القائم. ومع استمرار هذا التحوُّل، يصبح الصوت المقاوم جزءاً من البنية التي كان يسعى إلى تقويضها.

الاستراتيجية الرَّابِعَةُ والتَّسْعُونَ: اجْعَلِ الشَّكَّ بَدِيلًا عَنِ الْإِنْكَارِ

حين ينجحُ العدوُّ في تجنُّبِ المواجهةِ المباشرةِ مع الحقيقةِ
يكتفي بزرع الشكِّ في الذهن، يصبح تأثيره أكثر عمقاً واستمرارية.
في الحروب النفسية، تُستخدم أساليب خفية تُعيد تشكيل الإدراك
من الداخل. من بين هذه الأساليب؛ يبرز نمط يعتمد على التشكيك
المتدرج، حيث تُستبدل المواجهة الصريحة بسلسلة من التساؤلات
التي تُربك الذهن وتُضعف القدرة على التمييز، وتحوّل الثقة إلى تردّد،
واليقين إلى حيرة.

هذا النمط يُعرف في علم النفس المعرفي بـ «التشكيك المنهجي»
(Methodical Doubt). يُزرع في الوعي الجماعي تساؤلاً دائماً، يتسلّل
إلى المفاهيم المستقرّة ويُعيد ترتيبها. لا تُطرح الأسئلة بهدف الوصول
إلى إجابات، وإنما تُستخدم أدوات لإثارة التردّد، وتفكيك البديهيّات.
مع الوقت، يتحوّل الشكُّ إلى قاعدة ذهنية، ويُصبح الاستقرار
على موقف واضح أمراً عسيراً. في هذه الحالة، لا يختفي الفهم بل
يتخذ شكلاً ضبابياً، حيث تتراجع الحدود بين الحقيقة والوهم، وتفقد
المفاهيم وضوحها السابق.

في المجتمعات التي تواجه قمعاً أو احتلالاً، تُستخدم هذه التقنية لإضعاف الموقف الجماعي. تُطرح قضايا فرعية تُزاحم الأولويات الكبرى، وتُستبدل الأسئلة الجوهرية بتفاصيل تُشتت الانتباه. هل النضال يجب أن يكون مسلحاً أم مدنياً؟ وهل المشروع الوطني يتطلب طابعاً دينياً أم علمانياً؟ وهل الأولوية للتحرير أم للإصلاح؟ هذه الأسئلة تُطرح بكثافة، وتُعيد تشكيل النقاش العام، فتراجع القضايا المركزية أمام طوفان من التفاصيل المتداخلة. ومع تكرار هذه الأسئلة، تتآكل القنوات التي كانت تشكّل أساسَ الموقف الشعبي، ويبدأ الناس في مراجعة ما كانوا يعدّونه من المسلّمات.

في فلسطين، لم تُقابل مطالب المقاومة بالرفض المباشر؛ إذ جرى إدخال الشكّ إلى داخلها. بدأ الحديث عن توقيت الصراع، وعن مدى واقعية الأهداف، وعن إمكانيات التسوية. لم تُلغ فكرة الاحتلال، لكنها قدّمت في صورة أقلّ حدّة، تُثير تساؤلات عن جدوى الاستمرار في المواجهة، وعن إمكانية تحقيق الأهداف من خلال التفاوض. في هذا السياق، يتحوّل النقاش من مواجهة مشروع استعماري إلى جدل داخلي حول الأولويات، وتُستنزف الطاقات في تحليل الخيارات بدل توجيهها نحو الفعل. ومع مرور الوقت، تتراجع الحماسة، ويحلُّ التردّد محلّ التصميم، وتفقد المقاومة جزءاً من زخمها التعبوي.

وفي لبنان بعد الانتصارات التي حققتها المقاومة ضد الاحتلال الإسرائيلي، جرى تحويل النقاش من الإنجاز إلى ضرورته. هل كان بالإمكان تجنُّب الحرب؟ وهل كانت التكلفة مبررة؟ ثمَّ انتقل الشكُّ إلى طبيعة القيادة، وإلى جدوى الاستمرار في المواجهة. بهذه الطريقة، يتحوَّل النقاش من الاحتفاء بالإنجاز إلى مراجعة دائمة تُضعف الثقة، وتُعيد تشكيل الموقف الشعبي تجاه المقاومة. ومع تكرار هذه الأسئلة، تتسرَّب الشكوك إلى الوعي العام، وتُصبح جزءاً من الخطاب اليومي، ما يُضعف القدرة على التعبئة، ويُعيد توجيه النقاش نحو قضايا هامشية. هذه الاستراتيجية تُبقي الوعي في حالة ترددٍ دائم. فُتُعاد صياغة الأسئلة بطريقة تُربك التفكير، وتُضعف القدرة على اتِّخاذ موقف واضح. حين يصبح الشكُّ هو الإطار العام للتفكير، يفقد القرار قوته، ويتحوَّل الفعل إلى ترددٍ، والموقف إلى حيرة. في هذا المناخ، يحتفظ العدوُّ بموقعه، دون الحاجة إلى فرضه بالقوَّة؛ إذ تكفيه بيئة مشبعة بالأسئلة المفتوحة، حيث تتآكل القناعات من الداخل، وتُستبدل الثقة بالتردد، ويُعاد تشكيل الوعي وفق شروط الخصم.

الاستراتيجية الخامسة والتسعون: الطُّرُقُ الخفيفةُ المستمرةُ

نقطةُ الماء التي تثقبُ الصَّخْرَ

حين تتعدَّرُ القدرةُ على توجيهِ الضَّرَبَاتِ المباشرةِ؛ يصبح الزمن هو الأداة الأكثر فاعليَّةً. في هندسة الحرب النفسية، لا تُقاس الفاعليَّةُ دومًا بشدَّة الهجوم؛ إذ يمكن لاستراتيجية تقوم على التكرار الهادئ والضغط المتواصل والإلحاح الرمزي أن تُحدث أثرًا أعمق من الضربة المفاجئة. بعض المعارك لا تُخاض عبر الانفجار، وإنما تتسلَّل عبر الزمن، وتُمارس فعل التآكل المستمر، والهدم الصامت، والتشويش المتراكم. في هذا السياق، تظهر واحدة من أكثر الاستراتيجيات فاعليَّةً حين يفتقر الطرف المقاوم إلى أدوات المواجهة الكبرى؛ استراتيجية الطرق المتكرِّرة التي تستلهم قانونها من صورة خالدة في الوعي الإنساني؛ قطة الماء التي تثقب الصخر عبر التكرار.

تكمُن قوَّة هذا النمط في اعتماده على التصميم الثابت، والإيقاع المنتظم، والتوجُّه نحو نقطة محدَّدة في بنية الخصم. لا حاجة إلى مفاجآت أو صدمات؛ إذ يكفي أن يستمرَّ الضغط دون انقطاع. حتى حين يبدو التأثير سطحيًّا أو هامشيًّا، فإنَّ التراكم هو ما يصنع الفارق.

الأثرُ لا يظهر في اللحظة، بل يتجلّى بعد مرور الوقت، حين تتآكل البنية من الداخل، وتفقد قدرتها على الصمود. هذا النوع من الضغط لا يهدف إلى تحقيق نصر سريع، بل يسعى إلى خلق حالة من الإنهاك التدريجي؛ حيث يصبح الخصم أقلّ قدرة على التماسك، وأقلّ استعداداً للمواجهة.

في مراحل متعدّدة، لجأت قوى المقاومة إلى هذا الأسلوب حين لم تكن تملك تفوقاً ميدانيّاً. حين يمتلك العدو السيطرة الجوية والتفوق التسليحي والدعم السياسي، يصبح الاستنزاف الخفيّ هو الخيار الأكثر حكمة. في لبنان، خلال سنوات ما قبل التحرير، لم تكن المقاومة قادرة على اجتياح المواقع الإسرائيلية دفعة واحدة، لكنّها اعتمدت على الكمائن، والقصف المتقطّع، والتشويش على حركة الجنود، وتحويل الأرض إلى مساحة غير آمنة. في البداية، بدت هذه العمليات رمزية، لكنّ أثرها تراكم مع الوقت. بدأت الشكاوى تتصاعد من داخل المؤسّسة العسكرية الإسرائيلية، وظهرت مؤشّرات على تراجع الحماسة لدى الجنود، ورفض بعض العائلات إرسال أبنائها إلى الجبهة. لم يكن هناك حدث مفصلي واحد، بل سلسلة من الضربات الصغيرة التي صنعت نزيهاً يومياً لا يمكن تجاهله.

وفي غزّة، اتخذت الاستراتيجية شكلاً آخر؛ طائرة مسيرة، ثمّ

صاروخ، ثم نفق، ثم رسالة إعلامية، ثم ظهور بحري، وكل ذلك ضمن إيقاع متقطع لكنّه متواصل. هذه الأفعال، رغم تباعدها الزمني أحياناً، تُنتج حالة من القلق البيوي لدى العدو. لا توجد صدمة واحدة تُغيّر المشهد بل مشهد يتغيّر تدريجياً عبر إشارات متكرّرة، تُبقي الخصم في حالة تأهب دائم، وتمنعه من بناء استقرار نفسي أو ميداني. هذا النوع من الضغط لا يحدث انهياراً مفاجئاً، لكنّه يُبقي الجبهة المقابلة في حالة توتر دائم، ويمنعها من التقاط أنفاسها.

في الميدان الإعلامي والنفسي؛ تتجلى هذه الاستراتيجية من خلال التركيز على فكرة واحدة تُعاد بصيغ متعدّدة، ومنصّات مختلفة، وأساليب متنوّعة. لا تُقدّم الرسالة باعتبارها مفاجأة بل إيقاعاً دائماً: المقاومة مستمرّة، والاحتلال هشٌّ، والنصر ممكن. هذه الرسائل لا تُحدث ضجيجاً، لكنّها تخترق الدفاعات النفسية للعدوّ، وتُنهكه من الداخل. حين يُضطرُّ إلى صدّ الرسالة ذاتها مراراً، يفقد مناعته تجاهها، ويبدأ في التعامل معها بوصفها تهديداً دائماً لا يزول.

في علم النفس الاجتماعي، يُعرف هذا الأسلوب بمفعول التكرار الخفي؛ حيث تؤديّ الرسائل البسيطة المتكرّرة إلى إحداث تبدّل في الإحساس العام، دون الحاجة إلى إقناع منطقي مباشر. هذا التكرار لا يهدف إلى تغيير الرأي بل إلى زعزعة التوازن الداخلي، وخلق تشقّقات

في البنية الإدراكية. ومع مرور الوقت، تَتَّسِعُ هذه التَشَقُّقَاتُ، ويبدأ الخصم في فقدان ثقته بصورته، ويُعيد النظر في روايته، ويُرَهَقُ في محاولات الترميم المستمرة.

الاستراتيجية هنا لا تسعى إلى إثبات القوة، وإنما تهدف إلى إرباك تصوُّرات العدو عن صلابته. الهدف ليس إسقاطه بضربة واحدة، وإنما إدخاله في دائرة لا تهدأ؛ حيث يتحوَّل الزمن إلى أداة ضغط، ويصبح الاستنزاف هو السلاح الأشد فتكًا. حين يفقد الخصم السيطرة على الزمن، يفقد معها زمام المبادرة، ويبدأ بالتآكل من الداخل، حتى دون أن يُهزم في الظاهر. فالصخر لا ينفجر، لكنَّه ينكسر حين تصنع القَطْرَةُ صدعًا لا يُرَأَب.

الاستراتيجية السّادسةُ والتّسعون: صناعةُ البديلِ المحايدِ

حين يُستبدلُ الوضوحُ بمنطقيةٍ رماديّةٍ؛ يُمحيّ العدوُّ من المشهدِ

عندما يُعرضُ خيارٌ باهتٌ يخلو من الملامح؛ يُقدّمُ بديلاً عن الخيارِ الواضحِ، تتخذُ المواجهةُ شكلاً أكثرَ خفاءً. في كثيرٍ من الأحيان، لا تُدارُ المعركةُ عبرِ القمعِ المباشرِ أو المواجهةِ الصريحة، بل تُبنى على تقديمِ بدائلٍ تبدو هادئةً، ومقبولةً، ومُغلّفةً بخطابٍ وطنيٍّ أو خُلقيٍّ. هذه البدائلُ لا تُطرحُ لمجردِ التنوُّعِ بل تُستخدمُ أدواتٌ لمحاصرةِ الخيارِ المقاومِ من الداخلِ، دون الحاجةِ إلى التصادمِ معه. يُعاد تشكيلُ المشهدِ عبرِ خطابٍ محايدٍ ظاهريّاً، يُفرغُ الفعلَ المقاومِ من شرعيته، ويُعيد تعريفَه بوصفه خياراً متطرّفًا أو غير عقلائيٍّ.

هذا النمطُ يُعرفُ في الحروبِ النفسيةِ بـ «صناعةِ البديلِ المحايدِ»؛ حيثُ تُخلقُ واجهاتٌ فكريةٌ أو سياسيةٌ أو دينيةٌ تتبنّى لغةَ ناعمةٍ، وتُقدّمُ حللاً وسطاً، فيما الهدفُ الحقيقيُّ منها يتمثّلُ في تحييدِ الصراعِ واحتواءِ الجمهورِ. يُقالُ: «نحن مع الاستقرار»، أو «نريد الحياة»، أو «نرفض التطبيع، لكننا نؤمن بالحوار». هذه العباراتُ تُصاغُ بعنايةٍ لتبدو متّزنةً، لكنّها تُستخدمُ لتقويضِ الفعلِ المقاومِ، عبر الإيحاءِ بأنّ الموقفَ

الرمادي أكثر إنسانية، وأكثر عقلانية، وأكثر توافقاً مع متطلبات العصر. في لبنان وفلسطين والعراق وسورية، برزت خلال السنوات الأخيرة أصوات تُنسب إلى ما يُسمَّى بـ «المجتمع المدني الجديد». هذا التيار يُقدِّم على أنه غير حزبي، لا ينتمي إلى أيِّ محور، ولا يحمل عداءً لأيِّ طرف. عند التمحيص، يتَّضح أنَّ خطابه موجَّه بشكل غير مباشر نحو المقاومة. يُحمِّلها المسؤولية، يُشكِّك في سرديتها، ويُحمِّلها كلفة الفوضى، دون أن يُسمِّي العدوَّ أو يُحمِّله أيِّ تبعات. هذا الخطاب لا يعلن انحيازه، لكنَّه يُمارس تأثيراً واضحاً في اتجاه واحد.

في هذا السياق، تُستخدم منظَّمات غير حكومية، شخصيات ثقافية، ومؤسسات دينية للعب دور «الوسيط الحيادي». هذا الحياد لا يتوسَّط بين قوتين متكافئتين، بل يُعاد توظيفه بين طرف يطالب بحقه، وآخر يمارس القمع. يُعاد تعريف الصراع بوصفه خلافاً في وجهات النظر، أو خلافاً في التواصل، أو أزمة يمكن تجاوزها عبر الحوار. بهذه الطريقة، يُمحي العدوُّ من المشهد، وتُحمَّل المقاومة وحدها مسؤولية التوتُّر؛ كأنَّها الطرف الوحيد الذي يُنتج العنف.

يصف علم النفس السياسي هذا النمط بـ «إعادة تشكيل السردية عبر نزع الاستقطاب المصطنع» (Manufactured De-Polarization). يُقدِّم خطاب يبدو معتدلاً، لكنَّه يُبعد الجمهور عن مواقع الاشتباك،

ويُدجِّنه في منطقة رمادية؛ حيث تتآكل القناعات، ويضعف الالتزام، ويحلُّ الإنهاك محلَّ الوضوح. هذا النوع من الخطاب لا يُواجه المقاومة بالعداء، بل يُغرقها في أسئلة لا تنتهي، ويُربك جمهورها، ويُضعف قدرتها على التعبئة.

تأثير هذا النمط يتجاوز حدود الخطاب؛ إذ يترك أثراً نفسياً عميقاً: التردد، والحيرة، وتآكل اليقين. الجمهور الذي كان يمتلك بوصلة واضحة، يجد نفسه محاصراً بخيارات رمادية، تُقدَّم بوصفها أكثر نضجاً، لكنّها تُفرغ الموقف من مضمونه. ومع الوقت، يتحوّل الالتزام إلى عبء، وتُستبدل القناعة بالتساؤل المستمر.

مواجهة هذا النمط لا تتطلّب خلق استقطاب مفتعل، بل تستدعي إعادة تعريف جوهر الصراع. المطلوب هو تسمية الأشياء بأسمائها، وتحديد المواقع بوضوح: مَنْ العدو؟ ومن الحليف؟ ومن يقف في المنتصف ليُربك الاتجاه. حين تُستعاد اللغة الواضحة، يُستعاد معها الوعي، وتُستعاد القدرة على الفعل.

الاستراتيجية السابعة والتسعون: تسليع الانتماء وتفريغهُ من المعنى

حين يتحوَّلُ الانتماءُ إلى بطاقة تعريف تُعلَّقُ على الصدر دون أن يرتبط بمشروع التزام فعلي، تتسلَّل الحرب النفسية إلى عمق الوعي الجمعي. في هذا السياق، لا يُطلب من الناس التخلي عن المقاومة، ولا يُدفعون إلى إعلان القطيعة معها. يُقدَّم لهم بديل أكثر نعومة؛ أن يشعروا بالقرب منها، وأن يتغنَّوا بها، وأن يعبروا عن محبَّتهم لها، دون أن يتحمَّلوا عبء الانخراط في مسارها. هذا الشكل من الانتماء لا يُنتج فعلاً، بل يُنتج طمأنينة رمزية تُشبع الحاجة النفسية دون أن تُحرِّك الإرادة.

تُرَوِّج في هذا الإطار علاقة جديدة مع المقاومة، تقوم على الإعجاب والانبهار، دون أن تتطلَّب مساءلة الذات أو مراجعة الموقف. تُصبح المقاومة مشهداً يُستعرض في المناسبات، أو وسمًا يُنشر على المنصَّات، أو صورة تُعلَّق على الجدران. يتحوَّل الرمز إلى غاية، وتُختزل الفكرة في لحظة وجدانية تُستهلك ثم تُنسى. هذا النمط لا ينشأ من فراغ، بل يُصاغ ضمن هندسة دقيقة تُمارسها أدوات التأثير المعادية، عبر الإعلام، والمنصَّات الرقمية، وبعض البرامج الثقافية التي تُشجِّع

على التماهي مع الشكل دون الجوهر.

في هذا السياق، تُقدّم مظاهر المقاومة بوصفها هُويّةً جاهزة. يُطلب من الناس أن «يشبهوا المقاومين» في مظهرهم، أو لغتهم، أو محيطهم، دون أن يُطلب منهم اتّخاذ موقف أو خوض تجربة. تُباع لهم صورة المقاومة، وتُمنح لهم رموزها، لكن دون أن تُفتح أمامهم أبواب الفعل. تُصبح الراية، أو الأغنية، أو الشعار، كافية لتأكيد الانتماء. لا حاجة إلى خطّة، ولا إلى موقع في الصراع، ولا إلى قرار يتجاوز التعبير العاطفي.

وقد ظهرت خلال السنوات الأخيرة حملات إعلامية تُروّج لهذا النمط من الانتماء. تُنتج أزياء، وأغان، وشخصيات، وشعارات، تُحاكي خطاب المقاومة، لكنّها لا تُفضي إلى أيّ فعلٍ تغييرٍ. تُقدّم هذه العناصر بوصفها علامات كافية للانتماء، وتُشبع الرغبة في القرب، دون أن تُحرّك الإرادة نحو الاشتباك. هذا النوع من التعبئة يُنتج جمهوراً متحمّساً، وصاحباً، ومنبهرًا، لكنّه غير قادر على الفعل.

يصف علم النفس الاجتماعي هذه الظاهرة بـ «الانتماء التعويضي» (Compensatory Identification)؛ حيث يُمنح الأفراد شعوراً بالهويّة دون وظيفة. تُصبح الهويّة وسيلة للإشباع النفسي، لا أداة للتغيير. تُعاد صياغة بيئة المقاومة بوصفها فضاءً رمزيًا جميلًا، وغنيًا بالصور والمشاعر، لكنّه خالٍ من الضغط والتحدّي والمواجهة. في هذا

الفضاء، يُستبدل الالتزام بالاحتفال، ويُستبدل الفعل بالتعبير، ويُستبدل القرار بالمزاج.

خطورة هذا النمط تكمن في أنه يُقنع الإنسان بأنه أدّى واجبه من خلال مشاركته الرمزية. يُخدّر الإحساس بالحاجة إلى التحرك، ويحلّ مكان الالتزام العميق شعور مؤقت بالرضا. هذا ما يحتاج إليه العدو تحديداً؛ جمهور يعبر عن حماسه دون أن يهدّد توازنه. جمهور يُحبّ المقاومة، دون أن يُشارك في مشروعها. جمهور يُردّد الشعارات، دون أن يتحمّل تبعاتها.

مواجهة هذا النمط لا تتطلب تأنيباً أو لومًا، بل تستدعي كشف اللعبة النفسية التي تُدار بهدوء. المطلوب هو إعادة طرح سؤال الانتماء: ما معناه؟ وكيف يُقاس؟ وأين يتجلّى؟ وهل يكفي أن نُظهر محبّتنا للمقاومة، أم أنّ المطلوب هو تمثّلها في قراراتنا اليومية، في خياراتنا، في تموضعنا داخل الصراع؟ الانتماء الحقيقي لا يُقاس بالكلمات، بل يُقاس بالثمن الذي نرضى بدفعه من أجل ما نُؤمن به.

حين يتحوّل الشعار إلى زينة، وتُصبح الهوية قناعاً، ويفقد الانتماء معناه. لا يسعى العدو إلى إسقاط الشعارات، بل يعمل على تحويلها إلى رموز فارغة، تُعلّق على الجدران، دون أن تُغيّر شيئاً في الواقع. وهنا تكمن الخطورة؛ أن يُفرغ القلب من مضمونه، وهو لا يزال يبتسم.

الاستراتيجية الثامنة والتسعون: صناعة بدائل بشرية تؤدي وظيفة العدو

حين تُنتج الحربُ النَّفسية رموزاً داخليةً

تُفكِّك المقاومةَ من داخلها من غير أن تُعلن العداء، قد تبدو هذه الاستراتيجية في ظاهرها مشابهة لبعض ما سبق، كاستنساخ الانتماء الزائف أو تفكيك الخطاب الرمادي، لكنّها تتمايز من حيث العمق البنيوي والوظيفة الموجهة: نحن هنا أمام إنتاج رمزي مدروس لأشخاص أو تيارات تنشأ داخل بيئة المقاومة، يؤدُّون وظيفة العدو لا تحت رايته، ولا بملامحه، بل بلغة الداخل. يتحدّثون لا بلسان العدو، بل باسم "الواقعية"، و"العقلانية"، و"إعادة قراءة المشروع"، و"المراجعة الثقافية"، و"المصلحة الوطنية". ومع ذلك؛ فإنّ مضمون خطاباتهم، وحصيلة تحركاتهم، تقود إلى النتيجة ذاتها التي يسعى إليها العدو: تفرغ الإرادة، سحب الثقة من المشروع، تعويم الصراع، إعادة ترتيب الأولويات بعيداً عن التحرُّر، وإقناع الناس بأنّ المقاومة أصبحت عبئاً ينبغي تجاوزه.

وهؤلاء لا يطرحون الاستسلام بصيغته المباشرة، بل يثيرون "سؤال الجدوى"، و"سؤال المستقبل"، و"سؤال الخسائر"، في سياقات

توحي بالحرص... لكنّها تنطوي على تآكل. ويظهرون في صورة الأكثر هدوءاً، والأقرب إلى هموم الناس، والأقدر على تقديم "خطاب غير أيديولوجي"، ما يمنحهم غطاءً شعبياً وشرعيةً نفسيةً يصعب اختراقها. هذا لا يندرج ضمن مجرد انتماء زائف. فالفرد الذي يرفع شعارات المقاومة دون التزام هو فرد ضعيف. أما هنا، فنحن أمام نموذج مُعدّ بعناية، يُصنع ويُروّج له ويُدار ليؤدّي وظيفة تفكيكية ناعمة، مستخدماً لغة بناها المشروع المقاوم نفسه.

وقد جرى رصد هذه الظاهرة في أكثر من ساحة: في لبنان، برز خطاب ثقافي يتحدّث بمفردات المقاومة لكنّه يهاجمها عملياً باسم "الدولة المدنية"، و"السلم الأهلي". في فلسطين، تروّج بعض المبادرات الشبابية لفكرة أنّ المقاومة الثقافية كافية، وأنّ السلاح مجرد ماضٍ مؤلم. في العراق، يُطرح خطاب يدّعي محاربة الفساد، لكنّه يوجّه سهامه حصرياً نحو قوى المقاومة، متجنّباً بنية الاحتلال الناعم. يسمّي علم النفس السياسي هذه الظاهرة بـ"التقمّص الوظيفي الداخلي للعدو" (Internal Functional Mimicry of the Adversary)؛ حيث يُبنى نموذج يُشبه البيئة المستهدفة شكلاً؛ ليعمل ضدها فعلياً، من غير أن يُكتشف بسهولة.

وحين يعجز العدو عن المواجهة المباشرة، يبحث عن أدوات تنفذ

إلى البنية من داخلها. لا يكتفي باستنساخ من يُشبهنا بالاسم، بل يسعى إلى من يُشبهنا بالتَّبرة، وبالخطاب، وبالألم؛ ليُقنَعنا أن نواجه أنفسنا بأيدينا.

ومواجهة هذه الحرب تبدأ بالوعي بهذه النماذج، لا بوصفها خصوصاً سياسيين أو ثقافيين، وإنما أدوات في هندسة حرب نفسية شاملة. أن نُفرِّق بين من ينتقد ليُصلح، ومن يُعيد ترتيب مفرداتنا لصالح النقيض. وأن نحذَر من الانخداع بالمظهر... فالحرب الخفية تصنع وجوهاً مألوفة؛ تقول ما نحبُّ سماعه، ثمّ تفعل ما لا نقبل رؤيته.

الاستراتيجية التاسعة والتسعون: إعادة تعريف النصر ومعايره

حين يُفْرَعُ النَّصْرُ مِنْ مضمونه وتُعادُ صياغُهُ سَقْفُ التَّوَقُّعَاتِ
يعمل العدوُّ على أكثر من مجرد كسر المقاومة عسكرياً؛ إذ يسعى
إلى إعادة تشكيل وعيها الجمعي بمعنى الانتصار ذاته. وإذا عجز عن
منعها من تحقيق إنجاز، سعى إلى تقليص قيمته. وإذا تعدَّر عليه الحدُّ
من فعلها، حاول تقليص أثره في الوجدان. فالمعركة تُخاض على
المعنى بقدر ما تُخاض على الأرض: ما النصر؟ ومتى يُعدُّ الإنجاز
إنجازاً بحق؟

تبدأ هذه الاستراتيجية بإغراق الفضاء الإعلامي والخطابي بتساؤلات
تُضعف الثقة بالنتائج. يُطرح: هل كانت المواجهة ناجحة فعلاً؟ أليست
الخسائر أضخم من المكاسب؟ أليس تراجع العدو خطوةً تمهيداً لتقدم
أوسع؟ ثم يُعاد تأطير كلِّ فعلٍ مقاوم ضمن منطق الخسائر المجردة:
من استشهد؟ ومن فقد منزله؟ ومن جاع؟ ومن أنْهك؟ دون النظر إلى
الصورة الأوسع.

وفي الوقت نفسه، يُعادُ رسمُ حدود «النصر الكامل» ليغدو هدفاً
شبه مستحيل: يجب إزالة الكيان، وتحرير كلِّ شبر، واستعادة كلِّ

المحورُ العاشرُ - الاستراتيجيةُ التاسعةُ والتسعون ٣١٧

حقُّ، وهزيمة العدوِّ دون قيد. وبهذا، يُقارن كلُّ إنجازٍ بالمطلق، فيبدو ضئيلاً، وهشاً، وناقصاً، وغير جدير.

ثم تُنسَج سرديات مناقضة. يُعاد تدوير خطاب الهزيمة تحت مسمَّى «القراءة الواقعية»، ويُقدِّم التراجع المرحليَّ حكمة، ويُتَّهَم من يعلن النصر بأنَّه «يبيع الوهم» أو «يخدع جمهوره». ويرسِّخ خطاب ثقافي باهت، يُحوِّل كلَّ إنجازٍ إلى فرضية، وكلَّ فرضية إلى خدعة، وكلَّ فرح إلى سذاجة.

في فلسطين، يُردِّد دوماً: «ما الذي غيرَتموه؟ العدوُّ ما زال في مكانه». في لبنان؛ يُقال بعد كلِّ مواجهة: «الخراب يعمُّ، فأين النصر؟». وفي العراق، يُسأل المقاومون: «أين السيادة التي تدَّعون استعادتها؟». وفي كلِّ هذه الخطابات، يُعاد تشكيل الإدراك النفسي للنصر، دون أن يتغيَّر واقعه الميداني.

يُعرَف هذا النمط في علم النفس السياسي بـ«تحويل السقف الإدراكي» (Reframing of Victory Threshold)، أي تعديل غير واعٍ في توقُّعات الناس لما يُعدُّ إنجازاً، بحيث يشعرون دائماً بأنَّهم لم يحققوا ما يكفي، حتى حين يُحرزون تقدُّماً كبيراً. العدوُّ يدرك أنَّ خسارته في الميدان لا تعني نهاية الجولة؛ إذ يمكنه أن ينتصر نفسياً بعد المعركة، حين يُقنع خصمه بأنَّ ما أنجزه بلا قيمة. ومع فتور حرارة

الاستراتيجية المئة: زرعُ الشُّكوكِ في قدرة القيادة العسكرية والسياسية

حين يُنفذُ العدوُّ حملةً نفسيةً لتقويضِ الثقةِ في القادة المقاومين.

من أخطر الأساليب النفسية التي يسعى العدوُّ إلى تنفيذها استهداف القيادة بشكل مباشر، سواء كانت سياسية أم عسكرية، بهدف زعزعة الثقة بها. تتسع هذه الاستراتيجية لتشمل تحريض الرأي العام ضدَّ القادة، والتشكيك في قدرتهم على اتِّخاذ قرارات صائبة، وإثارة الانقسامات داخل صفوف القيادة نفسها.

تبدأ الخطة بتكثيف الأخبار السلبية عن القيادة: هل هناك تباين في الآراء بين القادة؟ وهل القيادة العسكرية تخوض معركة مع القيادة السياسية؟ وهل هناك فساد أو تواطؤ في أوساط القيادة؟ من خلال هذه الأسئلة المشكِّكة، يُدفع الجمهور إلى إعادة النظر في صدقيَّة القادة، وقد يتسلَّل الشُّكُّ إلى النفوس بشأن قدرتهم على تحقيق النصر.

في الحرب النفسية، يعتمد العدوُّ على نشر الشائعات وزرع صور ذهنية سلبية: القائد العسكري الضعيف، القائد السياسي الذي يسعى وراء مصالحه، القائد الذي تساوره الشكوك. وفي الوقت ذاته، يُسلِّط

الضوء على شخصيات بديلة - ربمًا على هامش الجبهة - وتُقدَّم باعتباره قيادات أكثر تطورًا وواقعية في التفكير.

في غزّة - على سبيل المثال - تعرّضت القيادة السياسية للمقاومة لهجمات من الداخل والخارج، حاولت خلالها وسائل الإعلام المعادية تشويه الصورة المبدئية للقيادة السياسية عبر اتّهامات بالفساد أو الفشل. في لبنان، وعند بعض الأزمات السياسية؛ ركّزت وسائل الإعلام الغربية على زرع الشكوك في قدرة المقاومة على الاستمرار في ظل قيادة سياسية متّهمة بالفساد أو الخلافات مع الحلفاء. في العراق، استخدمت وسائل الإعلام الأمريكية أسلوبَ إبراز فشل بعض القيادات العسكرية في التصدي للعدوان، وتسليط الضوء على أيّ تضارب داخلي قد يُضعف موقف المقاومة.

يصف علم النفس السياسي هذا النوع من الحملات بـ «استراتيجية التفكيك القيادي» (Leadership Deconstruction Strategy)؛ حيث تُستهدف الهالة الرمزية المحيطة بالقيادة، ما يؤديّ إلى تراجع الثقة الشعبية، ويجد القادة أنفسهم محاصرين في دوائر من التشكيك المستمرّ. يتحوّل القائد من رمز نضالي إلى شخصية مثقلة بالاتّهامات، ما يُضعف الدعم الشعبي للمشروع المقاوم. مواجهة هذه الاستراتيجية تتطلب تعزيز الثقة في القيادة عبر التواصل

المباشر مع الجماهير، وإبراز وحدة الصفِّ القيادي في الأوقات الحرجة، وتوثيق النجاحات بطريقة تُظهر قدرة القادة على اتِّخاذ قرارات مدروسة. إدراك أنَّ المقاومة لا تحقِّق استمرارية دون وحدة القيادة وتعاون مكوّناتها يشكّل عنصراً أساساً في التصدي لهذه الحرب النفسية.

الخاتمة: حين يصيرُ الوعيُّ درعاً

هذه السَّهَامُ الممَّتةُ المبعثرةُ في صفحاتِ هذا الكتابِ تمثِّلُ انعكاساتٍ متعدِّدةً لوجهٍ واحدٍ من وجوهِ العمليَّاتِ النَّفْسِيَّةِ: الحروبُ التي تُخاضُ دون حاجةٍ إلى بارودٍ، وتستمرُّ دون إعلانِ هدنةٍ، وتمتدُّ دون توقيعٍ على حدودٍ. إنَّها حربٌ تدورُ في مساحاتِ الدَّهْنِ، وتستهدفُ قدرةَ الإنسانِ على أن يعرفَ، وأن يثقَ، وأن يتَّخذَ موقفاً. المعركةُ هنا تتجاوزُ الأرضَ، لتصبحَ صراعاً على المعنى.

هذه السَّهَامُ الخَفِيَّةُ تصدرُ من خلفِ الشَّاشاتِ، ومن تحتِ العناوينِ، ومن داخلِ السِّيَاقِ. لا تُصِيبُ الجسدَ، لكنَّها تُفسدُ البوصلةَ. لا تُحدثُ جراحاً، لكنَّها تُربِّكُ الإدراكَ. إنَّها تسري في صمتٍ، وتستقرُّ في الأعماقِ، لتعيدَ تشكيلَ وعيِ الإنسانِ بالعالمِ وبنفسه. وإذا كانتِ البنادقُ تُغيِّرُ الخرائطَ، فإنَّ هذه السَّهَامُ تُعيدُ رسمَ العقولِ. وإذا كانتِ الطَّائراتُ تدمِّرُ المدنَ، فإنَّ هذه الاستراتيجيَّاتُ تُقوِّضُ الحصونَ الدَّاخِلِيَّةَ التي تقومُ عليها المقاومةُ وتُبنى بها القضايا.

ما حاولَ هذا الكتابُ أن يقدِّمه لا يُصنَّفُ ضمنَ موسوعةٍ جاهزةٍ للردِّ، ولا يُدرجُ ضمنَ نظريَّاتٍ نهائيَّةٍ للتَّحصينِ، بل يُقترحُ باعتباره خريطةً أوليَّةً لأرضِ المعركةِ النَّفْسِيَّةِ كما تبدَّى اليومَ في وجوهها المتخفيَّةِ:

في الترفيه، وفي الخبر، وفي الخطاب السياسي، وفي تسميات الأشياء، وفي صناعة الصور، وفي إدارة الشعور، وفي إغراق الوعي بحقول من المعاني المعطلة. وكلُّ استراتيجية من هذه الاستراتيجيات كانت بمنزلة عدسة تكشفُ زاويةً خفيةً، تهدفُ إلى إنارةٍ مكمّنٍ لم يكن ظاهرًا في ساحة الصِّراع.

وعندما نقولُ؛ إنَّ الحربَ باتتْ رمزيَّةً، فالمقصودُ أنَّ الدَّم لم يعدُ يراقُ في الخنادقِ وحدها، بل في العمقِ النَّفسيِّ للإنسانِ المقاومِ، حين يُسحبُ من رموزه، أو يُختطفُ من سرديته، أو يُجرَّدُ من بوصلته، دون أن يشعرَ بأنَّه في مرمى سهم.

إنَّ المقاومةَ -أيَّ مقاومة- حين تنطلقُ من صدقِ داخليٍّ وشجاعةٍ في الرؤية، تملكُ القدرةَ على ردِّ السَّهامِ الصَّريحةِ. أمَّا العملياتُ النَّفسيَّةُ، فتكمنُ خطورتُها في قدرتها على إخفاءِ وجهها، وإبقاءِ اسمها مجهولًا. ولهذا فإنَّ أكثرَ ما يهدِّدُ المشروعَ التحرريَّ يتمثَّلُ في التَّكيُّفِ مع السَّهامِ التي لا تُرى، حتَّى تغدو جزءًا من الهواءِ.

وهنا تحديدًا تظهرُ الحاجةُ إلى وعيٍ جديدٍ يتجاوز التحليل، ويصوغ من ذاته درعًا معرفيًّا وسلوكيًّا، يردُّ السَّهمَ قبل أن يُطلق. وعيٌّ لا تنطلي عليه الكلماتُ المصقولة، ولا تُغريه الصورُ المصنوعة، ولا تُربِّكه الضغوطُ التي تتخفى في عباءة الاعتدال أو الواقعية أو العقلانية

المفخخة.

هذا الكتابُ يصلُ إلى السَّهْمِ المئة، دون أن يُغلق المعركة. فالسَّهَامُ مستمرة، والأقنعةُ تتبدَّل، والسِّيَاقَاتُ تتغيَّر، والعدوُّ لا يهدأ. كلُّ ما في الأمر أنَّ من يمسك بالوعي، يمسك بخيوط الحرب قبل أن تُحَاك. ومن يُدرك رمزية الهجوم، يعرف كيف يردُّ بالفعل المؤسَّس لرؤية تقاوم وتبني وتنتصر من الداخل أوَّلاً.

ولعلَّ أكبر انتصارٍ في هذه الحرب الخفية أن يبقى المعنى حيًّا، والرمزُ مشعًّا، والكلمةُ صادقة، ولو في عتمة الطوفان. فليس كلُّ سهمٍ يُطلقُ ليسبِّ الألم، فبعض السهام تُطلقُ لتوقظ، وبعضها يُفكِّك الوهم، وبعضها يُشير إلى طريق، لا إلى خصم. السَّهَامُ الخَفِيَّةُ لا تنتهي عند رقم، ولا تنتمي إلى زمن بعينه. إنها تخرج من بين الكلمات، وتعود إلى الصمت... تمامًا كما تفعل الحقيقة. حين تطوي الصفحة الأخيرة، لا تبحثُ عن سهم جديد، بل انظرْ حولك، ربَّما كان السهم فيك... أو ربَّما كنتَ أنت القوس.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع العربية

- جهاد سعد: علم النفس العسكري والحرب النفسية، منشورات وزارة الدفاع، دمشق، ١٩٩٨
- حامد عبد السلام زهران: علم النفس الاجتماعي، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٣.
- الشريف الرضي: نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٧.
- شوقي أبو خليل: الإعلام والحرب النفسية، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٦.
- صن تزو: فن الحرب، ترجمة رؤوف شحوري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١٢
- عبد الرحمن العيسوي: علم النفس الاجتماعي: النظريات والتطبيقات، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٧.
- عبد الفتاح أبو معال: الحرب النفسية والإعلام: أدوات الصراع الحديثة، دار الشروق، عمّان ٢٠٠٧.
- عبد الكريم بكار: الوعي الإستراتيجي، دار السلام، القاهرة، ٢٠١٢

- عبد الكريم بكّار: تكوين المفكر، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٨
- عبد الله النفيسي: الكيد السياسي في الاستراتيجية الغربية تجاه الإسلام، دار قرطبة الكويت، ١٩٩٩.
- عبد الله محمد الخطيب: مبادئ الحرب في الإسلام والاستراتيجية المعاصرة، دار النفائس، بيروت، ٢٠٠٥.
- فالح حنظل: الحرب النفسية في التاريخ العربي الإسلامي، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت، ٢٠٠٥.
- فؤاد البهي السيد: المدخل إلى علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٥
- كارل فون كلاوزفيتز: عن الحرب، ترجمة: أحمد عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة القاهرة، ٢٠٠٧.
- مالك بن نبي: شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦
- محمد السماك: الإسلام والعولمة الإعلامية، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٦.
- محمد بن يعقوب الكليني: الكافي، تحقيق علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية طهران، ١٣٨٨ هجري شمسي.
- محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٩٧.

لائحة المصادر والمراجع ٣٧٧

- محمد عمارة: معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٠.
- محمود البسيوني: الإقناع في علم النفس الاجتماعي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٨
- محمود عبد الرحمن: الحرب النفسية: أسسها ووسائلها وأساليبها، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٣.
- مصطفى فهمي: السيكولوجيا الاجتماعية: دراسة في سلوك الجماعة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٩.
- نيكولو مكيافيللي: فن الحرب، ترجمة أكرم مؤمن، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠٠٩
- ياسر عبد ربه: الحرب النفسية ضد المقاومة: قراءة في نماذج من الإعلام الصهيوني، مركز الزيتونة، بيروت، ٢٠١٤.

المراجع الأجنبية

- Albert Bandura: Aggression: A Social Learning Analysis, Prentice-Hall, New Jersey, 1973.
- B. H. Liddell Hart: Strategy, Praeger, New York, 1967.
- David Galula: Counterinsurgency Warfare: Theory and

Intergroup Relations, Brooks/Cole, Monterey, 1979.

- Jacques Ellul: Propaganda: The Formation of Men's Attitudes, Vintage Books, New York, 1973.
- John Boyd: A Discourse on Winning and Losing, Air University Press, 2018.
- Marshall McLuhan: Understanding Media: The Extensions of Man, MIT Press, Cambridge, 1994.
- Neil Postman: Amusing Ourselves to Death: Public Discourse in the Age of Show Business, Penguin Books, New York, 1985.
- Noam Chomsky and Edward Herman: Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media, Pantheon Books, New York, 1988.
- Philip Taylor, Munitions of the Mind: A History of Propaganda, Manchester University Press, 2003.
- Philip Zimbardo: The Lucifer Effect: Understanding How Good People Turn Evil, Random House, New York, 2007.

- Robert Cialdini: Influence: The Psychology of Persuasion, Harper Business, New York, 2006.
- Samuel Huntington: The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, Simon & Schuster, New York, 1996.
- Sigmund Freud: Group Psychology and the Analysis of the Ego, W. W. Norton, New York, 1959.
- Stanley Milgram: Obedience to Authority: An Experimental View, Harper Perennial, New York, 1974.
- Thomas Rid: Active Measures: The Secret History of Disinformation and Political Warfare, Farrar, Straus and Giroux, New York, 2020.
- William Lind et al.: The Changing Face of War: Into the Fourth Generation, Marine Corps Gazette, October 1989.

الفهرس

٥ | مقدمة

المحورُ الأوَّلُ ٩١

استراتيجياتُ الخداعِ والإرباكِ الإدراكيِّ

١١ | الاستراتيجية الأولى: مرايا المعنى المنحرفِ

١٥ | الاستراتيجية الثانية: عبورُ الحاقَّةِ بصوتِ مألوفٍ

١٩ | الاستراتيجية الثالثة: الضَّجيجُ الساحرُ

٢٣ | الاستراتيجية الرابعة: وَهْمُ التَّلَقائِيَّةِ

٢٧ | الاستراتيجية الخامسة: التَّنَاقُضُ المقصودُ

٣١ | الاستراتيجية السادسة: الجنونُ المحسوبُ

٣٤ | الاستراتيجية السَّابعة: كمينُ الثَّقَّةِ

٣٧ | الاستراتيجية الثامنة: تَأْكُلُ النَّمُوذَجِ

٤١ | الاستراتيجية التاسعة: تسخينُ الدَّاخِلِ

- ٤٥ | الاستراتيجية العاشرة: الكثافة المحبطة
- ٤٨ | الاستراتيجية الحادية عشرة: تطبيع الانكفاء
- ٥١ | الاستراتيجية الثانية عشرة: ترويض الانشغال
- ٥٤ | الاستراتيجية الثالثة عشرة: رقعة الشطرنج في رأس العدو

المحور الثاني | ٥٩

استراتيجيات الاستدراج والتفكيك

- ٦١ | الاستراتيجية الرابعة عشرة: دع الباب يُغلق من تلقائه
- ٦٥ | الاستراتيجية الخامسة عشرة: نزيه المرتفعات
- ٦٩ | الاستراتيجية السادسة عشرة: صيد النمر بالحنان
- ٧٣ | الاستراتيجية السابعة عشرة: بئر العسل
- ٧٦ | الاستراتيجية الثامنة عشرة: الحفرة في قلب السؤال
- ٨٠ | الاستراتيجية التاسعة عشرة: تسريب الشك

٨٣ | الاستراتيجية العشرون: تجزئة المعاناة الجماعية إلى آلامٍ فرديةٍ

٨٦ | الاستراتيجية الحادية والعشرون: أرضُ المعركةِ غيرِ المرئيةِ

المحورُ الثالثُ | ٩١

استراتيجياتُ الفوضى وتحويلِ السياقِ

٩٣ | الاستراتيجية الثانيةُ والعشرون: الغبارُ الذهنيُّ

٩٦ | الاستراتيجية الثالثةُ والعشرون: حين تشتعلُ المياهُ

٩٩ | الاستراتيجية الرابعةُ والعشرون: ابتسامةُ الصدمةِ

١٠٢ | الاستراتيجية الخامسةُ والعشرون: نارُ الغيابِ

١٠٥ | الاستراتيجية السادسةُ والعشرون: القصصُ الميتةُ

١٠٨ | الاستراتيجية السابعةُ والعشرون: الحرقُ الانفعاليُّ

١١٠ | الاستراتيجية الثامنةُ والعشرون: تحويلُ التعددِ إلى تناقضٍ

١١٣ | الاستراتيجية التاسعةُ والعشرون: تحويلُ الصمودِ إلى عبءٍ نفسيٍّ

- ١١٦ | الاستراتيجية الثلاثون: تثبيت العدو مرجعية معرفية وإخبارية
- ١١٩ | الاستراتيجية الحادية والثلاثون: ابتسامه الثعلب في حفل التتويج

المحورُ الرَّابِعُ ١٢٥١

استراتيجياتُ تحويلِ الضَّعْفِ إلى تأثيرٍ

- ١٢٧ | الاستراتيجية الثانية والثلاثون: بزوغُ من الفراغ
- ١٣١ | الاستراتيجية الثالثة والثلاثون: انعكاسُ المرأة
- ١٣٤ | الاستراتيجية الرابعة والثلاثون: طعمُ الزُّجاج
- ١٣٧ | الاستراتيجية الخامسة والثلاثون: الحافةُ النَّاعمةُ
- ١٤١ | الاستراتيجية السادسة والثلاثون: تشظيةُ القدوة
- ١٤٤ | الاستراتيجية السابعة والثلاثون: تهجينُ الخطاب
- ١٤٧ | الاستراتيجية الثامنة والثلاثون: إشغالُ النخبةِ بالحروبِ الخُلُقِيَّةِ الجانبيَّةِ
- ١٥٠ | الاستراتيجية التاسعة والثلاثون: تحويلُ النَّقْدِ إلى خصومةٍ

المحورُ الخامسُ | ١٥٣ استراتيجياتُ الانسحابِ الرمزيِّ والتَّأجيلِ

- ١٥٥ | الاستراتيجيةُّ الأربعون: انحناءُ العارفِ
- ١٥٩ | الاستراتيجيةُّ الحاديةُ والأربعون: انسحابُ في الضَّوءِ
- ١٦٣ | الاستراتيجيةُّ الثانيةُ والأربعون: خفَّةُ التَّوقيتِ
- ١٦٧ | الاستراتيجيةُّ الثالثةُ والأربعون: استراحةُ المفاجأةِ
- ١٧١ | الاستراتيجيةُّ الرَّابعةُ والأربعون: تضخيمُ الهوامشِ
- ١٧٤ | الاستراتيجيةُّ الخامسةُ والأربعون: الإغراقُ الرمزيُّ
- ١٧٧ | الاستراتيجيةُّ السَّادسةُ والأربعون: المرأةُ التي تُظهرُ ظهرَها

المحورُ السَّادسُ | ١٨١ استراتيجياتُ السَّيطرةِ النَّاعمةِ من الدَّاخلِ

- ١٨٣ | الاستراتيجيةُّ السَّابعةُ والأربعون: تنامي الظلِّ

- ١٨٧ | الاستراتيجية الثامنة والأربعون: الموجة الخلفية
- ١٩٠ | الاستراتيجية التاسعة والأربعون: تعقيد الارتباط
- ١٩٤ | الاستراتيجية الخمسون: أن يتحدث خصمك بلسانك
- ١٩٧ | الاستراتيجية الحادية والخمسون: ثقافة الإلغاء والتصفيه الرمزية
- ٢٠٠ | الاستراتيجية الثانية والخمسون: الفوضى المعرفية
- ٢٠٣ | الاستراتيجية الثالثة والخمسون: تضخيم الفروقات الثانوية
- ٢٠٥ | الاستراتيجية الرابعة والخمسون: النبش الانتقائي في الذاكرة
- ٢٠٨ | الاستراتيجية الخامسة والخمسون: صناعة الأنا التنظيمية المغلقة
- ٢١١ | الاستراتيجية السادسة والخمسون: تكريس النزعة التمثيلية داخل الجبهة
- ٢١٤ | الاستراتيجية السابعة والخمسون: توزيع السكاكين بين الحلفاء
- ٢١٨ | الاستراتيجية الثامنة والخمسون: عطسة في وجه العاصفة

المحورُ السَّابعُ ٢٢٣١ استراتيجياتُ الإغراقِ الإدراكيِّ والمبادرةِ النَّاعمةِ

- ٢٢٥ | الاستراتيجية التَّاسعةُ والخمسون: الصَّدمةُ الأولى
- ٢٢٩ | الاستراتيجية السُّتُون: الوخزُ في العصبِ
- ٢٣٢ | الاستراتيجية الحاديةُ والسُّتُون: المسُّ في المعنى
- ٢٣٥ | الاستراتيجية الثَّانيةُ والسُّتُون: عرشُ الصَّدى
- ٢٣٨ | الاستراتيجية الثَّالثةُ والسُّتُون: البصمةُ الأولى
- ٢٤٢ | الاستراتيجية الرَّابعةُ والسُّتُون: ملءُ السَّاحاتِ بالتَّفاهةِ
- ٢٤٥ | الاستراتيجية الخامسةُ والسُّتُون: المبالغةُ في التَّحليلِ لتفريغِ المعنى
- ٢٤٨ | الاستراتيجية السَّادسةُ والسُّتُون: المديحُ المشروطُ
- ٢٥٠ | الاستراتيجية السَّابعةُ والسُّتُون: التَّلَاعِبُ بالمفاهيمِ داخلِ المحتوى التَّرفيهِ

المحورُ الثَّامِنُ ٢٥٣١ استراتيجياتُ بناءِ الإيقاعِ النَّفْسِيِّ

- ٢٥٥ | الاستراتيجية الثَّامِنَةُ والسُّتُونُ: كيميائُ الجماعةِ
- ٢٥٩ | الاستراتيجية التَّاسِعَةُ والسُّتُونُ: قديسُ المعركةِ
- ٢٦٢ | الاستراتيجية السَّبْعُونُ: أرضُ الرِّغْبَةِ الأخيرةِ
- ٢٦٥ | الاستراتيجية الحاديةُ والسَّبْعُونُ: سقوطُ الذَّاتِ التَّلْقَائِيِّ
- ٢٦٩ | الاستراتيجية الثَّانِيَةُ والسَّبْعُونُ: تسكينُ المعنى بالشَّعَائِرِ
- ٢٧٢ | الاستراتيجية الثَّالِثَةُ والسَّبْعُونُ: تفكيكُ الرَّمْزِ بالشَّفَافِيَّةِ الزَّائِفَةِ
- ٢٧٥ | الاستراتيجية الرَّابِعَةُ والسَّبْعُونُ: بثُّ الشُّعُورِ بالاستغناءِ المتبادلِ
- ٢٧٨ | الاستراتيجية الخامسةُ والسَّبْعُونُ: التَّحْفِيزُ عَلَى العزلةِ الاجتماعيَّةِ للمؤمنينِ بالقضيةِ
- ٢٨١ | الاستراتيجية السَّادِسَةُ والسَّبْعُونُ: خيانةُ المعنى ببطءٍ

المحورُ التَّاسِعُ | ٢٨٥ استراتيجياتُ التَّشْوِيشِ الرَّمْزِيِّ

- ٢٨٧ | الاستراتيجية السَّابعةُ والسَّبْعون: المراقبةُ من خلفِ الرَّمادِ
- ٢٩١ | الاستراتيجية الثَّامنةُ والسَّبْعون: ورقُ الذَّهَبِ على صدأِ المعنى
- ٢٩٤ | الاستراتيجية التَّاسعةُ والسَّبْعون: انسحابُ الحضورِ
- ٢٩٧ | الاستراتيجية الثَّمانون: المخرجُ المخفيُّ
- ٣٠١ | الاستراتيجية الحاديةُ والثَّمانون: تنميطُ الدَّاتِ المقاومةِ
- ٣٠٥ | الاستراتيجية الثَّانيةُ والثَّمانون: تدويلُ المرجعيَّةِ
- ٣٠٨ | الاستراتيجية الثَّالثةُ والثَّمانون: تشويهُ رموزِ التَّضحيةِ وتقزيمُ القدواتِ
- ٣١١ | الاستراتيجية الرَّابعةُ والثَّمانون: تثبيتُ صورةِ الضَّعفِ في لواعي الأجيالِ
- ٣١٤ | الاستراتيجية الخامسةُ والثَّمانون: بناءُ صورةٍ مزيفةٍ عن العدوِّ في الوعيِ الجمعيِّ
- ٣١٦ | الاستراتيجية السَّادسةُ والثَّمانون: الظلُّ الذي يُشبهُك
- ٣٢٠ | الاستراتيجية السَّابعةُ والثَّمانون هندسةُ التَّنَاقُضِ الرَّمْزِيِّ

المحورُ العاشرُ | ٣٢٧ الاستراتيجياتُ الإبداعيةُ المضافةُ

- ٣٢٩ | الاستراتيجية الثامنةُ والثمانون: غدُّ العدوِّ من داخلِ شهوتهِ
- ٣٣٣ | الاستراتيجية التاسعةُ والثمانون: أفرغِ الرَّمزَ من معناه ثمَّ اتركه قائماً
- ٣٣٧ | الاستراتيجية التسعون: بذرُ الحنينِ في قلبِ العدوِّ
- ٣٤٠ | الاستراتيجية الحاديةُ والتسعون: احجبِ الثُّورَ دونَ أنْ تُطفئه
- ٣٤٤ | الاستراتيجية الثانيةُ والتسعون: أرهقْ وعيَ العدوِّ بخطابك
- ٣٤٧ | الاستراتيجية الثالثةُ والتسعون: ازرعِ الصَّوتَ داخلَ صوتهِ
- ٣٥٠ | الاستراتيجية الرابعةُ والتسعون: اجعلِ الشَّكَّ بديلاً عن الإنكارِ
- ٣٥٣ | الاستراتيجية الخامسةُ والتسعون: الطَّرْقُ الخفيفُ المستمرُّ
- ٣٥٧ | الاستراتيجية السادسةُ والتسعون: صناعةُ البديلِ المحايدِ

٣٦٠ | الاستراتيجية السابعة والتسعون: تسليح الانتماء وتفريغُه من المعنى

٣٦٣ | الاستراتيجية الثامنة والتسعون: صناعة بدائل بشرية تؤدي وظيفة العدو

٣٦٦ | الاستراتيجية التاسعة والتسعون: إعادة تعريف النصر ومعاييرِه

٣٦٩ | الاستراتيجية المئة: زرع الشكوك في قدرة القيادة العسكرية والسياسية

٣٧٢ | الخاتمة: حين يصير الوعي درعاً

٣٧٥ | لائحة المصادر والمراجع



مركزُ برائثا للدراساتِ والبُحوثِ

مركزُ بحثي مستقل غير ربحي، مقره في بيروت وبغداد. ويهدف لفتح المجالات العلمية والأكاديمية الواسعة، أمام الباحثين والمتخصصين؛ للقيام ببحوث تسعى إلى فهم واقع الإنسان والإنسانية، من خلال التركيز على دراسة الميادين الفلسفية، والاجتماعية، والإنسانية المتنوعة، التي تشكّل في مجموعها الحراك الاجتماعي والإنساني الكبير الحاصل في العالم، وخصوصاً في بلادنا العربية والإسلامية، ورصد الظواهر والتحديات الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والنفسية المختلفة، التي يمكن أن يواجهها الفرد والمجتمع، ومحاولة فهم ومدارسة الأسس الفلسفية والاجتماعية والدينية التأصيلية بموضوعية وجدة؛ سعياً للوصول إلى حلول لها؛ من أجل السمو بالإنسان وتقدمه في أبعاده الإنسانية المختلفة.

عن هذا الكتاب

في زمن تتقدّم فيه الجيوش بلا جنود، وتحتلّ فيه العقول قبل الأرض، تُصبح العمليّات النفسيةُ ساحةَ الصراعِ الأخطرِ... والأهدأ.

هذا الكتابُ الذي يُقدمه المُفكّرُ العربيُّ البارزُ الدكتور محمد مرتضى، ليس دليلاً عسكريّاً، وإنما هو خريطةٌ رمزيّةٌ لمئةٍ سهمٍ خفيٍّ، تُطلّقُ كلَّ يومٍ على الوعيِ الجَمعيِّ للجبهاتِ الحيّةِ. استراتيجياتٌ لا تُرى، لكنّها تعمل في العمقِ: تُربكُ، وتُشوِّشُ، وتُغري، وتُشكِّكُ، وتُفَرِّغُ المفاهيمَ من محتواها حتى تتأكلُ الجبهةُ من داخلها وهي تظن أنّها بخيرٌ.

من «تدجينِ الانتصارِ» إلى «تشويهِ الرُّموزِ»، ومن «التَّحفيزِ على العُزلةِ» إلى «خيانةِ المعنى ببطءٍ»، يُضيءُ هذا الكتابُ على أدواتِ العمليّاتِ الخفيّةِ التي تُستخدمُ ضدَّ كلِّ مشروعٍ مُقاومٍ في هذا العالمِ.

فالغرضُ أن تُدرِكَ أنّ الصمتَ سهمٌ أحياناً، وأنّ الصورةَ قد تكونُ فخاً، وأنّ التكرارَ ليس أماناً دائماً.

السهامُ الخفيّةُ... كتابٌ يُخاطبُ الوعيَ ليحميَ نفسه، ويكتبُ عن المعركةِ التي لا تُخاضُ بالبندقيةِ فقط، وإنما بالفكرِ.



مركزُ بَرائثِ للدراساتِ والبحوثِ
بيروت - بَنَدُوك